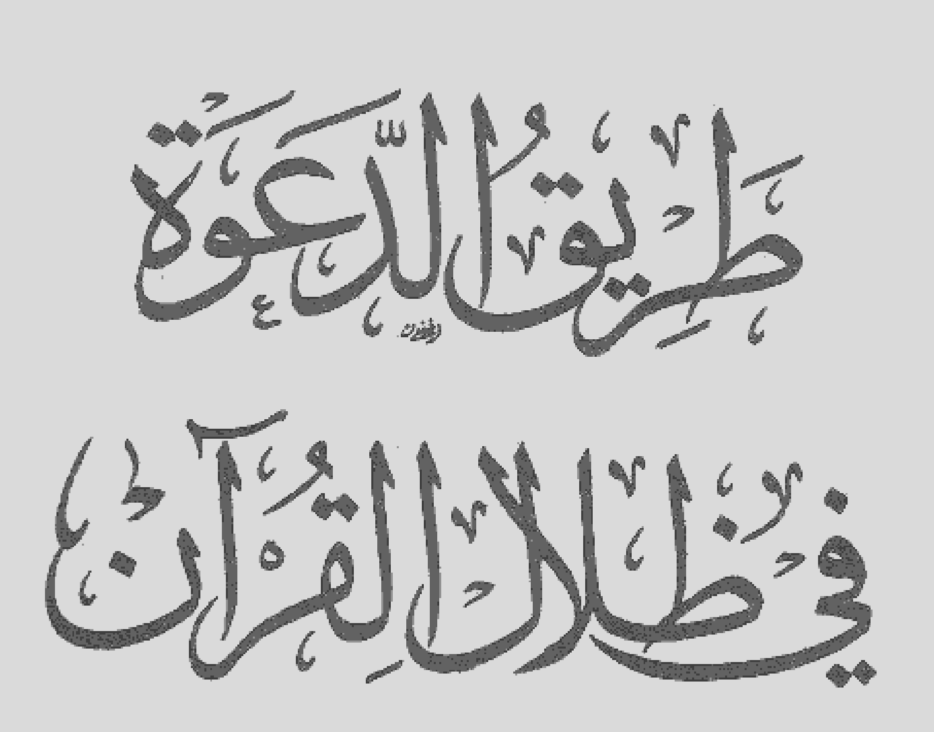


Sayyid Qutb behind bars


طريق الدعوة
في ظلال القرآن

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ ، انما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم يأخذ البشر من بشر مثلهم التصورات والمبادىء والموازين والقيم والشرائع والقوانين والأوضاع والتقاليد . وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها . الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله ..

والاسلام هو منهج الحياة الوحيد الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر ، لأنهم يتلقون التصورات والمبادىء والقوانين والقيم والشرائع والقوانين والتقاليد من يد الله سبحانه . فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده ، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده . وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد حين يصبحون كلهم عبيد الله بلا شريك . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية في كل صورها وبين الإسلام .

ولقد سرت عبودية المادة في كل مكان في الجاهلية المعاصرة ، فغدت الحياة كلها في سبيل المادة والقيم المادية وحددت هذه الآلهة النكدة مكان الناس ونظام حياتهم .. إن الأرزاق المادية والقيم المادية ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه

الأرض .. في الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم في الحياة الآخرة .. إن الأرزاق المادية والتيسيرات المادية والقيم المادية يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية . لا في الآخرة المؤجلة وحدها ، ولكن في هذه الحياة الواقعة كما نشهد اليوم في حضارة المادية الكالحة .. إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي الأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس وهي التي يمكن أن تجعلها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).. إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم ، هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين ..

وهذا الصياح المستمر بتضخيم المادية والانتاج المادي . بحيث يطغي الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . وبحيث يتحول الناس الى آلات تلهث وراء هذه القيمة . وتعدها قيمة الحياة الكبرى . وتنسى عاصفة الصياح المستمر .. الانتاج .. الانتاج .. كل القيم الروحية والأخلاقية .. تداس هذه القيم كلها في سبيل الانتاج المادي . هذا الصياح ليس بريئاً . إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى . وتكون لها السيادة على القيم جميعا . وعندما يصبح الانتاج المادي صنما يكدح الناس حوله . يطوفون به في قداسة الأصنام . فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تداس في سبيله وتنتهك .. الأخلاق والأسرة .. الأعراض والحريات .. الضمانات كلها إذا تعارضت مع توفير الانتاج يجب أن تداس .. فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه ؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجرا أو خشبا فقد يكون قيمة واعتبارا ولافتة ولقباً .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلتين في هداه ومنهجه الذي يشفي الصدور ويحرر الرقاب ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان . وفي ظل هذه القيمة يمكن الانتفاع برزقه الذي أعطاه للناس في الأرض . وبدون القيمة العليا لمنهج الله وسيادته تصبح الأرزاق والتيسيرات المادية والانتاج لعنة يشقى بها الناس لأنها تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية على حساب القيم الإنسانية العلوية.

فلا بد من دعوة تخرج الناس من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة ، و إخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك . واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد في الدينونة للعبيد . الذل الذي يحني هامة إنسان لعبدمثله .. لا بد من دعوة ..

وأول ما يجب على الدعاة عمله هو معرفة الضعف الذي يصيب المسلمين اليوم ـ أو بتعبير أصح الذين يدعون الإسلام ـ ثم بعد ذلك إصلاح هذا الضعف للنهوض وحمل الأمانة في الأرض من جديد وليعلم للدعاة الى هذا الدين ان مكمن الضعف والخطر الكبير الذي يواجه المسلمين اليوم هو تكوين أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي مني به شبابهم .. وأكبر النوائب أن يصاب الفرد بنفسه ، ذلك أن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث . أما إذا فقدت هذه التربية فهناك الطامة الكبرى ، وهناك تتوالى المصائب وتتضاعف المصاعب .

ومن عادة الضعيف أن يلقي أسباب ضعفه على عوامل خارجية يدعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ولغيره ما هو فيه . ولقد تعودنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولا . وعلى الماضي ثانيا . وعلى مجتمعنا ثالثا . ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل ضعفه هومركز الاهتمام .

والقرآن الكريم يجعل مركز الثقل في الإنسان نفسه فيبين جل شأنه في كلمة صارمة جازمة أن العامل الأساسي في الضعف هو الإنسان نفسه يقول سبحانه وتعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ..قل هو من عند أنفسكم) ويبين الله تعالى بشأن بني النضير الذين غلبوا من قبل المسلمين أنهم (أوتوا من حيث لم يحتسبوا) وكان ذلك من قبل أنفسهم (ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) ولم يؤت

هؤلاء من النقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم . ولكنهم أوتوا من قبل أنفسهم .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ولينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم . وليقذفن الوهن في قلوبكم . قالوا يا رسول الله ما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت) وهذا الحديث يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع . تبين ما تنتهي اليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها .. فالأسباب الحقيقية لكل انحطاط هي داخلية لا خارجية . فيجب أن لا نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة . ولكن اللوم على الشجرة النخرة نفسها .. والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس أن انحطاط الأمم وما يقع عليها من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الإنسان نفسه وما كسبت يداه . لذلك نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم قال الله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).. وفي الحديث القدسي (.. فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).. وحتى الشيطان ليس لنا أن نلومه قال الله تعالى (وقال الشيطان لما قضي الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم)..

ولقد بلغ الضعف بالمسلمين أن وصل أعداء هذا الدين . لا إلى الدس في صفوف المسلمين فحسب بل إلى محاولة تغيير عقول المسلمين ونفوسهم : يقول القس زويمر في خطاب ألقاه في مؤتمر المبشرين الذي عقد في جبل الزيتون في القدس أثناء الاحتلال الانكليزي لفلسطين . بعد أن استمع إلى خطب كثيرة من المبشرين أعلنوا فيها إفلاس التبشير في البلاد الإسلامية : أيها الأخوان الأبطال لقد أديتم رسالتكم أحسن الأداء . وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه .. إني أقركم أن الذين دخلوا من المسلمين في المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقة . لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة : إما صغير لم يعرف الإسلام . أو رجل مستخف بالأديان يريد القوة . وثالث يبغي الوصول لغايات شخصية .. ولكن مهمة التبشير ليست إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريما . ولكن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام

ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمة في حياتها ، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية .. لقد قبضنا أيها الأخوان في هذه الحقبة من الدهر — من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا — على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والاميركية ، والفضل إليكم وحدكم : إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد .. إنكم أعددتم في ديار المسلمين نشئاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها . وأخرجتم المسلم من دين الإسلام .. وبالتالي جاء النشىء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار . لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ويصرف همه في دنياه وفي الشهوات .. فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات . وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء . [1] ..

لقد انحرفت المعاني الإسلامية عن سبيلها السوي ، وأخذ يعتقد الأكثرون أن أعلى درجات الإسلام هو لزوم المساجد لتلاوة الاذكار والقلوب غافلة غير واعية . وليس هناك اهتمام بجهاد أو تغيير منكر .. لقد أصابنا انحراف في المفاهيم وعدم وضوح في المعاني الإسلامية . وعدم وضوح في الوسائل التي تؤدي إلى هذه المعاني ، وايمان خامد لايدعو إلى بذل ولا يستثير حماسة .. والآفة الكبرى هي سكوت العلماء منذ عصور خلت عن الجهر بالحق وإعلان أمره إلى الناس وكان نتيجة سكوت العلماء على الطواغيت ، ورغبة الحكام في أناس يساقون كالأغنام ، ونشوء معان في الاسلام لم تكن موجودة في القرون الأولى التي هي خير القرون ، هذه المعاني هي السكوت على الباطل والظلم والانحراف ، ولكي يتم هذا السكوت يجب أن يفقد الناس أمرين : أولهما معرفة الحق ، والثاني الجرأة على الجهر بالحق . ولذا حرص

---

(١) تراجع مجلة الفتح في السنوات التي عقدت فيها المؤتمرات التبشيرية ١٩٠٦ – ١٩٢٤ – ١٩٣٥ ومنها المؤتمر المذكور .

هؤلاء الحكام على تربية الناس تربية فيها الغموض، وعدم وضوح الحقيقة. وعدم تفتح الأذهان لمعرفتها. والسير في الحياة بلا مبالاة. ولعل هذا الأمر .. عدم وضوح الحقيقة أكبر من الثاني وهو الجرأة على الجهر بالحق. لأن الثاني لا يتم إلا إذا اتضح الأمر وظهرت معالمه وبدت نواحي الخير والشر فيه .. لقد كان الحرص شديداً من الطواغيت أن يظل الناس في عمى بصائرهم وفي غموض تفكيرهم حتى غدا الاسلام في نفوس الناس دين ذل واستكانة .. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي (إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر، وأعظم خدمة وأجلها للأمة الإسلامية هي دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام [1] .. وان بلاءنا في أقطار الاسلام هو في الجهالة الأليمة الآخذة بخناق الكثرة الغالبة من أجيال المسلمين، وفي الاضطراب الفكري الذي يعانيه الأكثرون .. والمعركة رهيبة .. ولا بد للدعاة إلى الله من أن يستبينوا ملامح المعركة ويميزوا أطرافها وسيسقط في الطريق ضحايا .. ومهمة الدعاة أن يدركوا الطريق كله فيضاعفوا جهدهم ويثقوا بالذي بينهم وبين الله. وأول همهم أن يستزيدوا من الإسلام علما وعملا، ثم أن يلحوا على الناس بالتذكير في غير سأم وألا يبالوا بالضحايا مهما عظمت فإن الهدف كبير. ويجب على الدعـــاة إلى الإسلام أن لا يبالوا في سبيل الله عدوا. ولا يستكبروا كبيرا ولا يستعظموا خطرا .. إن الدعاة إلى الله هم بقية من ركب الدعوة الأولى تخلفوا عن بدر والقـــادسية واليرموك وحطين ليأتوا في كهولة الزمان فيعيدوا الإسلام غضا طريا. ويكونوا تتمة للدعوة الأولى التي بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم فينخرطون في مواكب الجهاد ويقتحمون الشدائد والبلايا والنكبات فيقطفون ثمار النصر للإسلام .. إن الدعاة إلى الله هم حملة رسالته الأخيرة إلى الدنيا فليستعدوا ليكونوا أئمة الدنيا وسادة العالم .. وليعلم الدعاة إلى الله أن أقصى ما يملك الطواغيت أن يهتكوا منكم البدن. ويجهزوا على اللحم والدم. أما الروح فهي التي لا يملكون سلطانا عليها وهي التي نرجو أن تجعل لله كل خوالجها. وأن تخلص له حبها وبغضها ورجاءها وخوفها حتى تفضي بها إلى الله —

---

(١) مجلة المسلمون العدد الرابع ص ٤٩ لعام ١٩٥٥.

في اللحظة التي لا يملك غيره تقديمها أو تأخيرها — ظاهرة نقية راضية مرضية ..

إن الدعاة إلى الإسلام أحق الناس أن يثوروا على جاهلية القرن العشرين كما ثار الآباء على الجاهلية القديمة ، وأن يتمردوا على المادية العصرية كما تمرد السلف الصالح على مادية عصرهم ، وأن يضحوا برفاهيتهم وترفهم وأمانيهم في سبيل الاسلام ، وينضموا تحت مواكب الدعاة تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم ، الراية التي اختارها الله لهم وأرادهم أن يكونوا جنودها (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير).. وإن العامل الأساسي في نجاح الداعية ليس كثرة علمه ولا قوة بيانه وسحره . ولكن هناك عاملا قبل كل هذه الأمور هو الايمان بالدعوة التي يدعو اليها ، والخوف الشديد مما يعتريها . والشعور بالأخطار التي تحدق بسبب إهمال الدعوة .. ثم يهاجر الداعية إلى الله حيث يترك وراءه كل شيء من ماضي حياته ، ويهاجر إلى ربه متخففا من كل شيء من متاع هذه الأرض ، طارحا وراءه كل شيء ، مسلما نفسه لربه لا يستبقي منها شيئاً . الهجرة من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء .. إن مثل هذا الانسان يصيح بالناس ويترك فيهم أقوى الآثار ولو كان أبكم ..

والقرآن الكريم هو كتاب هذه الدعوة هو روحها وباعثها وهو قوامها وكيانها وهو حارسها وراعيها وهو بيانها وترجمانها وهو دستورها ومنهجها . وهو في النهاية المرجع الذي يستمد منه الدعاة وسائل العمل ومناهج الحركة وزاد الطريق (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)... وإن مادة الدعوة منبثة في القرآن الكريم في عدة سور وآيات في مواضع مختلفة وذلك إشارة إلى جليل أثرها وعظيم منزلتها .. ولقد عرف أعداء هذا الدين قديما وحديثا أن هذا القرآن يبعث الروح والقوة والحركة في نفوس أصحابه فيتحركون به فلا تقف لحركتهم قوة الدنيا كلها لأن تلك الحركة تسيرها يد القدرة التي خلقت هذا الكون .. إن هذا

القرآن الذي يجهله أهله اليوم لأنهم لا يعرفونه إلا تراتيل وترانيم وتعاويذ وتهاويم . بعدما صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم ، ومن الجهل المزري ومن الفساد الشامل للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث .. لقد وقف أعداء هذا القرآن جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة عميقة ينقبون عن أسرار قوته وعن مداخله إلى النفوس ويبحثون كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين .. وكيف يحرفون الكلم عن مواضعه . كيف يحركون هذا الدين من حركة دافعة تحطم الباطل وتسترد سلطان الله في الأرض إلى حركة ثقافية باردة وإلى بحوث نظرية ميتة وإلى جدل فقهي أو طائفي فارغ .

إن البحوث التي تكتب اليوم في العالم تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع بلغة من اللغات الأجنبية تنطق هذه البحوث بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه ومصادر قوته ووسائل مقاومته وطرق إفساده وتوجيهه ، ومعظمهم لا يفصح عن نيته ، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على الدين يثير حماسة الدفاع والمقاومة ، لذلك لجأ معظم الباحثين الغربيين إلى طريقة خبيثة يلجأون بها بالثناء على هذا الدين حتى ينيموا المشاعر المستوفزة ويخدروا الحماسة المتحفزة وينالوا ثقة القارىء أو المستمع واطمئنانه ثم يضعوا السم في الكأس ويقدموها : هذا الدين نعم ؟ عظيم ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته يتطور بتنظيماته ليجاري الحضارة الإنسانية الحديثة .. عظيم .. يجب أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب .. والدنيا والحياة تتطور .. وما أشد ما سمعنا من آثار هذا الدهاء الماكر أن أهلنا وإخواننا وكثيراً ممن حولنا أصبحوا يقولون بما يقوله أعداء الاسلام .. لقد سرى السم إلى هذه الفطرة فلفظت الايمان .. إن الحرب المستمرة لم تهدأ من أعداء هذا الدين لإبعاد الناس عن القرآن .. (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه).. وقد وجهت الجاهلية الحديثة حربها الماكرة الخبيثة على هذا القرآن لإبعاده من نظام الحياة وعرفت الخطر الذي يهددها من جراء تحرك هذا القرآن في القلوب .. يقول غلادستون وزير بريطانيا الأول : ما دام هذا القرآن موجودا [1] فلن تستطيع أوربا السيطرة على

(١) أي يتحرك به ناس يطبقونه كمنهج ونظام حياة .

الشرق ، ولن تكون هي نفسها في أمان [1] .. وبذلك غدا الناس الذين يتسمون بأسماء المسلمين اليوم يقرأون القرآن فلا يجوز تراقيهم .. يقرأونه تعاويذاً وتراتيماً وأنغاماً ولقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم النكير على من يقرأ القرآن ولا يرعوي منه بشيء . أخرج النسائي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ؟ إن خير الناس رجل عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدمه يأتيه الموت . وإن شر الناس رجل يقرأ كتاب الله لا يرعوي بشيء منه).

وإن الله تباركت أسماؤه قد حفظ هذا القرآن من التبديل والتغيير (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لذلك وجه أعداء الله وأعداء هذا الدين جهودهم الماكرة الخبيثة لتخريب الفطرة الإنسانية وتعطيلها حتى لا تستجيب لنداءات هذا القرآن ، فيصبح القرآن مهجورا .. يقول السيد حسن الهضيبي : أليس من دلائل الهزء بالمسلمين واطمئنان أعدائهم إلى أنهم لا يفقهون ما يسمعون : أن يذيع هؤلاء الأعداء عليهم آيات القرآن من اسرائيل ونيويورك ولندن وباريس [2]

وهذا القرآن هو كتاب الله وكتاب هذه الدعوة .. هو النور .. وهو الروح .. الذي إذا دخل إلى القلب الميت أحياه ، وإذا لامس النفس الإنسانية الساهية الغافلة أيقظها .. ولو أن هذه الملايين التي تدعي الإسلام تيقظ فيها معنى الحياة التي يقذف بها القرآن في نفوس أتباعه ، هل كانت حالهم تظل على ما هي عليه الآن من ضعف وذل واستكانة ... ؟

يجب على الدعاة أن يقفوا أمام هذه الحقيقة التي وقف أمامها صاحب الدعوة الأولى محمد صلى الله عليه وسلم .. وذلك بأن ينطلق الدعاة من نقطة البدء .. لن يوجد الدين اليوم أو غدا إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها .. وهذه نقطة البدء .. ثم تعقبها الفتنة

---

(١) ص ٤١ من كتاب الاسلام على مفترق الطرق .

(٢) مجلة المسلمون العدد السابع ص ٤٢ لعام ١٩٥٤ .

والابتلاء كما حدث أول مرة .. فأما ناس فيفتنون ويرتدون .. وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء ، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الاسلام ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق . ويمكن لهم في الأرض كما مكن للمسلمين اول مرة فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي .. إن الجاهلية الحديثة هي كالجاهلية القديمة مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق .. وفي الظواهر لا في الحقائق .. فلا بد من دعوة واعية تذكر المسلمين بحقيقة دينهم وبأن تكون ثورة المسلم دائما ثورة لله والحق وليست هبة على غير هدى .. وبأن الله حين نزل قرآنا أو بعث نبيا إنما أراد أن يرسم بنفسه سبحانه وتعالى قواعد البناء (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) .. وأن يقرر لجنوده في الأرض أصول كفاحهم في سبيله .. لا بد من دعوة واعية تستنير بهدى الله ، تعرف الطريق ، وتعرف أعداء الطريق ، وتمشي في الطريق ترفع راية الله حتى تصل إلى نهاية الطريق ..

لا بد للدعاة إلى هذا الدين أن يحملوا كتاب هذه الدعوة ويسيروا وراء الخطوات التي يرسمها كتاب الله ثم يسترشدوا بالأعلام التي خلفها رواد الطريق .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأســـاسية التي حولت خط سير التاريخ وإن هذه التوجيهات باقية تنتظر لتتمثل في نفوس صفوة من الناس لتسير حيث يشاء الله .. والله ولي التوفيق .

الباب الأول

الدّين

إن الذي يَضع خطة الرحلة للطريق كله ، هو الذي يدرك الطريق كله . والإنسان مَحجوب عن رؤية هذا الطريق . بل هو محجوب عن اللحظة التالية . ودونه ودونها ستر مسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه . فأنّى للانسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول ؟ إنه إما الخبط والضلال والشرود وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود . فليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائنا من كان . فالله وحده هو الذي يشرع لعباده بما أنه سبحانه هو مبدع هذا الكون كله . ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير . فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس . ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من هو عدا الله فهو قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .. ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة فإن الكثيرين يجادلون فيها أو لا يقتنعون بها . وهم يجرأون على إستمداد التشريع من غير ما شرع الله زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم كأنما هُم أعلم من الله وأحكم من الله ، أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله .. وليس

أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله).

لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها، ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى شرع في هذا كله أصولا . وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة . في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق . بذلك يتوحد مصدر التشريع ويكون الحكم لله وحده وهو خير الحاكمين ، وما عدا هذا المنهج فهو خروج على شريعة الله وعلى دين الله .. لذلك لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .... وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان . فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ولتحشد كلها في جبهة واحدة لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان ..

وإن الإنسان ليرثي أحيانا ويعجب لأناس طيبين ينفقون جهدهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفروع بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ويقوم عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقطوع . فما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام مثلا في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ؛ فيستحيل ماله كله حراماً . ولا يملك فرد أن يأكل من حلال .. لأن نظامه الإجتماعي والإقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله ، لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .

١ ــ مدلول كلمة الدين :

ليس الدين كما يحدده الله سبحانه ويريده ويرضاه . هو كل اعتقاد في الله .. إنما هي صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه . صورة التوحيد المطلق الناصع

القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون ، بالعبودية وتوحيد القوامة على البشر ، وعلى الكون كله . فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى . ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام). فالإسلام هو الدين ، وهو في هذه الحالة : الاستسلام المطلق للقوامة الالهية ، والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شيء من شؤون الحياة والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر . فهو ليس مجرد دعوى وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان . ولا حتى تصوراً يشتمل عليه القلب في سكون ، ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام .. لا .. فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس دينا سواه . إنما الإسلام : الاستسلام .

(الإسلام : الطاعة والإتباع . الإسلام تحكيم الله في أمور العباد. وان هذا النص القرآني ليحدد مدلول كلمة الدين تحديدا دقيقا (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) : إنه يعني نظام الملك وشرعه وبهذا يعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها الدين .. هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً ، سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين. أنهم يقصرون مدلول الدين على الإعتقاد والشعائر ويعدون كل من يعتقد وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ويؤدي الشعائر المكتوبة .. داخلاً في دين الله مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرقة .. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول (دين الملك) بأنه نظام الملك وشريعته .. وكذلك (دين الله) فهو نظامه وشريعته ... إن مدلول دين الله قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين . ولقد كان يعني دائما : الدينونة لله وحده ، ورفض ما يشرعه غيره وإفراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل أفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس : أي

حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره. وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في (دين الله) ومن هم في (دين الملك). إن الأولين يدينون نظام الله وشرعه وحده وإن الآخرين يدينون نظام الملك وشرعه أو يشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع . وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة . ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً..

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذرا في أنهم يجهلون مدلول كلمة (دين الله)وهم من ثم لا يتصرون ، ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي الدين وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين .

وأنا لا أتصور كيف جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين. إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها، فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها .

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة. أو يخفف عنهم العذاب فيها. ويلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها . ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله ، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل . وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض . إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم .. إنه ليس دين الله قطعاً . فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة . فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في (دين الله). ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في (دين الملك) ولا جدال في هذا . والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين. لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون معتقداً به . إذ الاعتقاد فرع من الإدراك والمعرفة . وهذه بديهية .

وخير لنا من أن ندافع عن الناس وهم في غير دين الله ونتلمس لهم المعاذير .

ونُحاول أن نكون بهم أرْحم من الله الذي يُقرر مدلول دينه وحدوده .. خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول (دين الله) ليدخلوا فيه .. أو يرفضوه .. هذا خير لنا وللناس أيضا ، خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهليين بهذا الدين الذي ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة .. وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه — وأنهم في دين الملك لا في دين الله — قد تهزّهم هزّة من الجاهلية إلى الإسلام من دين الملك إلى دين الله . كذلك فعل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه . وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهليين في كل زمان ومكان .

وان الدين الإسلامي يحكم شريعة الله في الناس ، لا أهواء البشر ، وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله ، وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هناك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء ، فكل ما عداها هوى يهفو اليه الذين لا يعلمون (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) إنها شريعة واحدة هي التي تستحق الاتباع ، وما عداها أهواء منبعها الجهل ، وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء . وأصحاب الأهواء يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة ، فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة لهم أو جنحا عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه .. إنّ هذا الدين جدّ وقد جاء ليحكم الحياة ، جاء ليعبّد الناس لله وحده وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان ، فيَردّ الأمر كله إلى شريعة الله لا إلى شرع أحد سواه . وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ، ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها ، ولم يجيء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار ، ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة .. فالإسلام ليس كلمة تُقال باللسان وليس مجرد عبارات وأدعيات .. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه

العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله ، وذلك برَدّ الناس إلى العبودية لربهم الحق ، وردّ المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، وردّ الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء . وتأمين الحق والعدل للناس جميعاً وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت .. وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله ... وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها . وخان بعهده الذي عاهد الله عليه ونقض بيعته التي بايع بها رسوله (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) .

٢ ــ مفهوم الدين :

إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام . بل ان شريعته من عقيدته في هذه الدلالة . بل إن شريعته هي عقيدته .. إذ هي الترجمة الواقعية لها . كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال القرآن .. وهذه هي الحقيقة التي زحزح مفهوم (الدين) في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة .. حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين ــ ودعك من أعدائه والمستهترين الذي لا يحفلونه ــ أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة . لا تجيش لها نفوسهم ، كما تجيش للعقيدة . ولا يعدون المروق منها مروقا من الدين ، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة . وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة . إنما الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة قرونا طويلة حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين وهي هي القضية التي احتشد لها كثير من آيات القرآن ... إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك .. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ولا يعرفون طبيعة هذا الدين .. فليقرأوا القرآن كله ، وليأخذوا قول الله بجد (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وأن بعض هؤلاء المتحمسين الغيورين على هذا الدين .

يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون . بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة .. إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة . إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية . شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل أن تُصحح هذه المخالفات . بينما الدين كله متوقف عن الوجود أصلا . ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع ، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله . فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين .. وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله وتغتصب سلطانه وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع عن الأنفس والأموال والأولاد .. وهي هي المشكلة التي كان يُواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات . ويربطها بقضية الألوهية والعبودية ويجعلها مناط الايمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الاسلام ..

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر (وجوده) لم تكن هي المعركة مع الإلحاد حتى يكون مُجرد التدين هُو ما يَسعى اليه المتحمسون لهذا الدين . ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي . فهي معارك تالية لمعركة وجود هذا الدين .. لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر (وجوده) هي معركة الحاكمية لمن تكون .. لذلك خاضها وهو في مكة .. خاضها وهو ينشيء العقيدة ، ولا يتعرض للنظام والشريعة . خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده . لا يَدعيها لنفسه مسلم . ولا يقر مُدعيها على دعواه مسلم .. فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة ، يَسّر لهم مزاولتها الواقعية في المدينة .. فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون . بعد أن يُدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين . وهكذا التبس مفهوم الدين على كثير من المسلمين حتى ارتدُوا عن دينهم وهم لا يشعرون (ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) ، وهكذا تمت الزحزحة عن هذا الدين ، فأصبح ملتبسا غامضا ، لا يقف الناس معه على تصور واضح ...

وهذه التصورات المبهمة الغامضة وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة ..

هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً ...

هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً مالا يطيقون من النفقات وتأكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم .. ومع ذلك لايملكون إلا الخضوع لها. أزياء الصباح.. وأزياء بعد الظهر.. وأزياء المساء.. الأزياءالقصيرة،والأزياء الضيقة والأزياء المضحكة،وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف إلى آخر هذا الاسترقاق المذل .. من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء، وتقف وراءه شركات الانتاج. ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك،من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدّها. ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها . ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ويوصلونها بنظريات وثقافات ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي). فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي . ما لم تتمثل في أنظمة حكم وأوضاع مجتمع .. إنه فعل الشياطين شياطين الانس والجن . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها . وتتحد جذورها ومنابعها وتتماثل قوائمها وقواعدها .

وإننا لنبخس القرآن قدره . إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ... إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم .. وإن معظم الطواغيت اليوم في الجاهليات الحديثة لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملحدين فينفي وجود الله جملة . ويتنكر للدين علانية . إنما يلجأون إلى الأسلوب الخبيث الماكر يقولون : إنهم يحترمون الدين ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل

من هذا الدين .. إنه أسلوب ألأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس وإن لم تكن هي الإسلام ، فالإسلام منهج واضح عملي واقع ، وليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة ، ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية وهذه أخبث الكيد وألأم الأساليب . ثم يجيء المتحمسون لهذا الدين فيفرغون جهدهم في استنكار جزئيات هزيلة على هامش الحقيقة الإسلامية ، لا تروق لهم في هذه الأوضاع الجاهلية المشركة المغتصبة لألوهية الله وسلطانه بالجملة . وبهذه الغيرة الغبية يسبغون على هذه الأوضاع الجاهلية المشركة طابع الإسلام ، ويشهدون لها شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقاً ولكنها تخالف عنه في هذه الجزئيات الهزيلة . ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية قد آتت ثمارها مع الأسف فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي . ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية أو لاستنكار انحلال أخلاقي ، أو لمخالفة من المخالفات القانونية ، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية وموقعها من العقيدة الإسلامية ، يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية ، ولا يستنكرون المنكر الأكبر ، وهو قيام الحياة في غير التوحيد . أي على غير إفراد الله سبحانه بالحاكمية ... إن الله قبل أن يوصي الناس أية وصية أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة . وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط . وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . فلا تظل نهبا لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح معها الشهوات والنزوات.

لذلك يجب أن تكون الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه لله وحده إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهات أو مخالفات بين شيء من هذا كله

وبين ما في الإسلام .. وأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه ، وذلك هو تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى عن اليهود والنصارى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله..) عندما سمعه منه عدي بن حاتم — وكان نصرانياً جاء ليسلم — فقال يا رسول الله ما عبدوهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (بلى إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم) (رواه الترمذي) .

٣ ـــ شرود عن الدين :

إننا نرى في زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له . فترتسم لنا صورة من مدارج الشرك . إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها (القوم).. ويسمونها (الوطن) ويسمونها (الشعب)إلى آخر ما يسمونه . وهي لا تعدو أن تكون أصناما غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله سبحانه في خلقه . وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة . ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع إن الناس يعترفون بالله رباً . ولكنهم ينبذون أوامره وشرائعه من وراء ظهورهم ظهريا . بينما يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها (مقدسة)تخالف في سبيلها أوامر الله وشرائعه . بل تنبذ نبذا . فكيف تكون الآلهة ؟ وكيف يكون الشرك ؟ وكيف يكون نصيب الشركاء في الأبناء .. إن لم يكن هذا التي تزاوله الجاهلية الحديثة (فتعالى الله عما يشركون) ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر ادباً مع الله .. لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبائح لتقرب الناس من الله زلفى . فكان الله في حسها هو الأعلى ، فأما الجاهلية الحديثة . فهي تجعل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها . فتقدس ما تأمر به هذه الآلهة وتنبذ ما يأمر به الله نبذاً .. إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة . والشعائر التي كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله .. إن شكل الأصنام والوثنية

فقط هو الذي تغير ، (كما أن الشعائر هي التي تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة . أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة. وهذا ما ينبغي ألا يخدعنا عن الحقيقة . إن الله سبحانه يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن (الوطن) أو (الانتاج) يأمر بأن تخرج المرأة وتتبرج وتغري وتعمل مضيفة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في اليابان الوثنية . فمن الإله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم أنها الآلهة المدعاة ؟. إن الله سبحانه يأمر بأن تكون رابطة التجمع هي العقيدة .. ولكن (القومية) أو (الوطن) يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع . وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة . فمن هو الإله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم الآلهة المدعاة ؟ إن الله سبحانه يأمر أن تكون شريعته هي الحاكمة ، ولكن عبداً من العبيد — أو مجموعة من الشعب — تقول كلا . إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هي الحاكمة . فمن الاله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه أم هي الالهة المدعاة ؟.. إنها أمثلة لما يجري في الأرض كلها اليوم ، ولما تتعارف عليه البشرية الضالة . أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة . وحقيقة الأصنام المعبودة ، المقامة اليوم بديلا من تلك الوثنية الصريحة ، ومن تلك الأصنام المنظورة ، ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة .

إن العقل البشري — لو خلي بينه وبين هذا الواقع — لا يقره ولا يرضاه ، ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع .. هي التي تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن ترتد إلى هذه الجاهلية — في صورتها الجديدة — فيشركون ما لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. ولا يملكون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون). إن هذه البشرية لفي حاجة اليوم كما كانت في حاجة بالأمس إلى أن تخاطب بهذا القرآن مرة أخرى ، في حاجة إلى من يقودها من الجاهلية إلى الاسلام ، ومن يخرجها من الظلمات إلى النور ، ومن ينقذ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة . بل من هذا السخف الجديد الذي تلج فيه ، كما أنقذها هذا

الدين أول مرة فيصبح القلب مؤمنا بحقيقة التوحيد . فيقطع الانسان الرحلة على هذه الأرض على هُدى لأن بَصره أبداً مُعلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق .. ولأنه يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق . ومصدرا واحدا للنفع والضرر ، ومصدرا واحدا للمنح والمنع فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد . يَستمدّ منه وحده ويُعلق يديه بحبل واحد يشدّ عروته ويطمئن إلى اتجاهه إلى هدف واحد لا يزيغ عنه بصره . ويخدم سَيداً واحداً يَعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه . وبذلك تتجمع طاقته ، كذلك وتتوحد ، فينتج بكل طاقته وجهده . وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون . ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون). يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك . بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضا فيه . وهو بينهم موزع . ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف . وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق . ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه .. وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح على منهج واحد صريح .

٤ ـ بلاغ وانذار : ٪ (أستوعب جيدا هذا النص)

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولوا الألباب) إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار : هي أن يعلم الناس (إنما هو اله واحد).. فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحيـــاة . وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم : انما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم .. المقصود هو الدينونة لله وحـــده . ما دام أنه لا اله غيره . فالاله هو الذي يستحق أن يكون ربّاً ــ أي حاكماً وسيداً ومُتصرفاً ومشرعاً وموجهاً ــ وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة

تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد — أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد — وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور، ويتناول الشعائر والمناسك، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل، وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر. وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن .. إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة .. وقضية الحاكمية بكل فروعها في الاسلام هي قضية عقيدة. كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة. فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء .. ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين، وقبل أن ندرك مدلولات: (شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله) على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد وقبل أن نفهم مدلول: العبادة لله وحده، ونحدده بأنه الدينونة لله وحده: لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة ..

إن عبادة الأصنام التي دعا ابراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها. لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم. أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار أو أرواح أو أشباح .. إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله.

والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصورة الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها. ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشريةمن صور الشرك والجاهلية الجديدة. ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة

الأصنام بها . كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام . وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة .

إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا اله إلا الله – يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده . ويكفي أن يدين العبد لله في جانب من جوانب حياته . بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته .. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ..

إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله .. ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع الله وأمره . إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها .. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان .. والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة .. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينونتهم له من خلالها .. إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها ، يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو ، وهو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها .. فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال .. فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها .. إذا رفعت القومية شعاراً ، أو

رفع الوطن شعاراً ، أو رفع الشعب شعاراً ، أو رفعت الطبقة شعارا ... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات — أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات — كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة إنما يكون الصنم مذهبا أو شعارا. إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية . ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ، ولم تُقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب .. إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولا بُدّ من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام .

والذين يظنون أنفسهم في (دين الله) لأنهم يقولون بأفواههم (نشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله — وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله — ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم أو أعراضهم وأخلاقهم — أرادوا أم لم يريدوا — ليحققوا ما تطلبه منهم الأصنام الجديدة ، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام ، نُبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام .. الذين يظنون أنفسهم مسلمين وفي (دين الله)وهذا حالهم .. عليهم أن يستفيقوا لما هُم فيه من الشرك العظيم إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم (مسلمين)في مشارق الأرض ومغاربها . إن دين الله منهج شامل

بجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها — فضلا على أصولها وكلياتها — هي دين الله ، وهي الاسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه .. وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ، ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه .. وان عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات .

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال ؟.. فإذا كان هذا كله لله فهم في دين الله .. وإن كان لغير الله — معه أو من دونه — فهم في دين الطواغيت والأصنام .. والعياذ بالله ..(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولو الألباب).

٥ — الدين والطاغوت :

الطاغوت هو صياغة من الطغيان ، نحو ملكوت وعظموت ورحموت تفيد المبالغة والضخامة . والطاغوت كل ما طغى وتجاوز الحد .. والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة ، وهم الذين أنابوا إلى ربهم ، وعادوا اليه ووقفوا في مقام العبودية له وحده (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب). إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق . والعدوان على سلطان الله والوهيته ، وحاكميته هو أشنع العدوان ، وأشده طغياناً ، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى .. وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان . ولكن اتبعوا شرعهم فسماهم الله عباداً لهم وسماهم مشركين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .. فهم عبدوا الطاغوت أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها . وهم لم يعبدوها بمعنى السجود والركوع .

ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة ، وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله . وان الدعوة إلى دين الله رب العالمين لا تحمل الا مدلولا واحداً هو انتزاع السلطان من يد العبيد الطواغيت ورده إلى صاحبه سبحانه . أما معنى هذه الدعوة إلى ربّ العالمين عند هؤلاء الطواغيت فهي الافساد في الأرض ، أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها أنها محاولة لقلب نظام الحكم (وقال موسى يا فرعون اني رسول ربّ العالمين ...) (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك) .. ان نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد ، بينما الدعوة إلى ربّ العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد .. والسحرة الذين آمنوا برب العالمين ، وأسلموا لله وحده ، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها . كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت انها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لربّ العالمين . بل بمجرد إعلان أنّ الله ربّ العالمين . ومن ثم قالوا لفرعون ردّاً على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها — وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد ، بأنه يعمل على قلب نظام الحكم .. هذه هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح (إني أخاف ان يبدل دينكم أو ان يظهر في الأرض الفساد) . أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لاثارة الخواطر في وجه الايمان الهادىء .. انه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل . والايمان والكفر . والصلاح والطغيان . على توالي الزمان واختلاف المكان . ويأخذ كل طاغية توجه اليه النصيحة ، تأخذه العزة بالاثم ، ويرى في النصح الخالص (ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد) وهكذا لا يرى الطغاة الا الرشد والخير

والصواب ؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ، وهل يجوز أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً والا فلم كانوا طغاة ... ويصر الطاغوت على الباطل في وجه الحق ويقاوم الدعوة إلى رب العالمين .. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه بانكار شرعية قيامه من أساسه .. وما يمكن أن يسمح الطاغوت باعلان أن لا اله الا الله ، أو أن الله رب العالمين . الا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي ، وتصبح مجرد كلمات .. لا مدلول لها .. وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه لأنها لا تعنيه . فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جداً بمدلولها الحقيقي ، فان الطاغوت الذي يزاول الربوبية — بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله ، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم ارسالهم لله — لا يطيق هذه العصبة ..

وكثيراً ما يوهم الباطل أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها ، وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيء (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد) فليس هو الدين . وليست هي العقيدة ، انما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة . شيء يجب أن تدعه الجماهير لأربابه ولمن يحسنون فهم المخبآت وادراك المناورات . وتنصرف هي إلى عادتها الموروثة وآلهتها المعروفة . ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة . فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها . فلتطمئن الجماهير . فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم . انها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة والبحث وراء الحقيقة . وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة . وخطر على الكبراء . وكشف للأباطيل التي يغرقون فيها الجماهير . وهم لا يعيشون الا باغراق الجماهير في الأباطيل .. وحينما يحس الطغاة بأن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر (قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) ومتى كان الطاغية يطلب أمر أتباعه وهم له

يسجدون .. وتلك شنشنة الطغاة يلجأون إلى الشعوب . وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى : ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر . ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون .

إن اعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها اعلان تحرير الانسان . تحرير من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر ، ومن تقاليد البشر ، ومن حكم البشر . واعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ، ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر — أي لربوبية غير ربوبية الله — واهمون اذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون .. أنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله وقانونهم غير شريعة الله ، إنهم في دين حاكمهم ذاك .. في دين الملك لا في دين الله .

وان الطاغية يدرك خطورة هذه الدعوة .. لقد قال الرجل العربي — بفطرته وسليقته — حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله :

(هذا أمر تكرهه الملوك) وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : (إذن تحاربك العرب والعجم) .. لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا اله الا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً . كانت لشهادة أن لا اله الا الله جديتها في حس هؤلاء العرب ، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد ، ولا في أرض واحدة . شهادة أن لا اله الا الله . مع الحكم بغير شرع الله فيكون هناك آلهة مع الله . ما كان أحد يفهم شهادة أن لا اله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم (مسلمين) .. ذلك الفهم الباهت الهزيل .

وان عبودية الناس لغير الله سبحانه تُنشيء في نفوسهم الذلة ، وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة. وتنشيء في الحياة الظلم والبغي ، وقد أراد الله ان يقيمها على القسط والعدل ، وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية : والطبل حولها والزمر والنفخ فيها دائماً . لتكبر حتى تملأ مكان الربّ الحقيقي . ولـمّا كانت هذه الأرباب في ذاتها صغيرة هزيلة ، لا يمكن أن تملأ مكانة الرب الحقيقي ، فان عبادها المساكين يظلون في تَعب دائم . وهَمّ مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار ، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار ، ويضربون حولها بالدفوف والمزامير ، والترانيم والتسابيح ، حتى يستحيل الجهد البشري كله من الانتاج المثمر للحياة إلى هذا الكَدّ البائس النكد والى هذا الهَمّ المقعد المقيم ...

* * *

ان الله سبحـــانه يعلم طبيعة هـــذا الانسان الـــذي خلقه ، وحدود طاقته ، فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين الا ما هُو مُيسر للجميع حين تَصحّ العزيمة ، وتعتدل الفطرة وينوي العبد الطاعة . ولا يستهتر ولا يستهين .. وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة في مواجهة الدعوات الهدّامة التي يدفعها الطواغيت . والتي تدعو الانسان إلى الانحلال والحيوانية والتلبط في الوحل كالدود بحجة أن هذا هو واقع الانسان . وطبيعته وفطرته . وحدود طاقته . وان الدين دعوة مثالية لم تجيء لتحقق في واقع الأرض . وإذا نهض بتكاليفها فرد فان مئة لا يطيقون ... هذه دعوى كاذبة أولا . وخادعة ثانياً ، وجاهلة ثالثاً . لأنها لا تفهم الانسان ولا تعلم منه ما يعلمه خالقه الذي فرض عليه تكاليف الدين ، وهو يعلم سبحانه . أنها داخلة في مقدور الانسان العادي لأن الدين لم يجيء للقلائل الممتازين . وان هي الا العزيمة ـ عزيمة الفرد العادي . واخلاص النيّة . والبدء في الطريق . وعندئذ يكون ما يعد به العاملين (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً واذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) فمجرد البدء يتبعه العون من الله ، ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق ويتبعه الأجر العظيم . وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم .. وصدق الله العظيم .....

٦ — طبيعة هذا الدين :

هناك دائما شُبهة كاذبة أو الأمنية العاتبة : لماذا يا ربّ ؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحقّ كلما التقى مع الباطل ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذي ينبغي أن ينتصر ؟ وفيم للباطل هذه الصولة ؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة ، وفيها فتنة للقلوب وهزة ...

لقد وقع بالفعل أن قال المسلمون في غزوة أحد في دهشة واستغراب (أنّى هذا) .. ويُريح الله القلوب المتعبة ويَجلو كل خاطرة تَندسّ إلى القلوب من هذه الناحية ويُبين سنّته وقَدره وتدبيره أمس واليوم وغدا ... إن ذهاب الباطل ناجياً في معركة من المعارك وبقاءه منتفشاً فترة من الزمان ليس معناه أن الله تاركه أو أنه من القوة بحيث لا يُغلب أو بحيث يَضرّ الحَق ضرراً . وان ذهاب الحق مُبتلى في معركة من المعارك وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ليس معناه أن الله مَجافيه أو ناسيه أو أنّه متروك للباطل يُهلكه ويرديه ... كلا انما هي حكمة وتدبير هنا .. وهناك .. يُملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق . ويبتلي الحق ليَميز الخبيث من الطيب ، ويَعظم الأجر لمن يَمضي مع الابتلاء ويثبت .. فهو الكسب للحق والخسار للباطل مُضاعفاً هذا وذاك هنا وهناك .. والمعركة يريدها الله أن تكون قضيته هو.. فالعقدة التي تَحيك في بعض الصدور والشُبهة التي تَجول في بعض القلوب وهي تَرى أعداء الله وأعداء الحق متروكين لا يأخذهم العذاب ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والسلطة والمال والجاه مما يُوقع الفتنة في قلوبهم وقلوب الناس من حولهم ومما يَجعل ضعاف الايمان يَظنون بالله غير الحَق ظَنّ الجاهلية يَحسبون أن الله سبحانه لا يتدَخل في المعركة بين الحَق والباطل فَيدع للباطل أن يحطم الحَق ولا يَتدخّل لنصرته . أو يَحسبون أن هذا البَاطل حَق ، وإلا فَلِمَ يتركه الله يَنمو ويكبر ويَغْلب ؟ .. أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يَغلب على الحق في هذه الأرض وأن ليس من

شأن الحقّ أن ينتصر ثم ... يَدع المُبطلين الظالمة الطغاة المفسدين يَلجّون في عتوهم ويُسارعون في كفرهم ويَلجّون في طغيانهم ويَظنون أن الأمر قد استقام لهم وأن ليس هناك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم ...

وهذا كله وَهْمٌ باطل وظَن بالله غَير الحق والأمر ليس كذلك وها هو ذا سبحانه وتعالى يُحذّر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظنّ ... إنّه اذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذين يُسارعون فيه واذا كان يُعطيهم حَظاً في الدنيا يستمتعون به ويَلهون فيه ... إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فانما هي الفتنة وانما هَو الكَيد المتين وانما هو الاستدراج البَعيد (ولا يَحسبن الذين كفروا أنما نُملي لهم خَير لأنفسهم .. إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) وهكذا يتكشّف أن الابتلاء من الله نعمة لا تُصيب الا من يُريد الله به الخير فـاذا أصابت أولياءه فانما تُصيبهم لخير يُريده الله لهم ... ولو وَقع الابتلاء مرّتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء فانما هُناك الحكمة المُغيبة والتّدبير اللطيف وفَضل الله على أوليائه المؤمنين .. وهكذا تَستقر القلوب وتطمئن النفوس وتستقر الحقائق الأصلية البَسيطة في التصور الاسلامي الواضح المستقيم .. وقد شاءت حكمة الله وبرّه بالمؤمنين أن يُميزهم عن المنافقين الذين اندسُّوا في الصفوف فَيبتليهم الله بسبب تَصرفاتهم وتَصوراتهم ليمَيّز الخبيث من الطيب من هذا الطريق ... (ما كان الله ليَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميز الخَبيث من الطيّب) فالله لن يَدع الصَفّ المُسلم مختلطا غير مميز يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الايمان ومظهر الاسلام بينما قلوبهم خالية من بشاشة الايمان ومن روح الاسلام .. والله يُريد من الأمة المسلمة أن تؤدي دَوراً كونياً كبيراً ولتَحمل منهجاً إلهياً عظيما ولتُنشيء في الأرض واقعاً فريداً ونظاماً جديداً ... وهذا الدور الكبير يَقتضي التجرّد والصفاء والتميز والتَماسك ويَقتضي ألا يكون في الصَفّ خَلل ولا في بنائه دَخل .... وكل هذا يقتضي أن يَصهر الصَفّ ليُخرج منه الخَبَث وأن يُضغط لتَتَهاوى اللبنات الضَعيفة وأن تُسلّط عليه الأضواء لتَتكشّف الدَخائل والضَمائر ... لذلك يَرسم لنا القرآن الكريم مَنهج هذا الدين ويُحدد لدعاته الطريق ..

١ ــ إن في طبيعة هذا الدين الذي هو المنهج الالهي للحياة البشرية ، وفي طريقته في العمل في حياة البشر حقيقة أولية بسيطة ولكنها كثيراً ما تُنسى ، و لا تُدرك ابتداء : فينشأ عن نسيانها أو عدم ادراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين : في حقيقته وفي واقعه التاريخي في حياة الانسانية ، وفي دوره أمس واليوم وغدا ...

ان بعضنا ينتظر من هذا الدين ما دام هو المنهج الالهي للحياة البشرية أن يعمل في حياة البشرية بطريقة سحرية خارقة دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموهم وفي أية بيئة من بيئاتهم . وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو يعمل في حدود الطاقة البشرية ، وحدود الواقع المادي للبشر وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه فيتأثران به في فترات تأثراً واضحاً ، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له ، وقد يكون تأثيرهما مضاداً في فترات أخرى فتقعد بالناس ثقلة الطين وجاذبية المطامع والشهوات دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاهاً كاملاً ... حين يرون هذه الظواهر فانهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ــ ما دام هذا الدين من عند الله ــ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته أو يصابون بالشك في الدين اطلاقا . وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد هو عدم ادراك طبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إنَّ هذا الدين منهج للحياة البشرية يتمُّ تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري ، في حدود الطاقة البشرية . ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود جهدهم البشري وطاقتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه ...

وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة . في أية لحظة ، في أية خطة ، وفي أية خطوة عن طبيعة فطرة الانسان وحدود طاقته وواقعه المادي أيضاً . وأنه

في الوقت ذاته يبلغ به — كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة — ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الاطلاق ...

ولكن الخطأ كله ينشأ من عدم الادراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها ، ومن انتظار الخوارق التي لا ترتكن على الواقع البشري والتي تبدل فطرة الانسان وتنشئه نشأة أخرى لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداداته وطاقاته وواقعه المادي كله . أليس هو من عند الله ؟ أليس ديناً من عند القوة القادرة التي لا يعجزها شيء ؟ فلماذا إذن يعمل فقط في حدود الطاقة البشرية ؟ ولماذا يحتاج إلى الجهد البشري ليعمل ؟ ثم لماذا لا ينتصر دائماً ؟ ولا ينتصر أصحابه دائماً ؟ لماذا تغلب عليه ثقلة الطبع والشهوات والواقع المادي أحيانا ؟

وكلها كما نرى أسئلة وشبهات تنبع من عدم ادراك الحقيقة الأولية البسيطة لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها ... ان الله قادر طبعاً على تبديل فطرة الانسان عن طريق هذا الدين أو من غير طريقه وكان قادراً على أن يخلقه منذ البدء بفطرة أخرى ولكنه شاء أن يخلق الانسان بهذه الفطرة وشاء أن يجعل لهذا الانسان إرادة واستجابة وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقي والاستجابة.وشاء أن تعمل فطرة الانسان دائماً ولا تمحى ولا تبدل ولا تعطل وشاء أن يتم تحقيق منهجه للحياة عن طريق الجهد البشري ،وفي حدود الطاقة البشرية . وشاء أن يبلغ الانسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد في حدود ملابسات حياته الواقعة . وليس لأحد من خلقه أن يسأله : لماذا شاء هذا ؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً وليس لديه العلم ولا إمكان العلم بالنظام الكلي للكون وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا التصميم الخاص .. و (لماذا ؟) في هذا المقام سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله كذلك ملحد جاد .. المؤمن لا يسأله لأنه أكثر أدباً مع الله الذي يعرفه قلبه بحقيقته وصفاته وأكثر معرفة بأن الادراك البشري لم يهيأ للعمل في هذا المجال ..

والكافر لا يسأله لأنه لا يعترف بالله ابتداء .. فان اعترف بالوهيته عرف معها أنَّ هذا شأنه سبحانه ومقتضى ألوهيته . ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ولا هو ملحد جاد ... ومن ثم لا ينبغي الاحتفال به ولا الجد في أخذه . وقد يسأله جاهل بحقيقة الالوهية ... فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية حتى يعرفها فهو مؤمن . أو ينكرها فهو ملحد . وبهذا ينتهي الجدل إلا أنْ يكون مراء .

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله سبحانه لماذا شاء أن يخلق الكائن الانساني بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعدل ولا تعطل . ولماذا شاء أن يجعل المنهج الالهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية ؟ ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ، ويراها وهي تعمل في واقع البشرية ويفسر التاريخ البشري على ضوئها فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى . هذا المنهج الالهي الذي يمثله الاسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .. لا يتحقق في الأرض في دنيا الناس بمجرد تنزيله من عند الله . ولا يتحقق بمجرد ابلاغه للناس وبيانه ولا يتحقق بالقهر الالهي على نحو ما يمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية .. إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر تؤمن به ايماناً كاملاً وتستقيم عليه بقدر طاقتها وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها وتجهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهداً ولا طاقة.. تجاهد الضعف البشري والهوى البشري والجهل البشري في أنفسها وأنفس الآخرين .. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج .. وتبلغ بعد ذلك كله من تحقيق هذا المنهج الالهي إلى الحد والمستوى الذي تطيقه فطرة البشر . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً ولا تغفل

واقعهم ومقتضيات هذا الواقع في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها .. ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة . بقدر ما تبذل من جهد وبقدر ما تتخذ من الأساليب العملية ، وبقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب ... وقبل كل شيء وقبل كل جهد وقبل كل وسيلة ... هناك عنصر آخر : هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج وثقتها به وتوكلها عليه . هذه هي حقيقة هذا الدين وهذه هي خطته الحركية ووسيلته .. وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يربيها ..

حينما تقصر الجماعة المسلمة في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذات نفسها في بعض مواقف المعركة . وحينما تقصر في اتخاذ الوسائل العملية الحقيقية الأولية أو تنساها ، وتفهم أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتماً بغض النظر عن تصورها وتصرفها حينئذ يتركها الله تلاقي الهزيمة وتعاني آلامها المريرة . ويأتي هذا البيان الجازم من الله عز وجل في بيان هــذه الحقيقة (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) .. ولكنه سبحانه لا يترك المسلمين عند هذه النقطة بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج ؛ ويكشف لهم عن إرادة الخير بهم من وراء الابتلاء الذي وقع بأسبابه الظاهرة من تصرفاتهم الواقعة ..

إن ترك المنهج الالهي يعمل ويتحقق عن طريق الجهد البشري ويتأثر بتصرف البشر ازاءه هو خير في عمومه. فهو يصلح الحياة البشرية ولا يفسدها أو يعطلها ويصلح الفطرة البشرية ويوقظها ويردها إلى سوائها .. ذلك أن حقيقة الايمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الايمان مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ومجاهدتهم باليد لدفعهم عن طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية ..

وحين يتعرّض في هذه المُجاهدة للابتلاء والصبر على الجُهد والصبّر على ألاذى والصبّر على الهَزيمة ، والصبّر على النصر أيضاً — فالصبّر على النّصر اشقّ من الصبّر على الهزيمة — وحتى يتمحص القلب ويتميز الصّف وتستقيم الجَماعة على الطريق وتَمضي فيه رَاشدة صَاعدة متوكلة على الله . حقيقة الايمان لا يتمّ تمامها في قَلب حتى يتعرّض لمجاهدة النّاس في أمر هذا الايمان . لأنه يُجاهد نَفسه أولاً في أثناء مُجاهدته للناس وتَتفتّح له في الايمان آفاق لم تَكن لِتتَفتّح له أبداً وهو قَاعد آمن سَالم ، وتتبيّن له حقائق في النّاس وفي الحياة لم تَكن لِتتبيّن له أبداً بغير هذه الوسيلة ، ويبلغ هو بنفسه ومَشاعره وتَصوراته وعَاداته وطِباعه ، وبانفعالاته واستجاباته مَا لم يَكن لِيبَلغه أبداً ، بدون هذه التَجربة الشّاقة المرّيرة ...

وحَقيقةالايمان لا يَتمّ تَمامها في جَماعة حتّى تَتعرض للتجربة والامتحان والبلاء ، وحتّى يتعرّف كلُ فرد فيها على حَقيقة طاقته ، وعلى حَقيقة غايته ، ثم تَتعرف هي على حَقيقة اللبنات التي تتألف منها . مَدى احتمال كل لَبنة ثم مَدى تَماسك هَذه اللبنات في سَاعة الصدام .... وهذا ما يُريد الله سُبحانه أن يعلمه للجماعة المسلمة وهو يُربيها بالأحداث وهو يَقول لها (مَا كان الله لِيَذَر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميز الخَبيث من الطيب) . ثم .. وهو يَردّهم إلى قدر الله وحِكمته من وَراء الاسباب والوَقائع جَميعاً فَيردهم إلى حقيقة الايمان الكبـرى التي لايتم تمامهـا إلا باستقرارهـا في النفس المؤمنة (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) واذن فهو في النهاية قدر الله وتدبيره وحكمته من وراء الأسباب والأحداث والاشخاص والحركات .. وهو التصور الاسلامي الشامل الكامل يستقر في النفس من وراء الأحداث والتعقيب المنير على هذه الاحداث ..

٢ — وهناك حَقيقة أساسية كَبيرة عن طَبيعة النفس البشرية وطبيعة الفطرة

الانسانية وطبيعة الجهد البشري، ومدى ما يمكن أن يبلغه في تحقيق المنهج الآلهي .

إنّ النفس البشرية ليست كاملة في واقعها ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . وها نحن أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية — كما هو وعلى الطبيعة — ممثلاً في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل للنفس البشرية على الاطلاق . فماذا نرى ؟ . نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف وفيهم النقص وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم : (إنّ الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) وهؤلاء مؤمنون مسلمون ولكنّهم كانوا في أوائل الطريق كانوا في دور التربية والتكوين . ولكنهم كانوا جادّين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله مرتضين قيادته ومستسلمين لمنهجه ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم .. نعم إنّه سبحانه تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير .. ولكنه لم يطردهم خارج الصّف . ولم يقل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر ، بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف . لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم وربّاهم بالابتلاء ثم ربّاهم بالتعقيب على الابتلاء والتوجيه إلى ما فيه من عبر وعظات في رحمة وفي عفو وفي سماحة كما يربت الكبير على الصغار وهم يكتوون بالنّار ليعرفوا ويدركوا وينضجوا وكشف لهم ضعفهم ومخبآت نفوسهم ليأخذ بأيديهم ويوحي اليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا ييأسوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين .. ثم وصلوا .. وصلوا في النهاية وغلبت فيهم النماذج التي قال الله عنها (الذين قال لهم النّاس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ولقد بلغت بهم التربية الالهية المستوى السّامق ولكنهم مع هذا ظلوا بشرا . وظلّ فيهم الضعف والنقص والخطأ .

ولكن ظل فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله ..

إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج ولا يبدلها أو يعطلها ولا يحملها ما لا تطيق . وان بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض .. وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة في اعطاء الأمل الدائم للبشرية لتحاول وتبلغ في ظل هذا المنهج الفريد. فهذه القمة السامقة التي بلغتها تلك الجماعة، إنما بدأت تنهد اليها من السفح التي التقطها منه.. وهذه الخطى المتعثرة في الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة في الجاهلية. متخلفة في كل شيء .. وكل ذلك يعطى البشرية أملا كبيراً في إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامي، مهما تكن قابعة في السفح ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر. فهي ليست وليدة خارقة عابرة. إنما هي وليدة المنهج الالهي الذي يتحقق بالجهد البشري في حدود الطاقة البشرية والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير ...

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها ، ومن الواقع المادي التي هي فيه . ثم يمضي بها صعداً . كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة .. من السفح .. ثم انتهى بها في فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان إلى ذلك الأوج السامق . شرط واحد لا بد أن يتحقق .. أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج . أن تؤمن به . وأن تستسلم له . وأن تتخذه قاعدة حياتها ، وشعار حركتها ، وحادي خطاها في الطريق الشاق الطويل .

٣ ـ وحقيقة ثالثة .. حقيقة الارتباط الوثيق في منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة ، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها في أي ميدان ، الارتباط بين العقيدة والتصور ، وبين النصر أو الهزيمة في كل معركة .. فكل هذه عوامل أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة . والمنهج الالهي من ثم يعمل في مساحة هائلة في النفس الانسانية وفي الحياة البشرية . مساحة متداخلة الساحات والنقط والخطوط والخيوط ، متكاملة في الوقت ذاته وشاملة . والخطة يصيبها الخلل والفشل حين يختلط الترابط والتناسق بين هذه الساحات كلها والنقط والخطوط والخيوط ..

وهذه ميزة ذلك المنهج الكلي الشامل الذي يأخذ الحياة جملة ولا يأخذها مزقاً وتفاريق . والذي يتناول النفس والحياة من أقطارها جميعاً . ويلم خيوطها المتشابكة المتباعدة ، في قبضته ، فيحركها كلها حركة واحدة متناسقة لا تصيب النفس بالفصام ولا تصيب الحياة بالتمزق والانقسام .

٤ ــ وحقيقة رابعة .. عن طبيعة منهج التربية الاسلامي .. فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث ؛ وما تنشئه في النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث .. وهو في التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة ؛ ليصحح تأثره ويرسب فيه الحقيقة التي يريد لها أن تستقر وتستريح . وهو لا يدع جانباً من الجوانب ولا خاطرة من الخواطر ولا تصوراً من التصورات ، ولا استجابة من الاستجابات حتى يوجه اليها الأنظار ويسلط عليها الأنوار ، ويكشف عن المخبوء منها في دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة . وتقف النفس تجاهها مكشوفة عارية ؛ وبذلك يمحص الدخائل . وينظفها ويطهرها في وضح النور . ويصحح المشاعر والتصورات والقيم . ويقر المبادىء التي يريد أن يقوم عليها التصور الاسلامي المتين ، وأن تقوم عليه الحياة الاسلامية المستقرة .. مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التي تقع للجماعة المسلمة في كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق ..

٥ ــ وحقيقة خامسة كذلك .. عن واقعية المنهج الالهي .. فمن وسائل هذه المنهج لانشاء آثاره في عالم الواقع . مزاولته بالفعل ، فهو لا يقدم مبادىء نظرية ؛ ولا توجيهات مجردة .. ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته .

٦ ــ وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة اسلامية بعون الله .. ان منهج الله ثابت ؛ وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ؛ ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك . فان المنهج القرآني يصفهم بالخطأ وحين ينحرفون عنه فانه يصفهم بالانحراف ولا يتغاضى عن خطأهم وانحرافهم مهما تكن

منازلهم واقدارهم ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم . ونتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادىء منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه — أياً كانوا — وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قيمة وموازينه فهذا التحريف والتبديل أخطر على الاسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف .. فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص .

والواقع التاريخي للاسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم . وانما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة .. وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الاسلام وعلى تاريخ الاسلام . إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه : من خطأ أو انحراف أو خروج على الاسلام ..

إن تاريخ الاسلام ليس هو تاريخ المسلمين ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان . ان تاريخ الاسلام هو تاريخ التطبيق الحقيقي للاسلام في تصورات الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ونظام مجتمعاتهم .. فالاسلام محور ثابت تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت . فاذا هم خرجوا عن هذا الاطار ، أو هم تركوا ذلك المحور بتاتاً ، فما للاسلام وما لهم يومئذ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الاسلام ، أو يفسر بها الاسلام ؟ بل ما لهم هم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الاسلام ، وأبوا تطبيقه في حياتهم ، وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم ، لا لأن أسماءهم أسماء مسلمين ولا لأنهم يقولون بأفواههم : إنهم مسلمون .

٧ — فقه الدين :

ان فقه هذا الدين لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لايعيش ولايفهم في فراغ .لقد نشأ

الفقه الاسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع ، في مواجهة الحياة الاسلامية الواقعية كذلك لم يكن الفقه الاسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ، إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الاسلامية هو الذي أنشأ الفقه الاسلامي .. وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة ، كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الاسلامي ، وادراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الاسلامية . والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون ادراك لهاتين الحقيقتين ، ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ، ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو ، والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ، وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها .. الذين يفعلون ذلك ، ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ، وكأنها يمكن أن تعيش في فراغ .. هؤلاء ليسوا فقهاء ، وليس لهم (فقه) بطبيعة الفقه وبطبيعة هذا الدين أصلاً .

ان فقه الحركة يأخذ في اعتباره الواقع الذي نزلت فيه النصوص وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره ، فاذا انفصلت عناصر هذا المركب ، فقد طبيعته واختل تركيبه . ومن ثم فليس هناك حكم فقهي واحد مستقل بذاته يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها .. انه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ . ان فقه الحركة يختلف اختلافاً أساسياً عن فقه الأوراق ، مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها فقه الأوراق . والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب لأنها دراسة باردة ، وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين انما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ، ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق . ان فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة ، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة . ان الفقه الاسلامي وليد الحركة الاسلامية ، فقد وجد الدين أولاً ،

ثم وُجد الفقه وليس العكس هو الصحيح .. وُجدت الدينونة لله وحده ، وَوجد المجتمع الذي قَرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده ، والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ، والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه .. ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلاً وفق المبادىء الكلية في الشريعة الاسلامية ، إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة . وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده ، واستحياء شريعته وَحدها تَحقيقاً لهذه الدينونة ، جَدَّت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته .. وهنا فقط بَدأ استنباط الأحكام الفقهية وبَدأ نمو الفقه الاسلامي .. الحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه ، والحركة بهذا الدين هي التي حَققت نموه . ولم يكن قَط فقهاً مستنبطاً من الأوراق الباردة بَعيداً عن حَرارة الحياة الواقعة .. من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين ، يَجيء فقههم للدين من تحركهم به ، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حَيّ يعيش بهذا الدين ، ويجاهد في سبيله ، ويَتعامل بهذا الفقه الناشىء بسبب حركة الحياة الواقعة .

فأمّا اليوم فماذا ؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قَرر أن تكون دَينونته لله وحده ، والذي رَفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ، والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته ، والذي رفض بالفعل شريعة أي تشريع لا يَجيء من هذا المصدر الشرعي الأول ؟ لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود ، ومن ثُم لا يتجه مسلم يعرف الاسلام ويفقه منهجه وتاريخه إلى مُحاولة تنمية الفقه الاسلامي في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بها تعيش . ولكن المسلم الجادّ يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده وتقرير مبدأ أنه لا حاكمية الا لله ، وأن لا تَشريع الا مُستمداً من شريعته وَحدها تحقيقاً لتلك الدينونة . انه هَزل فَارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل نَاس أنفسهم بتنمية الفقه الاسلامي في ظل مجتمع لا يتعامل بهـذا الفقه ، ولا يقيم عليه حياته . كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أن

يستطيع التفقه في هذا الدين وهو قاعد يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة . . إنّ الفقه لا يُستنبط من الشريعة الا في مجرى الحياة الدافق ، والا مع الحركة بهذا الدين في عالم الواقع .

ان الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم ، والمُجتمع المسلم أنشأ الفقه الاسلامي ، ولا بد من هذا الترتيب .. لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشيء من الدينونة لله وحده ، مُصمم على تنفيذ شريعته وحدها ، ثم بعد ذلك لا قبله ينشأ فقه اسلامي مفصّل على قَدْر المجتمع الذي ينشأ . وليس جاهزاً معداً من قبل .

ذلك أن كل حكم فقهي هو بطبيعته تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة ذات حجم معين، وملابسات معينة، وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة داخل الاطار الاسلامي ، لا بعيداً عنه ، وتحدد حجمها وشكلها وملابساتها ، ومن ثم يُفصل لها حكم مباشر على قَدّها ، فأما تلك الأحكام الجاهزة في بطون الكتب فقد فُصلت من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الاسلامية على أساس تحكيم شريعة الله فعلاً ، ولم تكن وقتها جاهزة باردة . كانت وقتها حيّة مليئة بالحيوية . وعلينا اليوم أن نُفصل مثلها للحالات الجديدة .. ولكن قبل ذلك يجب أن يُوجد المجتمع الذي يُقرر ألا يدين لغير الله في شرائعه ، وألا يفصل حكماً شرعياً الا من شريعة الله دون سواها ، وفي هذا يكون الجهد الجاد المثمر اللائق بجدية هذا الدين .. وفي هذا يكون الجهاد الذي يفتح البصائر ، ويمكن من التفقه في الدين حقاً .. وغير هذا لا يكون الا هزلاً ترفضه طبيعة هذا الدين ، والا هروباً من واجب الجهاد الحقيقي تحت التستر بستار (تجديد الفقه الاسلامي) أو تطويره :. هروب خير من الاعتراف بالضعف والتقصير ، وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين . وان الواجب الحالي هو الجهاد في سبيل الله ، جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله .

ان الفقه الاسلامي لا ينشأ في فراغ ، ولا يعيش في فراغ كذلك .. لا

مجتمع مسلم ⟸ فقه اسلامي

ينشأ في الأدمغة والأوراق . انما ينشأ في واقع الحياة ، وليست أية حياة . انما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد .. ومن ثم لا بدّ أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي ، فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الاسلامي ويطبق .. وعندئذ تختلف الأمور جداً .. وان المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . ولكن الأمر غير ذلك تماماً .. ان دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه ، وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة .. ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد .. هو التحرك في وجه الجاهلية لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعباد ، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم .. وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء ، فيفتن من يفتن ، ويرتد من يرتد ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له في الأرض .. وعندئذ فقط يقوم النظام الاسلامي ، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه وتميزوا بقيمه .. وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها ، وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ، ومطالبها وطرق تلبيتها ..

وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام ، وينشأ فقه اسلامي حي متحرك ، لا في فراغ ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات .. ان نقطة البدء في المتاهة كما قلنا : هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الاسلامية ، وأنه سيجاء بأحكام الفقه الاسلامي من الأوراق لتطبق عليها ، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته . وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها . كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه

المجتمعات ومشكلاتها . حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للاسلام ؛ ومن خروج حياتها جملة من اطاره . ونحسب أنه قد آن للاسلام أن يستعلي في نفوس دعاته ، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية والحاجات الجاهلية . وأن يقولوا للناس وللذين يستفتونهم بوجه خاص .. تعالوا أنتم أولاً إلى الاسلام ، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه .. أو بعبارة أخرى .. تعالوا أنتم أولا فادخلوا في دين الله وأعلنوا عبوديتكم لله وحده واشهدوا أن لا اله إلا الله، بمدلولها الذي لا يقوم الايمان والاسلام الا به، وهو افراد الله بالوهيته في الأرض كافراده بالالوهية في السماء . وتقرير ربوبيته أي حاكميته وسلطانه وحده في حياة الناس بجملتها . وتنحية ربوبية العباد للعباد . بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد .. وحين يستجيب الناس أو الجماعة منهم لهذا القول ، فان المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الاسلامي الحي ، وينمو لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المسلم لشريعة الله فعلاً ..

فأما قبل قيام هذا المجتمع ، فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس باستنبات البذور في الهواء، ولن ينبت الفقه الاسلامي في الفراغ كما أنه لن تنبت البذور في الهواء . ان العمل في الحقل (الفكري) للفقه الاسلامي عمل مريح لأنه لا خطر فيه ، ولكنه ليس عملا للاسلام ، ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته . وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب والفن أو بالتجارة ؛ أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للاسلام في هذه الفترة، فأحسب والله أعلم أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً . ان دين الله يأبى ان يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه ، المتنكر له ، الشارد عنه .. الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ، وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه .. ان فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ .. ولا تعمل في فراغ .. وان النشأة الاسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة . والانتقال من الجاهلية إلى

الاسلام لن يكون يوماً ما ، سهلاً ولا يَسيراً . ولن يبدأ أبداً من صياغة الاحكام الفقهية في الفراغ .. لتكون معدة جاهزة يسوم يقوم المجتمع الاسلامي ، والنظام الاسلامي . ولن يكون وجود هذه الاحكام المفصلة على (الجاهز) والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الاسلام . وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تَتَحوَّل إلى الاسلام هو الأحكام الفقهية الجاهزة . وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور احكام الفقه الاسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة .. إلى آخر ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر . كلا إنَّ الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الاسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية لله ، فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الاسلام خروجاً كاملاً . بعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة .. ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله أي تدين لها وتخضع وتتبع فتجعلها بذلك أرباباً متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك .. فهذا أخصّ مداولات الشرك في الاسلام .. وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظامها في الأرض ، وتعتمد على ركائز من خلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية اذن بوسائل متكافئة . انما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الاسلام مرة أخرى ، وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها . ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للاسلام في وجه الجاهلية ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق .. وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه ، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحيّ ، وتواجه حاجات الحياة الواقعة المتجددة في هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها . وهي أمور كلها في ضمير الغيب ولا يمكن التكهن بها سلفاً ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين ..

ان هذا لا يعني بحال من الأحوال أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية .. ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت فيه هذه الأحكام له ، والذي لا تطبق هذه الأحكام الا فيه ، بل الذي لا تعيش هذه الأحكام الا به ، ليس قائماً الآن فعلا . ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقاً بقيام ذلك المجتمع .. ويبقى الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ، ويتحرك في وجه الجاهلية لاقامة النظام الاسلامي ، ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة ، وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية ..

ان ادراك طبيعة النشأة الاسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير ، كلما قامت الجاهلية ، وقامت في وجهها محاولة اسلامية . هو نقطة البدء في العمل الحقيقي لاعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي . بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين ، وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للاسلام ، وان بقيت المآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر ، تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي لهذا الدين . وتوهمهم أنه لا يزال بخير .. وهو يمحي من الوجود محواً .. ان المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر ، وقبل أن توجد المساجد . وجد من يوم قيل للناس : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. فعبدوه. ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر ، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت. انما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده من ناحية المبدأ . ولم تكن بعد قد نزلت شرائع ، وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض ، تنزلت الشرائع ، وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم ، استنبطت بقية أحكام الفقه إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة .. وهذا هو الطريق وحده ، وليس هنالك طريق آخر ..

وليست هنالك طريقاً سهلة عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الاسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان ، وبيان أحكام الاسلام . ولكن هذه انما

هي (الأماني) . فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت إلى الاسلام وعبادة الله وحده إلا عن طريق ذلك الطريق البطيء الذي سارت فيه دعوة الاسلام في كل مرّة ، والذي يبدؤه فرد ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية ، لتعاني ما تُعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ، ويمكّن لها في الأرض .. ثم .. يدخل الناس في دين الله أفواجاً .. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس ديناً غيره (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) .

٨ — آفة الدين :

وإنما آفة الدين تتمثل في معظم الأحيان في فئة من رجاله وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال يذكرها القرآن الكريم عن فريق من أهل الكتاب (وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)... هؤلاء كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها لياً ليصلوا منها إلى مقررات معينة . يزعمون أنها مداول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها . بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يلجئون اليها إلجاء . ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض رجال الدين ، الذين يُنسبون إلى الدين ظلماً ، الذين يحترفون الدين ، ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها . ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء ، حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل . يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة ؛ ويُحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات

تُصَادِمُ هذا الدين وحقائقه الاساسية . ويبذلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيّد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية ، وهَوى من الأهواء السائدة التي يهمهم تمليقاً .. (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وَهُم يعلمون) فهي آفة لا تختص بهم أهل كتاب وحدهم . انما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون اليه ، حتى ما يساوي ارضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله ومجاراة أهوائهم المنحرفة التي تصادم دين الله — هؤلاء نماذج من رجال الدين — نماذج المضللين الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة ليشتروا عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا .. إنّهم يريدون الطريق العَوجاء . ولا يريدون الطريق المستقيم . ويريدون العوج ولا يَريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه ، وكل ما عَداه فهو أعوج ، وهو ارادة العوج ، وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد ويستيقن أنه راجع إلى ربّه ثم يصدّ عن سبيل الله ، ويحيد عن نهجه وشرعه (الذين يَصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون) .. وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تلوي شرع الله حسب الأهواء . التصوير الذي يجلوا حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح ...

إن آفة رجال الدين ، حين يُصبح الدين حرفة وصناعة ، لا عقيدة حارة دافعة ، إنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه . ويدعون إلى البر ويهملونه ، ويُحرفون الكلم عن مواضعه . ويُؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويَجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ولكن تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان .. والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعية

اليه . هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك ، لا في الدعاة وحدهم ، ولكن في الدعوات ذاتها ؛ وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويشهدون فعلا قبيحا فتملكهم الحيرة بين القول والفعل . وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ، وينطفيء في قلوبهم النور الذي يشعه الايمان ، ولا يعودون يثقون بالدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيما واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها . وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة . والمطابقة بين القول والفعل وبين العقيدة والسلوك ليست مع هذا أمراً هينا ، ولا طريقاً معبداً .. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة .. وإلى صلة بالله واستمداد منه واستعانة بهديه . فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيرة مما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره ؛ أو عما يدعو اليه غيره . والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته . لأن قوى الشر والطغيان والاغواء أكبر منه ، وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ، ولكن لحظة ضعف تنتابه ، فيتخاذل ويتهاوى ويخسر ماضيه ، وحاضره ومستقبله . فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي . أقوى من كل قوي . قوي على شهوته وضعفه ، قوي على ضروراته واضطراراته ، قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه ... ...

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلن غيرها . ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل . يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً . (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل

الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساءَ مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون).. إنه نبأ يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم ، فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها .. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر . ما أكثر الذين يعطون علم دين الله ثم لا يهتدون به ، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه ، واتباع الهوى به ، وهواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم — في وَهْمِهِم — عرض الحياة الدنيا . لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول : إن التشريع حقٌّ من حقوق الله سبحانه . من ادعاه فقد ادعى الألوهية . ومن أدعى الألوهية فقد كفر . ومن أقرَّ له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً . ومع ذلك مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة ، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حقَّ التشريع ، ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق .. ممن حكم عليهم هو بالكفر .

وقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ، ثم يكتب في حلّه كذلك عاماً آخر .. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه . فماذا يكون هذا إلا مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلَدَ إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)..

ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته . ولكنه سبحانه لم يشأ ، لأن ذلك الذي علِم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه ولم يتبع الآيات .. إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ، فلم ينتفع بهذا العلم ولم يستقم على طريق الإيمان . وانسلخ من نعمة الإيمان ، ليصبح تابعاً ذليلا للشيطان ، ولينتهي إلى مرتبة المسخ في مرتبة الحيوان .

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع ؟ إنه اللهاث وراء أعراض هذه الحياة

الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً ، والذي لا يتركه صاحبه سواء وَعَظْتَه أم لم تعظه ، فهو منطلق فيه أبداً ..

إن الحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة . حتى أنه لتمر فترات كثيرة ، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله . فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله ، ممن لا ينسلخون من آيات الله . ولا يخلدون إلى الأرض ، ولا يتبعون الهوى ، ولا يستذلهم الشيطان ، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان .. فهو مثل لا ينقطع وُرُودُه وَوُجوده ، وما هو بمحصور في قصة وقعت في جيل من الزمان ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله ، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها . ثم لتبقى من بعده ومن بعدهم يتلى .. ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة . وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً ، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة . ولقد رأينا من هؤلاء والعياذ بالله في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه ، أو كمن يعض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم ، يخشى أن ينازعه اياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة ، فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم . وما يني يلهث وراء هذا المطمع لاهثا لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا .. اللهم اعصمنا وثبت أقدامنا وأفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ..

إن القرآن الكريم يعمل ولا يزال يعمل في قيادة المجتمع المسلم ، وفي توجيهه وفي توعيته ، وفي إعداده لمهمته الضخمة . ولن يُفهم هذا القرآن إلا وهو يُدرس في مجاله الحركي الهائل . ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به .. والقرآن الكريم يحذر من التشكيلات التي تتخذ ستارا إسلاميا وفي حقيقتها إضراراً بالإسلام (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله) .. لقد اتخذ مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مكيدة للمسلمين ، لايُراد به إلا الإضرار بالمسلمين وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة الكائدين لها في الظلام ، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين ..

وليعرف الدعاة في كل زمان وفي كل مكان أن هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ في صُوَر نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام . أو تشويهه أو تمويهه ، وتمييعه ، وتتخذ في صور أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها ، وهي ترمي هذا الدين . وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات ، وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات ، وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير .. لا خوف عليه ولا قلق .. وتتخذ في صور شتى .. ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم على الدعاة كشفها ، وإنزال اللافتات الخادعة عنها ، وبيان حقيقتها للناس ، وما تخفيه وراءها ، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان الله القوي الصريح ..

الباب الثاني

الولاء والبراء عند (السيد قطب)

الولاء

إن هذا القرآن يربي الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة ، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذي يقف فيه ، وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسول الله ، ولا ينضم إلى الجماعة التي تمثل حزب الله ، وإشعاره أنه موضع اختيار الله ليكون ستارا لقدرته وأداة لتحقيق قدره في حياة البشر ، وفي وقائع التاريخ .

وإن هذا الاختيار بكل تكاليفه فضل من الله يؤتيه من يشاء وأن موالاة الجماعة غير المسلمة معناه الارتداد عن دين الله ، والنكول عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلي عن هذا التفضل الجميل فالولاء لله (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون).. هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالا لتأول ، ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور .. ولم يكن بُدّ أن يكون الأمر كذلك ، لأن المسألة في صميمها هي مسألة العقيدة ، ومسألة الحركة بهذه العقيدة ، وليكون الولاء خالصا لله، والثقة بـه مطلقة ، وليكون الإسلام هو (الدين) وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وبين سائر الصفوف التي لا تتخذ الاسلام دينا ، ولا تجعل الاسلام منهجـا للحياة ، ولتكون للحركة الإسلامية جدّيتها ونظامها ، فلا يكون الولاء فيها لغير

قيادة الله ورايته . ولا يكون التناصر إلا بين العصبة المؤمنة ، لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة .. ولكن حتى لا يكون الإسلام مُجرد عنوان أو مجرد راية وشعار ، أو مُجرد كلمة تُقال باللسان ، أو مُجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مُجرد وصف يلحق القاطنين في مكان .. فإن البيان الإلهي يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)...

وهذه ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ، الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أُهين دينه ، وأهينت عقيدته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين ربه مادة للهزء واللعب . فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ، ويرتكبونها لنقص في عقولهم ، فما يستهزىء بدين الله وعباده المؤمنين إنسان سَوي العقل .

ولقد كان الاستهزاء واللعب يقع من الكفار وأهل الكتاب في الفترة التي كان القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن الله سبحانه يَضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها ، وحيَاتها الدائمة ، وكان الله سبحانه يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين .

وها نحن أولاء رأينا أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدى التاريخ أمس واليوم هُم هُم . قد ناصبوا العداء للأسلام وتَرصدوه القرون تلو القرون . وحاربوه حربا لا هوادة فيها . وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذاناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي ، كما يبني نظامها الاجتماعي ، كما يبني خطتها الحركية .. سواء .. وها هوذا يعلمها ألا يكون ولاءها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، وينهاها أن يكون ولاءها لأهل الكتاب والكافرين ، ويجزم ذلك الجزم الحاسم في

هذه القضية وأن العقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام ، حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض . إذا أنبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه ، بالنفخة التي جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه . ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والكلأ والمرعى والحد والسياج . والولاية بين فرد وفرد وبين مجموعة ومجموعة وبين جيل من الناس وجيل ، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن بالمؤمن والجماعة المسلمة بالجماعة المسلمة . والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ومن وراء فواصل الدم والنسب والقوم والجنس ويتجمعون أولياء بالعقيدة وحدها والله من ورائهم ولي الجميع (والله ولي المؤمنين). ومن كان الله مولاه فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء . وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه ، فلا مولى له ، ولو اتخذ الانس والجن كلهم أولياء فهو في النهاية وضيع عاجز ، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية ، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

١ ـ مشكلة الخلط بين الولاء والتسامح :

إن القرآن الكريم ليوقفنا أمام خطر شديد على العقيدة يكمن في الطريق ، وهذا التوجيه واضح في هذه الآية العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ...) (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) إن هذا القرآن يربي وعي المسلم بحقيقة أعدائه وحقيقة المعركة يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وبين كل أعدائه .. وهم يعادونه لعقيدته ودينه قبل اي شيء آخر

وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) فهذه هي العقيدة وهذه هي الدوافع الأصلية ..

إن قيمة هذا المنهج الالهي وقيمة التوجيهات الأساسية فيه عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ومعرفة طبيعة المعركة ، وطبيعة الأعداء فيها أمران مهمان سواء في تحقيق شرائط الايمـــان أو في التربية الشخصية للمسلم أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة .. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلاً ، ولا يكونون في ذواتهم شيئاً ، ولا يحققون في واقع الأرض أمرا ما لم تتم في نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاءهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم وما لم يستيقنوا أنهم جميعاً ألب عليهم . وأن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء ..

وسذاجة أية سذاجة ، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقا واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين ..

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان ، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعا أهل دين ، ناسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله . فأهل الكتاب هؤلاء هُم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا).. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألّبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعا وردءاً .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنّوا الحروب الصليبية خلال مئتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شرّدوا المسلمين في فلسطين ، وأحلّوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الالحاد والمادية وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشرّدون

المسلمين في كل مكان .. في الحبشة والصومال وأريتيرية ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند وفي كل مكان .. ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين .. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن .. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوةالسماحة التي هي طابع الإسلام، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن .. إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .. إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة (الذين آمنوا).. لقد نزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ولينشىء تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائما ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله والذين آمنوا .. الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل . فهذا مفرق الطريق ، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ، ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ، ولا تصلح الحياة البشرية ولا

تستقيم إلا أن تقيم على هذا المنهج وحده دون سواه ، ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه : الاعتقادية والاجتماعية ، لم يأل في ذلك جهداً ولم يقبل منه منهجا بديلا — ولا في جزء منه صغير — ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو — وحده — الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس ، في وجه العقبات الشاقة والتكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان ..

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون في فهم معنى الأديان كما يخطئون في فهم معنى التسامح .. فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلا ، ولا يقبل فيه تعديلا — ولو طفيفا — هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر (إن الدين عند الله الإسلام) ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك).. (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم). وفي القرآن كلمة الفصل .. ولا على المسلم من تمييع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين .

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به — ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء — يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم في كل مكان على سطح الأرض ، ما يصدق قول الله تعالى « بعضهم أولياء بعض » .. وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم ، بل بأمره الجازم ونهيه القاطع وقضائه الحاسم

في المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله ، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله .. إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعاً على أساس العقيدة .. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء — وهو التناصر — بين المسلم وغير المسلم . إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة .. ولا حتى أمـــام الالحاد مثلا — كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن — وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه ؟.. إن بعض من لا يقرأون القرآن ولا يعرفون حقيقة الإسلام ، وبعض المخدوعين أيضاً يتصورون أن الدين كله دين ، كما أن الإلحاد كله إلحاد ، وأنه يمكن أن يقف التدين بجملته في وجه الإلحاد — لأن الإلحاد ينكر الدين كله . ويحارب التدين على الإطلاق . ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حسّ المسلم الذي يتذوق الإسلام ، ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة ، وحركة بهذه العقيدة لإقامة النظام الإسلامي . إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حسّ المسلم واضح مُحدد .

الدين هو الإسلام ، وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام لأن الله سبحانه يقول (إنّ الدين عند الله الإسلام) ويقول (ومن يَبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ومن ثم فليس هناك جبهة تدين ، يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد .. هناك (دين)هو الإسلام وهناك (لا دين)هو غير الإسلام .. ثم يكون هذا اللادين عقيدة أصلها سماوي ولكنها مُحرفة ، أو عقيدة أصلهـــا وثني باقية على وثنيتها أو إلحادا ينكر الأديان .. تختلف فيما بينها كلها . ولكنهـــا تختلف كلها مع الإسلام ، ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء .. (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) هذه هي كلمة الفصل ، كلمة الله في هذه القضية لم يبق هناك له موضع لاعتبار أهل الكتاب أهل دين . وليس للمسلم أن يُقرر غير ما قرّره الله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم). وكلمة الله باقية لا تغيّرها الملابسات والظروف .. والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء ..

إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد ، هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين وأنه يدعوهم إلى الدين .. وإذا تقررت هذه البديهية ، فإنه لا يكون منطقيا في عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض مع من لا يدين بالإسلام .. إن هذه القضية في الإسلام قضية إعتقادية إيمانية . كما أنها قضية تنظيمية حركية .

٢ ـ التمييز والمفاصلة :

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد ، والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة ، وهذه كتلك لا بد من التميز فيها والاختصاص . والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه . إن القبلة ليست مجرد مكان ، أو جهة تتجه اليها الجماعة في الصلاة ، فالمكان أو الجهة ليس سوى زمز .. رمز للتميز والاختصاص : تميز الشخصية وتميز الهدف ، وتميز الاهتمامات وتميز الكيان .. والأمة المسلمة اليوم بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعا ، وبين شتى الأهداف الجاهلية ، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعا وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعا .. الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة ، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده (قل هذه سبيلي أدْعُو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين).. هذه سبيلي واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة .. وأدعو إلى الله على بصيرة .. فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيداً ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة .. هذه طريقي فمن شاء فليتابع ومن لم يشأ فأنا سائر في الطريق المستقيم .. وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التمييز . لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ولا يدين لقيادتهم . ويتميزون ولا يختلطون .. ولا يكفي أن يدعو

أصحاب هذا الدين إلى دينهم وهم متميعون في المجتمع الجاهلي . فهذه دعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة . إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية . وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة ؛ وعنوانه القيادة الإسلامية ، لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي ، وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضا . إن اندماجهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة . وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين.. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس ..

وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصلية ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ . والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية .. والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ، ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام .. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ، ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب.. إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم. أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفترق تماما عن سبيل الجاهلية ؟

وتنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان ، وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل.. وهما صنفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان .. لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة . ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية .. إنما هي العقيدة والعقيدة وحدها .

فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية أخوة في الله ، تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم ،

وتختلف أسرهم ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله . فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة .. إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب .

وهذه هي القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون أو الميزان الدقيق للايمان في النفوس (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون) .. فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما يجمع إنسان في قلب واحد وُدّين : وداً لله ورسوله ، ووداً لأعداء الله ورسوله . فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .. والمسلم له نسب عريق وماض طويل وأسوة ممتدة على آماد الزمان . فيشعر أن له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه (قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنّا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) .. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرّت بمثل ما يمر به .. وإن هذه البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والايمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الايمان .. هذا وإن المنهج الإلهي ليحدد بوضوح كامل أن يهمل المسلم شأن الذين يتخذون دينهم سخرية . والإهمـــال يجب أن يتبع بالقول كما يتبع بالفعل . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقادا وعبادة وخلقاً وسلوكا وشريعة وقانونا . إنما يتخذ دينه هزوا ولعبا .. (وذر الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا) .

والذي يتحدث عن مبادىء هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافاً تدعو إلى الهزء والسخرية كالذين يتحدثون عن الغيب —وهو أصل من أصول العقيدة— حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن الزكاة وهي ركن من أركان هذا الدين حديث الاستصغار ، والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة — وهي من مبادىء هذا الدين — بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية أو الإقطاعية أو البورجوازية الزائلة . والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار واستنكار .

والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها (أغلال)..

وقبل كل شيء وبعد كل شيء .. الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية .. ويقولون : إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله — أولئك جميعاً يتخذون دينهم هزوا ولعبا . يأمره ربه بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وقد روى القرطبي : (قال ابن خويز منداد : من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر — مؤمناً كان أو كافرا — قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم والبيع ، ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة . فأعرض عنه وقال ولا نصف كلمة .. ومثله عن أيوب السختياني وقال الفضيل بن عياض : من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج الإسلام من قلبه . ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها . ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة . وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له .. وروى أبو عبدالله الحايك عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام). فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله .. وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية . ومن يقره على هذا الإدعاء .. فليس هذا بدعة مبتدع . ولكنه كفر كافر . أو شرك مشرك . مما

لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم . فمنذ أن قام الاسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى وهو يزعم الإسلام ..

وينهى الله عز وجل المؤمن أن يجعل ناساً هُم دونه في الحقيقة والمنهج موضع ثقة واستشارة ؛ ومرة بعد مرة تصفعنا التجـارب المرة ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم ..

ومع ذلك نعود فنفتح لهم صدورنا ، ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق ، وتبلغ بنا المجاملة . أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا ، فنتحاشى ذكرها ، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام . وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين .

ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي ، ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا ، وها هو ذا كتاب الله يعلمنا كما علم الجماعة المسلمة الأولى ، كي نتقي كيدهم وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر).. فلنصبر ولنصمد أمام قوتهم إن كانوا أقوياء ، وأمام مكرهم وكيدهم ان سلكوا طريق الوقيعة والخداع . الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل . ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع ، أو كسبا لودهم المدخول ثم هو التقوى .. الخوف من الله وحده .. ومراقبته وحده . هو تقوى الله فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه ، ولا تعتصم بحبل إلا حبله . وحين يتصل القلب بالله فانه سيحقر كل قوة غير قوته ، وستشد هذه الرابطة من عزيمته فلا يستسلم من قريب ، ولا يواد من حاد الله ورسوله طلبا للنجاة أو كسبا للعزة أو مجاملة للناس .. هذا هو الطريق الصبر والتقوى ، التماسك والاعتصام بحبل الله ، وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها ، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها إلا عزوا

وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم وكانت كلمتهم هي العليا . وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعداء الدين واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا من دونهم بطانة ، وأصدقاء وأعوان ومستشارين إلا كتب الله عليهم الهزيمة ، وأذل رقابهم فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والإنكسار والهوان ..

وأخيراً لا بُدّ أن ندرك أنّ تدخل القوة الكبرى ، إنما يكون دائماً بعد المفاصلة. بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ أنجاهم الله منها . وبعد يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة.. وبعد أن يُفاصلوا قومهم على أساس العقيدة . فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجا وقيادة وتجمعا .. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ، ولتدمر الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتمكن للمؤمنين في الأرض ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) ولا يكون هذا التدخل أبدا والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي : عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة .

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم ، ثم يزاول هذا الحق فعلاً . إنها الفتنة التي تحمل الناس شيعاً ملتبسة ، لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً . ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض ، ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها — لأنها غير مقيدة بشريعة من الله — ويكون بعضهم في نفسه الحق والتربص .. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض ! وهم شيع ؛ ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة .

والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد ! وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها

والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية — وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها، باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها العذاب : (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض).. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيدياً وشعورياً . ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها — حتى يأذن الله بقيام (دار إسلام) تعتصم بها — وإلا أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي (الأمة المسلمة) وأن ما حولها ومن حولها ، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه . جاهلية وأهل جاهلية . وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين .

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ولم تتميز هذا التميز . حق عليها وعيد الله هذا : وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع . شيعة تتلبس بغيرها من الشيع . ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها . وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد ، دون أن يدركها فتح الله الموعود !

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات . غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه . ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها .. ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله ، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره .. وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم... لم يقع في مرة واحدة قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة — أي الدين — وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها — أي نظام حياتها — وإن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعاً .

وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه (أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) والله نسأل أن يجعلنا من يُصرف لهم الآيات فيفقهون ..

٣ ــ رابطة العقيدة :

إنها وقفة على مَعْلَم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة ، وفي خطها الحركي .. وقفة يجب أن يقفها الدعاة على مفرق الطريق لتكشف لهم معالم الطريق ...

إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم .. إن هذه الوشيجة ، ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة .. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال سبحانه وتعالى لعبده نوح وهو يقول (رب إن ابني من أهلي) .. (يا نوح إنه ليس من أهلك). ثم يبين الله له ، لماذا يكون ابنه ليس من أهله .. (إنه عمل غير صالح).. إن وشيجة الايمان قد انقطعت بينكما يا نوح (فلا تسألن ما ليس لك به علم). فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطىء . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك .. وهذا هو المَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة .

الجاهلية تجعل الروابط آناً هي الدم والنسب ، وآناً هي الأرض والوطن . وآناً هي القوم والعشيرة ، وآناً هي اللون واللغة ، وآناً هي الجنس والعنصر ، وآناً هي الحرفة والطبقة . وتجعلها آناً هي المصالح المشتركة .. أو التاريخ المشترك .. أو المصير المشترك ، وكلها تصورات جاهلية على تفرقها أو على تجمعها ، تخالف مخالفة أصيلة عميقة أصول التصور الاسلامي ..

والمنهج الرباني القويم، مُمثلا في هذا القرآن الذي يَهدي للتي هي أقوم، وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي من هذا القرآن وعلى نَسقه واتجاهه ، قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق . وقد ضرب الله أمثالا شتى للوشائج والروابط الجاهلية ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يَعتبرها ... ضرب الله المثل فيما يكون بين الولد والوالد ، وذلك فيما كان من ابراهيم عليه السلام وأبيه وقومه كذلك .. (واذكر في الكتاب ابراهيم إنّه كان صدّيقا نَبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تَعبد ما لا يَسمع ولا يُبصر ولا يغني عَنك شيئاً؟ يا أبت إنّي قد جاءني من العلم ما لَم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سَوياً ، يا أبت لا تَعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وَليا .. قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تَنتَه لأرجمنك واهجرني مليا ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نَبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجَعلنا لهم لسان صدق علياً) .

كذلك ضَرب الله المثل فيما كان بين ابراهيم وذريته كما علمه سبحانه ولقنه وهو يعطيه عهده وميثاقه ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين).. (وإذ قال ابراهيم رَبِّ اجعل هَذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير).

وضرب الله المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه . وذلك فيما كان بين نوح وامرأته . ولوط وامرأته ، وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نُوح وامرأة لوط كانَتا تَحتَ عَبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شَيئاً وقيل ادخلا النار

مَع الداخلين) .. (وضَرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابْن لي عندك بَيتا في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين) ..

وضرب الله المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وأموالهم وديارهم ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم ، وذلك فيما كان بين ابراهيم والمؤمنين به مع قومهم .. وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم .. (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم **وبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده**) .. (أم حَسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهَيِء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بَعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصَى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنّهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هُدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا ربّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بَيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، **وإذ اعتزلتموهم وما يَعبدون إلا الله** فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيء لكم من أمركم مرفقا) .. وبهذه الأمثلة التي ضَربها الله سبحانه للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين الذين سبقوها في موكب الايمان الضارب في شعاب الزمان ، وضَحَت معالم الطريق لهذه الأمة ، وقام هذ المعَلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يَقوم على سواها ، وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حَسم ووضوح يَتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة .. هذه نماذج منها :

(لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) (يا أيها الذين آمنوا

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تُلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل) (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير)(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون)(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)....

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة من علاقات المجتمع الاسلامي، وفي طبيعة بنائه التكويني العضوي الذي يتميز عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة .

والذين يدعون صفة الاسلام ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الاسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الاسلام . وإما أنهم يرفضونه . والاسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها . بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا . هذا المَعْلم الواضح يجب أن يقف أمامه الدعاة طويلا فهذه قاعدة العقيدة .

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين . الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته وهم الذين يقول الله تعالى فيهم (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم).. لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سرٌ من أسرار قوة هذا الدين . وقوة المجتمع الاسلامي الذي يقوم على هذا الأساس .. ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله . ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .. لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم

أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد، أصناماً تُعبد من دون الله اسمها تارة (الوطن) واسمها تارة (القوم) واسمها تارة (الجنس).

وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ باسم (الشعوبية) وتارة باسم (الجنسية الطورانية) وتارة باسم (القومية العربية) وتارة بأسماء شتى، تحملها جبهات شتى تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الاسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة، المنظم بأحكام الشريعة .. إلى أن وَهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية، وتحت الايحاءات الخبيثة المسمومة، وإلى أن أصبحت تلك (الأصنام) مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه، أو خائنا لمصالح بلده .. ..

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الاسلامي الفريد في التاريخ .. كان هو المعسكر اليهودي الخبيث، الذي جرَّب سلاح: (القومية) في تحطيم التجمع المسيحي، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية .. وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود .. وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الاسلامي — بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الاسلامي .. ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله. كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي. وما يزالون .. حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة، ليقوم التجمع الإسلامي من جديد على أساسه المتين الفريد ..

وأخيراً فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم. ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم ... يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد، وألا تتعدد المقدسات، ويجب أن يكون هناك شعار واحد وألا تتعدد الشعارات. ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه اليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات .. إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام

الحجرية والآلهة الأسطورية . إنَّ الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى ، كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صُورا متعددة ، وآلهة الأساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ، وأيا كانت مراسمها . وما كان الإسلام ليخلص من الأصنام الحجرية والأرباب الاسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان .. وما اليها .. يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها . وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه. لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري .. أمة المسلمين من أتباع الرسل — كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة — وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون .. وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل — كل في زمانه — وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : (إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) .. ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء . ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو اسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء. ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي أمة فارس ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان . ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة . إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون ، وابراهيم ولوط ، ونوح وداود وسليمان ، وأيوب ، واسماعيل وادريس وذي الكفل ، وذي النون ، وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم .. كما جاء في سورة الأنبياء : (آيات ٤٨ — ٩١) .. هذه هي أمة المسلمين في تعريف الله سبحانه . فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه ، ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين . أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

وهكذا إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل ، ولا يعترف بقربى ولا رحم إلا إذا أنبتت وشيجة العقيدة والعمل . ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .

الباب الثالث

السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية

١ — إن السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية هي الواقعية الجدية في هذا الدين ، فهو حركة تواجه واقعا بشريا وتواجه وجوداً واقعياً . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية تسندها سلطات ذات قوة مادية . لذلك يجب أن تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات ، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل ..

إن الدعوة الإسلامية لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي ، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد ولكن طبيعتها هي الواقعية الحركية ، فهي حركة ذات مراحل ، لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . فالدين الاسلامي لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة ..

والذي يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ليرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج الحركي الإسلامي. فيتبين للدعاة أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة ، بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكل جزئية من جزئيات

الاعتقاد والتصور والخلق والسلوك ، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإنساني . وهو الاختلاف الذي لا بُدّ أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور بين منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العبـــاد لله وحده لا شريك له ، والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر والآلهة المدعاة وللأرباب المتفرقة . ثم يقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة ، لأن كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لا بُد أن تكون مختلفة مع الأخرى ، ومتصادمة معها تماماً في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين ..

وليدرك الدعاة أنها لم تكن فلتة عارضة أن تقف قريش تلك الوقفة العنيدة لدعوة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله في مكة ، ولا أن تحاربها هذه الحرب الجائرة في المدينة . ولم تكن فلتة عارضة أن يقف اليهود في المدينة كذلك لهذه الحركة ، وأن يجمعهم مع المشركين معسكر واحد لاستئصال شأفة ذلك الخطر الذي يتهدد الجميع بمجرد قيام الدولة الإسلامية في المدينة على أساس هذه العقيدة ، وإقامة نظامها وفق ذلك المنهج الرباني المتفرد ، وكذلك لنعلم أنها لم تكن فلتة عابرة أن يقف النصـــارى لهذه الدعوة منذ ذلك الحين إلى آخر الزمان .. إنها طبائع الأشياء .. إنها أولا طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيدا أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض ، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقية .. ثم أنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما في كبيرة ولا صغيرة ، وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الرباني الذي يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم . فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا هؤلاء... وكانت هذه الحتمية تفعل فعلها على مدى الزمن ، وعلى مدى التجارب ، وتتجلى في صور شتى تؤكد وتعمق أصلها في هذا المنهج الالهي .

وهذه الظاهرة يقررها الله سبحانه (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم

كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فيعلن سبحانه بهذه النصوص عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الاسلام والمسلمين ، وعن قوة الاصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان ، وعدم توقيتها بظرف أو زمان .. فهذا قانون حتمي في طبيعة العلاقات بين التجمع الاسلامي والتجمعات الجاهلية : قانون يجب أن يقف أمامه الدعاة طويلا ؛ فيفسرون الظواهر التي تنشأ عنه بالرجوع اليه فلا يمكن فَهْم طبيعة الجهاد في الاسلام ، ولا طبيعة تلك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامي ولا يمكن فَهْم بواعث المجاهدين الأوائل ، ولا أسرار الفتوحات الإسلامية ؛ ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية ، التي لم تفتر قط طوال أربعة عشر قرنا والتي ما تزال مشبوبة على ذراري المسلمين — وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام ولم يبق منه إلا العنوان — في المعسكرات الشيوعية ؛ والصليبية كلها ، في روسيا والصين ويوغسلافية وألبانيا وفي الهند وكشمير ، وفي الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة .. وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامي وفي كل مكان في العالم الإسلامي ؛ أو الذي كان إسلاميا بتعبير أدق . وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التي تتولى سحق هذه الطلائع ، ومد يد الصداقة اليها ، وإمدادها بالمعونات التي تبلغ حد الكفالة ؛ وإقامة ستار من الصمت حولها وهي تسحق هذه الطلائع الكريمة ..

إنه قانون حتمي يقرره العليم الخبير (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) هذا هو التقرير الصادق الذي يكشف عن الاصرار الخبيث على الشر ، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل .

إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ، ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين . إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم ، فهو من القوة والمتانة بحيث يخشاه كل مبطل ؛ ويرهبه كل باغ ويكرهه كل مفسد . إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج ومن منهج قويم ومن

نظام سليم .. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد . ومن ثم لا يطيقه المبطلون والمفسدون ، ومن ثمّ يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين وتتبع هذا المنهج وتعيش بهذا النظام . وتتنوع وسائل هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواتهم . ولكن الهدف يظل ثابتا . أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا ، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلّت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها .

والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ، ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عنه ولا يرد (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).. وهكذا يطلب المنهج الرباني من حملة هذا الدين أن يثبتوا تحت مطارق الأذى والفتنة بكل شدتها حتى لا يرتدوا عن الإسلام فتحبط أعمالهم . إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه ، لا يمكن أن يرتدّ عنه ارتدادا حقيقياً أبداً ، إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له وهذا التحذير من الله تبارك وتعالى قائم إلى آخر الزمان .. وليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن ايمانه وإسلامه ، ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه ..

وهناك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله . والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به ويصبرون على الأذى فهو معوضهم خيراً إحدى الحسنيين .. النصر أو الشهادة .. وهذا هو طريق المؤمنين . إن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسالمة والتعايش ، على أن يترك لمن يشاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء ، وأن يدين للسلطان الذي يشاء ، في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين — وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة . تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت..والاتنازل

كلية عن الحق الذي يمثله وخانه. وان الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة لله وحده ؛ والتي يتخذ الناس فيها أربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله . إن الذي يعود إلى هذه الملة — بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق وهداه إلى الحق وأنقذه من العبودية للعبيد — إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت . أو مؤداها على الأقل أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود وشرعية في السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الايمان بالله . فهو يعود اليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الاسلام . شهادة الاعتراف براية الطغيان ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة .. إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت ، والدينونة لله وحده — مهما عظمت وشقت أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . إن تكاليف العبودية للطواغيت مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق . انها تكاليف بطيئة مديدة . تكاليف في إنسانية الانسان ذاته . فهذه الإنسانية لا توجد . والإنسان عبد للإنسان . وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟ وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟ وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان . على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس — في حكم الطواغيت — أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت سواء في صورة

الغصب المباشر كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ . أو في صورة تنشئهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار ، وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أن ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه في حكم الطواغيت من دون الله ، إنما يعيش في وَهْم ، أو يفقد الإحساس بالواقع . إن عبادة الطواغيت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال .

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر وردّه كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هَوَى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت تحت رايته بكل ما فيها من تضحيات ، ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر .. إنه يدعوهم للكرامة والسلامة في آن .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي بوصفه كياناً عضوياً واحداً متساندا ، بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ، كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام . إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام والمعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ، ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد .. ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى عبودية لله وحده .

ولما كانت هذه كلها حتميات لا بُدَّ منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام .. ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام . انها مواجهة الدفاع عن

النفس في وجه الاجتياح ، ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد .. وإذا كان هذا شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها ، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت . لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام..(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا). وهكذا يسفر الطغيان عن وجهه. لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) وهنا تتجلى حقيقة المعركة ، وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها ، ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لا بُد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل . وهذا ما لا تطيقه الجاهلية .

لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ، ولكنهم يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى .. إن التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده ، وطاقته لحساب التجمع الجاهلي ولتوطيد جاهليته . والذين يخيل اليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع .. هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره ..

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه .. وليس في ذلك اختيار .. إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات . هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده ، وتنحية الأرباب

الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم متميع في المجتمع الجاهلي ، خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار . ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين . والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة ، وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم . فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه ، عاملون في تشكيلاته ؛ وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله وهم واعون مقدرون . وإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل — تاركا مصيرهما لفتح الله وقضائه — فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف . بل يتابع الحق وينازله ويطارده ..

ولقد قال شعيب لقومه (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين). ولكنهم لم يقبلوا هذه الخطة ، ولم يطيقوا رؤية الحق ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذي يعرضه الطواغيت : (قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ..) ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مفروضة عليهم فرضا ، وأنه لا يجديهم فتيلا أن يتقوها ويتجنبوها .فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها . وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده .. فلا مفرّ من خوض المعركة والصبر عليها وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها وأن يقولوا مع شعيب (على الله توكلنا .. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ثم تجري سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ .

إن شهادة أن لا اله إلا الله معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة والخروج من حاكمية العباد جملة ، والفرار إلى ألوهية الله وحده ، والذي يؤمن بهذه الشهادة يخرج لتوه من سلطان الطواغيت وقيادتها وحاكميتها وينضم إلى التجمع الحركي ويخضع لقادته وسلطانه .. إنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبي والشعائر التعبدية . إن هذا ليس هو الإسلام ، كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين . ولكنهم لا يعرفون ما هو الاسلام معرفة اليقين . إنما الإسلام هو تلك المصاحبة للنطق بالشهادتين.. هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه . والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية والعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع ...

وإن المعركة لن تكف وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ، ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .. والطغيان يخشى الحق أن يظل طليقا ، يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء . ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولا يسالمه أبدا . فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب . ومن ثم يبطش الباطل برجم ولا يعتزل الحق ، ولا يدعه يسلم أو يستريح .

إن السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية هي الواقعية الجدية .. فالدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ، للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة . وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ، كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه.. إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان . وهو منهج حركي واقعي يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة.. يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان .. ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله . والحركة بهذا الدين في واقع بشري ..

«الصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية . إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بُدّ كي يقابلها الدين بوسائل مكافئة أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بُد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة لسواه .

٢ ــ احقاق الحق :

إن الحق لا يحق ، وأن الباطل لا يبطل في المجتمع الإنساني بمجرد البيان النظري للحق والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق ، وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس ، وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا .

فهذا الدين منهج حركي واقعي لا مُجرد نظرية للمعرفة والجدل ، أو لمجرد الاعتقاد السلبي (ليحق الحق ويبطل الباطل) وهذه إشارة من الله لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة للدعاة .. هذا الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه بالألوهية والسلطان والتدبير ، والتقدير في عبودية الكون كله : سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة . ولهذا السلطان المتوحد ، وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك .. وهذا الباطل الزائف الطارىء الذي يعم وجه الأرض ، ويغشى على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ..

إن هذا الحق يعلن تحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته .. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بُدّ من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامنا على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه تتمثل في شعائر تعبدية لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم . ولم يكن له بُد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والمجتمع الجديد في واقع الحياة ، وأن

يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها ، وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ثم في حياة البشرية كلها أخيرا . وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله ..

إنها عقيدة في أعماق الضمير فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور ، وفي الخلق والسلوك . وفي العبادة والعبودية . وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات . ولتنتصر العقيدة على أصحابها أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة . وأن هذا ليس كلاما يُقال إنما هو واقع متحقق للبيان (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله). وهذه واقعة بدر فرقانا بين الحق والباطل . فلقد حق الحق وبطل الباطل .. إننا ندرك اليوم ضرورة هذا الفرقان . حين ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تمييع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين . حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين ...

إن الحق قذيفة في يد القدرة تقذفه به على الباطل فينشق دماغه ، فإذا هو زاهق هالك ذاهب (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) هذه هي السنة المقررة . فالحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل منفي عن خلقة هذا الكون أصلا . طارىء لا أصالة فيه ، ولا سلطان له .. يطارده الله ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشيء يطارده الله ، ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه . ولقد يُخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يُخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان . يمد الله فيها ما يشاء . للفتنة والابتلاء . ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض . وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء . والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده . وفي أصالة الحق في بناء الوجود

ونظامه ، وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه .. فإذا ابتلاهم بغلبة الباطل حينا من الدهر عرفوا أنها الفتنة ، وأدركوا أنه الابتلاء ، وأحسوا أن ربهم يربيهم لأن فيهم ضعفا أو نقصا .. وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر . وأن يجعلهم ستار القدرة فيدعهم يجتازون فترة الابتلاء ، يستكملون فيها النقص ، ويعالجون فيها الضعف .. وكلما سارعوا إلى العلاج قصر عليهم فترة الابتلاء . وحقق على أيديهم ما يشاء ، أما العاقبة فهي مقررة (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) والله يفعل ما يريد..

٣ ـ كلمة الحق :

هناك حقائق عن طبيعة منهج هذه الدعوة التي لا يجوز للدعاة الاجتهاد فيها . وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين . وألا يخفوا منها شيئا ، وألا يؤجلوا منها شيئا ، وفي مقدمة هذه الحقائق : أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله . ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع ولا اتباع إلا لله .. فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أيا كانت المعارضة والتحدي . وأيا كان الإعراض من المكذبين والتولي ، وأيا كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك .

وليس من الحكمة والموعظة الحسنة . إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله . لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه ، أو يعرضون بسببه عن هذا الدين . أو يكيدون له وللدعاة اليه . فهذا كله لا يجوز أن يجعل الدعاة إلى هذا الدين يكتمون شيئاً من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه . ولا أن يبدأوا مثلا من الشعائر والأخلاق والسلوك والتهذيب الروحي ، متجنبين غضب الطواغيت في الأرض . لو بدأوا من إعلان وحدانية الله والربوبية . ومن ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع لله وحده ..

إن هذا هو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراده الله سبحانه . ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتوجيه من ربه .. فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق وليس له أن ينهج غير ذلك النهج .. والله بعد ذلك

متكفل بدينه وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافهم شرّ الطواغيت .. ويوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده، ويخلصوا له الدين غير عابئين بكره الكافرين (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)، ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده، دون سواه، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب ، فليمض المؤمنون في وجهتهم يدعون ربهم وحـــده ، ويخلصون له عقيدتهم ويصفون له قلوبهم ، ولا عليهم رضى الكافرون أو سخطوا ، وما هم يوما براضين .

والذين يقولون أنهم مسلمون ، ولا يقيمون ما أُنزل اليهم من ربهم ، هم كأهل الكتاب ليسوا على شيء . والذي يريد أن يكون مسلما ، يجب عليه بعد إقامة كتاب الله في نفسه ، وفي حياته أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه ، وأن دعواهم أنهم على دين يردها عليهم ربّ العالمين . فالمفاصلة في هذا الأمر واجبة ودعوتهم إلى الإسلام من جديد هي واجب المسلم الذي أقام كتاب الله في نفسه وفي حياته. فدعوى الإسلام باللسان والوراثة دعوى لا تفيد إسلاما، ولا تحقق ايمانا ، ولا تعطي صاحبها صفة التدين في أي ملة وفي أي زمان . إن دين الله ليس راية ولا شعارا ولا وراثة ..

إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء . تتمثل في عقيدة تعمر القلب وشعائر تقام للتعبد ونظام يصرف الحياة .. ولا يقوم دين الله إلا في هذا الكل المتكامل . ولا يكون الناس على دين الله إلا وهذا الكل المتكامل متمثل في نفوسهم وفي حياتهم .. وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة ، وخداع للضمير ، لا يقدم عليه مسلم نظيف الضمير .. وعلى المسلم أن يجهر بهذه الحقيقة ،ويفاصل الناس كلهم على أساسها ، لا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة والله هو العاصم . وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله . ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة ، ووصف لهم ما هم عليه ، كما هو في حقيقته بلا مجاملة ولا مداهنة ، فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء ، وان ما هم عليه باطل كله من أساسه ، وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر

تماما ، غير ما هم عليه .. يدعوهم إلى نقلة بعيدة ورحلة طويلة . وتغيير أساسي في تصوراتهم ، وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم .. فالناس يجبون أن يعرفوا من الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم اليه .. (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة). وحين يجمجم صاحب الدعوة ، ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم اليه من الحق . وعن الفاصل بين حقه وباطلهم.. حين يفعل صاحب الدعوة هذا مراعاة للظروف والملابسات. وحذرا من مواجهة الناس بواقعهم الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم ، لأنه لم يعرفهم حقيقة المطلوب منهم كله ، وذلك فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه . إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية ، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها . إن الحقيقة يجب أن تبلغ اليهم كاملة . أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة ، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة . ولقد ينظر بعضنا اليوم مثلا فيرى أن أهل الكتاب . هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية ، وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين في الأرض . وهم أصحاب كلمة مسموعة في الشؤون الدولية ، وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية ذوي أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمرة. وينظر فيرى الذين يقولون : أنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل اليهم. فيتعاظمه الأمر ، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة . ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء ، وأن يبين لهم الدين الحق . وليس هذا هو الطريق..

إن الجاهلية هي الجاهلية . ولو عمت أهل الأرض جميعاً ، وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق ، وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلال ولا ضخامة الباطل .. فالباطل ركام ، وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة : أنهم ليسوا على شيء .. كذلك ينبغي أن تستأنف . وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .. هذه هي الحقيقة الأساسية التي لا يجوز للمسلم الحق أن يجمجم فيها أو يتمتم أمام

ضخامة الواقع الجاهلي الذي تعيش فيه البشرية ، فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلي أن يداهن بشعار أو راية .. انما يجب أن يصدع بكلمة الحق ولا يخاف من قوى الباطل والجاهلية المتراكمة .. إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم . انها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة . وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء . وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل . فإنها كلمة الحق في العقيدة . لا تتملق الأهواء ولا تراعي مواقع الرغبات ، إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب . في قوة وفي نفاذ .. وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى .. وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للايمان ، وهي القلوب التي قد يطمح صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقة (إن الله لا يهدي القوم الكافرين).. وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة .. والهدى والضلال إنما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها . لا المداهنة والملاطفة على حساب كلمة الحق . أو في كلمة الحق . والمطلوب هو عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة ، وعدم اللقاء في منتصف الطريق في الحقيقة ذاتها . فالحقيقة الاعتقادية ليست فيها أنصاف حلول .

٤ ــ المداهنة وأنصاف الحلول :

هناك كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يتعمقوها تعمقاً كاملا . وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والايمانية الكبيرة .. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده ، وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . انما كانت الملابسات التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة . التي شهدت بها الروايات التاريخية ، وحكاها القرآن الكريم في مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة وما يتلبس بها

كذلك من مصالح مادية .. هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهنة الظاهرة البطلان في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ، ولذائذها وشهواتها ، إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العقيدة الجديدة ، وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ، ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق . وهذه الأسباب سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح ، وما يتعلق منها بالألف والعادة ، وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية . كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى ، وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة التي تجمعها معركة عنيدة . لا تنتهي من قريب ، وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف .. ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة وراء قول الله العظيم (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) .. وملابسات نزولها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي ملابسات معركة واحدة ، يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله في أي أرض وفي أي زمان ..

لقد تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم التكليف من ربه لينذر وقيل له (يا أيها المدثر قم فأنذر) فلما أن نهض ، واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة ، وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه ، وتقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ، ومكانتهم ومصالحهم ومألوف حياتهم ، ولذائذهم وشهواتهم إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صورا شتى ، في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها ، بشتى التهم والأساليب كي لا ينضم اليها مؤمنون جدد .. فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنة الذين

عرفوا حقيقتها وذاقوها ، وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، طرقا شتى من الإغراء إلى جانب التهديد والإيذاء ، ليلتقي بهم في منتصف الطريق ، ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ، ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ، كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق ، عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشابهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . والنبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رسول حفظه الله من الفتنة وعصمه من الناس .. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا فلا يدعه وحده لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق . وها هو العون والمدد والتوجيه (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) وهي اللفتة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة وينبوع حقيقتها ، إنها من الله هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا الينبوع ، وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه . ولا يستمد منه . ولا يستعار لهذه العقيدة منه شيء ، ولا يخلط بها منه شيء .

ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن ، وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي اليها . وهو كلفه وهو نزل القرآن عليه . ولكن الباطل يتبجح والشر ينتفش ، والأذى يصيب المؤمنين . والفتنة ترصد لهم . والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه . ثم هم يعرضون المصالحة وقسمة البلد بلدين . والالتقاء في منتصف الطريق . وهو عرض يصعب ردّه ورفضه في مثل تلك الظروف العصيبة .. هنا تجيء اللفتة الثانية (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا).. إن الأمور مرهونة بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ، ويملي للشر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص .. كل أولئك

لحكمة يعلمها يجري بها قدره وينفذ بها حكمه (فاصبر لحكم ربك) حتى يجيء موعده المرسوم . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب ، والشر يتنفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك .. اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق ، على حساب العقيدة : (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى برّ ، ولا إلى خير فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الاثم والكفر . إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق . وحين يعرضون عليك ما يظنونه يرضيك ويغريك ، وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ؛ وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد : فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم ، والثراء حتى يكون أغنى من أغناهم ، كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات ، حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له : (ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي فإني من أجمل قريش بنات). كل الشهوات التي يعرفها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل ..(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) فإنه لا لقاء بينك وبينهم. ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهجك عن منهجهم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم .. اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة ، وقوي الإغراء ، وامتد الطريق ..

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى صلى الله عليه وسلم .. هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله فهو صاحبها ، وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو اليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق ، والقائمين على الباطل . فهما منهجان مختلفان .. وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلبه الباطل بقوته وجمعه ، على قلة المؤمنين وضعفهم . لحكمة يراها الله .. فالصبر حتى يأتي الله بحكمه ، والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح وهي الزاد المضمون لهذا

الطريق .. انها حقيقة كبيرة لا بُد أن يدركها ويعيش فيها رُواد هذا الطريق .. فالمحاولات كثيرة التي حاولها المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المساومة بالدعوة ، ولكن الله عصم منها رسوله ؛ وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائما . محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلا عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحل الوسط الذي يغرونهم به في مقابل مغانم كثيرة . ومن جملة الدعاة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا فأصحاب السلطان لا يطلبون اليه أن يترك دعوته كليا ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق .

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة . فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان اليها ، ولو بالتنازل عن جانب منها .. ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق . وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير ، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل لا يملك أن يقف ، عندما سلم به أول مرة . لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء . والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل . لا يمكن أن يكون مؤمنا بدعوته حق الايمان . فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضول . وليس فيها ضروري ونافلة . وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه . وهي كل متكامل ، يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه ، كالمركّب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره .

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات ، فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم . وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها . والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة . والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبّت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرا (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا

اليك لتفتري علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ، وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) .

إن الانحراف في العقيدة ولو كان ضئيلا ، لا تقف آثاره عندحدودالعقيدة ، بل يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها . فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة ، لذلك فمحاولات المساومة مع هذا الدين كثيرة للالتقاء في منتصف الطريق كما يفعلون في التجارة ، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ؛ فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحدا ، ولا يتخلى عن شيء أبدا .. وما كان يمكن أن يلتقي الاسلام والجاهلية في منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق (ودّوا لو تدهن فيدهنون) .

وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم . وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر ، ولا تُقام عليها قنطرة ولا تقبل قسمة ولا صلة ، وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق . إن المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل ، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد وأصل التصور . وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .. إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر .. ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان — مع الوجود كله — إلى الله وحده لا شريك له ، ويحدد الجهة التي يتلقى منها الانسان عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله . الله وحده بلا شريك ، ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .. وهي تسير .. وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورة للداعية ، وضرورية للمدعويين .. إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الايمان ،

وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الايمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى . واختلاط عقائدها وأعمالها . وخلط الصالح بالفاسد فيها ، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها ، إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة ..

إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام ، والفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .. وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجا وعملا . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون ، إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .. لا ترقيع .. ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق ، مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان . وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس ، شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقتهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم ، ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مداهنة ، ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير . وإلا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة ، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد (فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون).. وإنه ليس هناك أنصاف حلول . ولا التقاء في

منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج . إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة اليه أول ما كـــان ؛ الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية (لكم دينكم ولي دين)، وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغبش ، وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ، ويبقى الترقيع .. والدعوة إلى الإسلام التي لا تقوم على هذه الأسس مدخولة واهنة ضعيفة .. إنها لا تقوم على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ، وهذا هو طريق الدعوة الأول **(لكم دينكم ولي دين)** .

٥ ــ رد حاسم :

إن الإسلام منهج واقعي للحياة لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية ، إنه يواجه الحياة البشرية ؛ كما هي بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية ؛ يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير والارتقاء في آن واحد، يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعيتها ، ولا ترفرف في خيال حالم ؛ لا تجدي على واقع الحياة شيئاً ..

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ويقتلون الصالحين . ويفتنون المؤمنين ويرتكبون كل منكروهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان . والإسلام يمضي في هذا المنهج .. إنه يحرم الغيبة.. ولكن لا غيبة لفاسق . فالفاسق الذي يشتهر بفسقه، لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه وهو يحرم الجهر بالسوء من القول ولكنه يستثني (إلا من ظُلم) فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول لأنه حق ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه ..

ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة، ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة. إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم وإلى قتالهم وقتلهم وإلى تطهير جوّ الحياة منهم هكذا جهرة .. هذا هو الإسلام صريحا قويا دامغا . لا يلف ولا يدور ولا يدع

الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله أو يدور .. وهذا هو القرآن يقف بالمسلمين على أرض صلبة لا تتأرجح فيها أقدامهم ، وهم يمضون في سبيل الله لتطهير الأرض من الشر والفساد ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس . وتؤذيها الوساوس .. هذا شر وفساد وبغي وباطل .. فلا حرمة له إذن . ولا يجوز أن يترس بالحرمات ، ليضرب من ورائها الحرمات . وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة وسلام في ضمائرهم وفي سلام من الله . هكذا يروج الباطل بدعايته المضللة بشتى الأساليب الماكرة على الجماعة المسلمة أنها تعتدي وتنتهك الحرمات .. ومن قيادة الجماعة المسلمة يأتي لهم الأمر المطمئن (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عندالله والفتنة أكبر من القتل) وهكذا تطلق كلمة الحق . ولكن يراد بها باطل ، وهي مجرد ستار يحتمي الباطل خلفه لتشويه موقف الجماعة المسلمة ..

هكذا يعلمنا الله أن هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لا يقيمون للمقدسات وزنا ، ولا يتحرجون أمام الحرمات . ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ، ويؤذونهم أشد الإيذاء . ثم بعد ذلك يتسترون وراء الحرمات ويقيمون الدنيـا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات . فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟ إنه أن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح . بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح . ولا يتورعون عن سلاح . كلا . إن الإسلام لا يصنع هذا . لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه ، يريد أن يزيل البغي والشر . وأن يقلم أظافر الباطل ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة . ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة . ليرموا الطيبين الصالحين البناة وهم في مأمن من رد الهجمات . وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله .

الباب الرابع

أعداء الدين

ينبغي على الدعاة أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم ، فهذه نصف المعركة ، وإن التوجيهات الإلهية للجماعة الإسلامية ما تزال هي هي . قائمة اليوم وغداً وتبصر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق لإعادة نشأة الإسلام ولاستئناف حياة إسلامية في ظل الله .. تبصرها بطبيعة أعدائها ، وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب من الصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية . والشيوعية ، وتبصرها بطبيعة العقبات والأفخاخ المرصودة في طريقها ، وطبيعة الآلام والتضحيات ، والأذى والابتلاء . وتعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك . بما عند الله ويهون عليها الأذى والموت والفتنة في النفس والمال . وتناديها كما نادت الجماعة المسلمة الأولى . والقرآن هو القرآن ، كتاب هذه الأمة الخالد . دستورها الشامل وحاديها الهادي وقائدها الأمين . وأعداؤها هم أعداؤها .. والطريق هو الطريق .

إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب . ولم يكونوا يؤلبون عليهم الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ، إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها . كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات ، وتدبير المناورات . كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الايمانية التي انبثق منها كيانها ، ومنها قام وجودها فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين . وذلك أنهم

كانوا يدركون ، كما يدركون اليوم أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الايمان مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه ، حاملة لرايته ، منتسبة اليه ، معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الايمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة . إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة . وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات فانهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها .. ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة . ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال ، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور . وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة .. وسيظل اليهود والنصارى يحاربون المسلم ويكيدون له حتى يتخلى عن عقيدته (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم).

إنها العقدة الدائمة التي ترى مصداقها في كل زمان ، وفي كل مكان . إنها هي العقيدة .. هذه هي حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. إنها معركة العقيدة .. إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ، ولكن هؤلاء يلونونها بألوان شتى ، ويرفعون عليها أعلاما شتى في خبث ومكر وتورية . انهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين يواجهونهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة — على حقيقتها — خوفا من حماسة العقيدة

وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض . والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما اليها . وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت قديمة لا معنى لها ، ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها ، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين . ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها . بينما هم في قرارة نفوسهم — الصهيونية العالمية والصليبية العالمية بإضافة الشيوعية العالمية — جميعا يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي تطحوها طويلا فأدمتهم جميعا ..

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض . ولا الغلة . ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الراية المزيفة كلها . إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين ؛ ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها . فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ؛ ، ونحن نبعد عن توجيه الله وهو أصدق القائلين (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . (ودوا لو تكفرون) . والذي يذوق حلاوة الايمان بعد الكفر ويهتدي بنوره بعد الضلال . ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه ، وطمأنينة قلبه . يكره العودة إلى الكفر ، كما يكره أن يلقى في النار أو أشد . فعدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر . وقد خرج منه إلى جنة الايمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الايمان المعمور ..

إن أهل الكتاب يحاربون هذا الحق وأهله ، رغم أنهم يعلمون . أن كتاب الحق منزل من عند الله (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك) وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به ومن هذا الحق الذي يحتويه . وما يزالون — من أجل علمهم بهذا كله — يحاربون هذا الدين ويحاربون هذا الكتاب حربا لا تهدأ ..

وأشد هذه الحروب وأنكاها . هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب . إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكما حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة ألوهيات أخرى في

البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده ، يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ، ولا تشاركها شريعة أخرى . ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات . ويرجع اليها . ويستشهد بفقراتها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته . وأهل الكتاب من صليبين وصهيونيين من وراء هذا كله . ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة .

١ ــ لافتة إسلامية :

إن أعداء هذا الدين الراصدين لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية . وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء ، وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع (لافتة إسلامية) على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يُعدّونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعا . ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة ..

لقد أخطأوا مرّة أو مرات في إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات . وفي الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنقضة على الإسلام فيها .. وأقرب مثال لذلك حركة (أتاتورك) اللاإسلامية الكافرة في تركيا.. وكان وجه الاضطرار فيها هو حاجتهم الملحة إلى إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامي تحت راية العقيدة . ذلك المظهر الذي كان يتمثل في قيام الخلافة . وهو وإن كان مجرد مظهر . كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم(ينقض هذا الدين عروة عروة فأولها الحكم وآخرها الصلاة).

ولكن أولئك الأعداء الواعين . من أهل الكتاب والملحدين الذين لا يجتمعون إلا حين تكون المعركة مع هذا الدين . لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطرار في الكشف عن الوجهة اللاإسلامية الكافرة في حركة أتاتورك . حتى عادوا يحرصون

بشدة على ستر الأوضاع التالية المماثلة لحركة أتاتورك في وجهتها الدنيئة بستار الإسلام، ويحرصون على رفع اللافتة على تلك الأوضاع ـ وهي أشد خطرا على الإسلام من حركة أتاتورك السافرة ـ ويفتنون افتنانا في ستر حقيقة هذه الأوضاع ، التي يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ويهيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخابراتهم وبأدوات إعلامهم العالمية ، وبكل ما يملكونه من قوة وحيلة وخبرة .

ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها ، لتؤدي لهم هذه المهمة ، التي لم تنته فيها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا ، يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين . والسذج ممن يدعون أنفسهم مسلمين يخدعون بهذه اللافتة .. ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض . فيتحرجون من إنزالها عن الجاهلية القائمة تحتها . ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة .. صفة الشرك والكفر الصريحة .. ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك .

وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية ، مواجهة صريحة ، لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة . بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطرة لحركات البعث الإسلامي ، كما تقوم دون الوعي الحقيقي ، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية الحالية التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين .. هؤلاء السذج من الدعاة إلى الإسلام أخطر على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين .

إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان. والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون ، بقدر ما يمكن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتحرجون في غير تحرج ، ويقبلون أن يتترس

أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة . إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا .. وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف ، وإظهارها على حقيقتها .. شركاً وكفراً .. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم ، كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة . بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ، عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ، ليغير الله ما بهم ، من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون . وكل تحرّج في غير موضعه ، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات ، هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأية حركة إسلامية في الأرض جميعا . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات بعدما انكشفت حركة أتاتورك في التاريخ الحديث ، وباتت عاجزة عن السير خطوة واحدة ، بعد إلغاء آخر مظهر من مظاهر التجمع الإسلامي على أساس العقيدة ، نظرا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف الصريح .. مما دعا كاتبا صليبيا شديد المكر عميق الخبث مثل (ولفرد كانتول سميث) في كتابه الإسلام في التاريخ الحديث إلى محاولة تغطية حركة أتاتورك مرة أخرى ، ونفي الالحاد عنها ، واعتبارها أعظم وأصحّ حركة بعث إسلامي (كذا) في التاريخ الحديث ..

فما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض إلى أن يدركوا طبيعة المعركة . وحقيقة القضية ، فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تستتر بها أحزاب الشرك والكفر ، فانهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة مهما تنوعت العلل والأسباب ، فتقيم القيادات الضالة المضللة أصناما تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ، وتجمع حواليها الأتباع . وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام . كي توجههم من هذا الحطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد (وقد أضلوا كثيرا). ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام .

أصنام الأحجار وأصنام الأشخاص ، وأصنام الأفكار .. سواء للصد عن الدعوة لله ، وتوجيه القلوب بَعيداً عن الدعاة ، بالمكر ، والكيد والإصرار .

ومن خطط الكفر ضد أصحاب الايمان قوله يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النخيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والايمان ، يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة . ومناهضة الأديان (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وذلك أنهم لخسة مشاعرهم . يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة ، كما هي في حسّهم . فيحاربون بهـا المؤمنين ، وهي خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشُعب لينفضوا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلموه للمشركين .. وهي خطة المنافقين لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الجوع والضيق .. وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة ، وهي خطة غيرهم ممن يُحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي بالحصار والتجويع ، ومحاولة سدّ أسباب العمل والارتزاق .

٢ ــ خبث ومكر :

لقد كان من ثمرة اليأس من هذا الدين . حين كان أعداؤه يواجهونه وَجها لوجه . أن عدل اليهود الصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام عن طريق الشيوعية ، أو عن طريق التبشير . فَعدلوا إلى طرائق أخبث ، وإلى حبائل أمكر ..

لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزي الإسلام . وتتمسح في العقيدة ولا تنكر الدين جملة .. ثم هي تحت هذا الستار الخادع . تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكلات صهيون ، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل ..

إنّ هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام أو على الأقل تعلن احترامها

للدين بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله وتقصي شريعته عن الحياة ، وتحل ما حرم الله وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية ، وتسلط جميع أجهزة التوجيه والاعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية ، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية ، وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكلات الصهيونيين ، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع وجعلها فتنة للمجتمع باسم التطور والتحضر ، ومصلحة العمل والانتاج ، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف .. وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين اليها دفعا بالعمل والتوجيه .. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة . والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم ، وأنهم هم كذلك مسلمون .. أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون ؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده ، أو تكون للأرباب المتفرقة ، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الأعلام الموجهة ، وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين ، وفي دين الله ، بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين ..

وإمعانا في الخداع والتضليل ، وإمعانا من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي ، فإنها تثير حروبا مصطنعة — باردة أو ساخنة — وعداوات مصطنعة في شتى الصور ، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها ، والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة . تثير هذه الحروب المصطنعة ، والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة ، ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد من تدمير القيم والأخلاق ، وسحق العقائد والتصورات وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول .. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم .. وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكلات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين ، في غفلة من الرقباء والعيون . فإذا بقيت بقية في هذه الرقعه لم تجز عليها الخدعة ، ولم تستسلم

للتخدير باسم الدين المزيف ، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه ، ولوصف الكفر بأنه الإسلام ، والفسق والفجور والانحلال ، بأنه تطور وتقدم وتجدد..إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة،وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقا ، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الاعلام العالمية خرساء صماء عمياء ..

ذلك : بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية ، أو طائفية ، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين ، ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء — من تأخذه الحمية للدين منهم والأخلاق — بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة ، وإلى منكرات صغيرة ، ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملا بهذه الصيحات الخافتة .. بينما الدين كله يسحق سحقا ، ويدمر من أساسه ، وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون ، وبينما الطاغوت — الذي أمروا أن يكفروا به — هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلا ..

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحا بنجاح الخطة وجواز الخدعة : بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الالحاد ، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير ، فترة طويلة من الزمان.. ولخبثهم أحيانا ولتمرسهم في الحيل الماكرة وملابسات العصر الحديث قد لا يثنون ثناء مباشرا مكشوفا على الباطل وأهله ، بل يكتفون بتشويه الحق وأهله ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف في هذا الزمان أصبح متهما . وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين الذين يعملون لحسابهم في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان . بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله ، ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة .. ولكنهم لا يكفون عن تشويه الإسلام وأهله . لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي أضخم من أن يداروه ولو للخداع والتمويه ..إلا أن الأمل في الله أكبر . والثقة في هذا الدين أعمق ، وهم يمكرون والله خير

الماكرين وهو الذي يقول (وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مُخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام..) وهذه الاشارة الالهية إنما تتحقق للمسلمين يوم يكونوا مسلمين .. وليحاول المسلمون أن يُجربوا مرة واحدة أن يكونوا مسلمين ثم يروا بأعينهم نصر الله وتأييده .

٣ ــ تنكيل وإفناء :

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنّهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّة وأولئك هـــم المعتدون)..

ماذا صنع الطواغيت والمشركون مع نوح وهود وصالح وابراهيم .. عليهم صلوات الله وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم ثم ماذا صنع المشركون مع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به . إنّهم لم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة ، متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم ، وهذا يترك للقرآن الكريم ..

والواقع التاريخي الحديث يعطينا هذه الصورة . إنّ ما وقع من الوثنيين الهنود ، عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عمّا وقع من التتار في بغداد .. إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ــ ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء ــ قد وصل منهم الى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا في الطريق بعدما طلعت عليهم العصابات الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا، والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية . فذبحتهم كالخراف على طول الطريق وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة لا تقل ــ إن لم تزد ــ على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد ..

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين

المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان ، واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف .. ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر) وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار .. لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة القطار في النفق ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء وصدق قول الله سبحانه (كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة) وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى حتى الآن .
كذلك قامت العصابات الهندية بإبادة المسلمين ابادة تامة في ولايات (بهرات بور) و (الوار) و (كابورتالا) وكان عددهم في هذه الولايات على التوالي: ١١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠٠ و ٢١٣٧٠٤ فلم يعد أحد منهم يرى النور . ولقد بلغ قتلى المسلمين خلال المذابح التي جرت في شرقي البنجاب في شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ وفقاً لتعداد رسمي ٤٧٢,٠٠٠ نفس .. ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هنالك ؟ لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا .. بمعدل مليون في السنة ، وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق .. وذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لها الأبدان (وأماالبلاشفة فقد كتموا بمهارة خططهم السرية ، وحقيقة موقفهم من الدين ، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب — إلى حين تركيز القوة في أيديهم — بمظهر محبب إلى النفوس. وعلى أثر اطمئنانهم للموقف الخارجي ، بدأ الحزب الشيوعي ينشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم في أرجاء الاتحاد السوفيتي فعمدت هذه الخلايا الإلحادية إلى استئصال شأفة الدين ، أولا بالقضاء على القضاة والمفتين ، والمدرسين والوعاظ والخطباء والأئمة والمؤذنين . واحتلوا المدارس والجوامع ، والمساجد . وألغوا في القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء . وقد أصبح كل ذلك أثراً بعد عين . ثم حولوا المساجد والجوامع إلى مسارح واصطبلات لخيول فولخوز . أو مخازن لمؤن وذخائر ، أو إلى أندية ، أو إلى دور سينما ، وما إلى ذلك من أشياء لا

يقرهم عليها شرع ولا قانون . وقد جمّع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقا . لم يشهد الإنسان هذا الانحطاط الخلقي حتى في القرون الهمجية الأولى ، ونجت من أيدي الملحدين بعض الجوامع النادرة التي اعتبرت آثارا عمرانية ، أو أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند اللزوم دليلا ضد ما قد يتسرب إلى البلاد الخارجية من (أخبار مزورة وكاذبة) في نظرها . وبذلك انقطع الأذان المحمدي في أنحاء القرم . والبلاد الإسلامية السوفيتية ، ولا أحد يجرؤ على أداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه . (وصل الاضطهاد الديني في القرم ذروته عام ١٩٣٨ حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئا باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية ، وقلب المدارس والمساجد إلى مؤسسات شيوعية . وقتل العلماء والعظماء ، أو نفيهم إلى سيبيريا . وقد حدث في — كوزلو — أن اعتقل في ليلة من ليالي عام ١٩٣٨ آخر من بقي من العلماء ، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكي القوى إلى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطىء البحر الأسود ، واسمه (فودا قنال) ثم زجّوا بهم في سكون الليل وعلى الانفراد في عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصّة من قبل الإدارة الشيوعية . لتكون مذبحة للانسان في (الفردوس الشيوعي) على أرض القرم .

وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين إلى أوربا وتركيا وإلى غيرهما . هذه الصورة البشعة المروعة في القرم لاتبلغ بشاعة الصورة الوحشية التي تمثلت في التركستان الغربية والشرقية حيث يقطن — أو كان يقطن — أربعة وأربعون مليونا من المسلمين ، تناقص عددهم الآن على يد الإبادة السوفيتية الشنيعة إلى ستة وعشرين مليونا فقط .

فلندع كاتباً أخذ يُحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية التي سلطت على العنصر الإسلامي في التركستان الغربية الخاضعة لروسيا . والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية إسماً ولروسيا الشيوعية فعلا . إنه الاستاذ (عيسى يوسف آلب تكين) الذي قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة . ليكتب كتابه (المسلمون وراء الستار الحديدي) يحدثنا فيه عن(صور من التعذيب والقتل)

وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يتحرس ذكرها كل أدب إنساني ؛ مكتفين بما تطيق الآداب الانسانية أن نذكره للناس ..

وهذه هي : ١ — دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ .. ٢ — إحراق المسجون بعد صبّ البترول عليه وإشعال النار فيه .. ٣ — جعل المسجونين هدفاً لرصاص الجنود يتمرنون عليه .. ٤ — حبس المسجونين في سجون لا ينفذ اليها هواء ولا نور ، وتجويعهم إلى أن يموتوا .. ٥ — وضع خوذات معدنية على الرأس وامرار التيار الكهربائي فيها .. ٦ — ربط الرأس في طرف آلة ميكانيكية وباقي الجسم في ماكينة أخرى ، ثم تدار كل من الماكينتين في اتجاهات متضادة ، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر ، حتى يتمدد الجزء من الجسم الذي بين الآلتين ، فإما أن يقر المعذب وإما أن يموت .. ٧ — كيّ كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الاحمرار .. ٨ — صبّ زيت مغلي على جسم المعذب .. ٩ — دقّ مسمار حديدي أو ابر الجراموفون في الجسم .. ١٠ — تسمير الأظافر بمسمار حديدي حتى يخرج من الجانب الآخر.. ١١ — ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة . . ١٢ — اجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء . . ١٣ — نتف كتل من شعر الرأس بعنف ، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس . . ١٤ — تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حـــادة . . ١٥ — صبّ المواد الحارقة والكـــاوية في فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطـــاً محكماً . . ١٦ — وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه الى ظهره.. ١٧ — ربط يدي المسجون وتعليقه بهما الى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر.. ١٨ — ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة . . ١٩ — ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه ، ثم يقطع الجسم الى قطع بالسيف أو بالسكين . . ، ٢٠— احداث ثقب في الجسم وادخال حبل ذي عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل.. ٢١ — ولكي يضمنوا أن يظل المسجون واقفاً على قدميه طويلا يلجأون الى تسمير أذنيه في الجدار . . ٢٢ — وضـــع

المسجون في برميل مملوء بالماء في فصل الشتاء .. ٢٣ ـــ خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما الى بعض . . ٢٤ ـــ والنساء حظهن من مثل هذا العذاب انهن يعرين ويضربن ضرباً مبرحاً على ثديهن وصدورهن . أما بقيـــة تعذيب النساء فاننا نمسك عنه . لأن المواقع التي اختاروها من أجسامهن والطرق الدنيئة التي استعملوها تجعلنا نستحي من ذكرها وكتابتها) [١] .

وقبل أعوام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار . لقد جيىء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة في الطريق العام ، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والارهاب أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته . . وظلت العملية ثلاثة أيام ، والرجل يختنق بالحفرة على هذا النحو حتى مات . كذلك فعلت يوغسلافية الشيوعيـــة بالمسلمين فيها حتى أبادت منهم مليوناً ، من الفترة التي صارت فيها شيوعيـــة بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم ، وما تزال عمليات الابادة والتعذيب الوحشي التي من أمثلتها البشعة القاء المسلمين رجالا ونساء في مفارم اللحوم التي تصنـــع لحوم (البوبوليف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام . . ماضية الى الآن . وما يجري في يوغسلافية يجري في جميع الدول الشيوعيـــة والوثنية . . الان . . في هذا الزمان ويصدق قوله سبحانه (لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) انها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية . . حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله في كل زمان وفي كل مكان . .

ويكفي أن نذكر ما حدث في زنجبار حديثاً . حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم فقتل منهم اثنا عشر ألفاً . وألقي الأربعة آلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة . ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص حيث منع الطعـــام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعاً وعطشاً ، فوق

---

(١) فقرة من كتاب دراسات اسلامية .

ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في أريتيرية وفي قلب الحبشة ، وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون الى أصل صومالي ، ويريدون أن ينضموا الى قومهم المسلمين في الصومال . . .

ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين الى الاسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي هو جورج براون صدر عام ١٩٤٤ يقول فيه (لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعدالإختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر وبالخطر البلشفي. الا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا . وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفراء فهناك دول ديموقراطية كبرى تقاومها . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام ، وفي قوته على التوسع والاخضاع وفي حيويته . انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي).

٤ ــ طبيعة صامدة :

ان طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التلبيس . صلبة لا تقبل التميع ، والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة . . وهم من أجل ذلك يوجهون اليــه جهوداً لا تكل ، وحملات لا تنقطع ، ويستخدمون في تحريفه عن وجهته ، وفي تمييع طبيعته : كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب . .

هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض ، وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويُحلون ما حرَّم الله ، ويميعون ما شرعه ، ويباركون الفجور والفاحشة ، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه .

وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية ، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ، ليحاولوا زحلقة الاسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ،

ورفع شعاراتها ، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها . وهم يصورون الاسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى ، ولا يمكن اعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ، ليخدروا مشاعر المسلمين ، ثم ليقولوا لهم في ظل هذا التخدير . ان الاسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة ،لا شريعة ونظاماً ، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم . هذا والا فان على هذا الدين أن يتطور فيصبح محكوماً بواقع البشر ، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم الذي كان اسلامياً — نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين . لتحل محل ذلك — الدين القديم . وينزلون لها قرآناً يتلى ويدرس ، ليحل محل ذلك القرآن القديم وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخيرة ، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به فيحولون المجتمعات الى فتات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور . مشغول بلقمة العيش لا يجدها الا بالكد والعسر والجهد ، كي لا يفيق بعد اللقمة والجنس ليستمع الى هدى او يفيء الى دين .

انها المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التي تهدى به وتحاول ان تعدل به (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . . المعركة التي تستخدم فيها جميع الاسلحة بلا تحرج ، وجميع الوسائل بلا حساب ، والتي تجند لها القوى والكفايات واجهزة الاعلام العالمية ، والتي تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية والتي تكفل من اجلها أوضاعاً ما كانت لتبقى يوماً واحداً لولا هذه الكفالة العالمية . ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق — وعلى قلة العدد وضعف العدة — ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية . . والله غالب على امره .

٥ — تحذير :

ان الذي يكفر لا يستريح لوجود الايمان في الأرض ووجود المؤمنين . . .
ولا بد له من عمل وسعي ولا بد له من جهد وكيد ليرد المسلمين الى الكفر ...
وان طاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا

منفعة ، فيها الانقلاب الى الكفر . فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه ، يجاهد الكفر والكفار ويكافح الباطل والمبطلين . وإما أن يرتد كافراً والعياذ بالله . ومحال أن يقف سلبياً بين بين . محافظاً على موقفه ومحتفظاً بدينه . . انه قد يخيل اليه هذا . . انه يستطيع أن ينسحب من المعركة مع الباطل وان يسالمهم ويطيعهم وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وايمانه وكيانه . . وهو وهم كبير فالذي لا يتحرك الى الأمام في هذا المجال . لا بد أن يرتد الى الوراء .

والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان . لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه الى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان . والذي لا تعصمه عقيدته . ولا يعصمه ايمانه من طاعة الكافرين والاستماع اليهم . والثقة بهم يتنازل في الحقيقة عن عقيدته وايمانه منذ اللحظة الأولى (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) . . هذه عاقبتها الخسارة المؤكدة . . إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة الى أعداء عقيدته ، وأن يستمع الى وسوستهم ، وأن يطيع توجيهاتهم . . الهزيمة بادىء ذي بدء . فلا عاصم من الهزيمة في النهاية والارتداد على عقبيه الى الكفر . ولو لم يحس في خطواته الأولى ، أنه في طريقه الى هذا المصير البائس . . ان المؤمن يجد في عقيدته وفي نهجه غناء عن مشورة أعداء دينه . . فاذا استمع اليهم مرة فقد سار في طريق الارتداد على الاعقاب . . حقيقة فطرية . وحقيقة واقعية ينبه لها الله عز وجل ، وهو صاحب هذه الدعوة ينبه لها الدعاة والمؤمنين ، ويحذرهم وهو يناديهم باسم الايمان الذي ارتبطوا به عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم). وأخيراً . .

ان الذين يحاربون حقيقة الايمان أن تستقر في القلوب ، ويحاربون منهج الايمان أن يستقر في الحياة ويحاربون شريعة الايمان أن تستقر في المجتمع . . انما هم أعدى أعداء البشرية ، وأظلم الظالمين لها ، ومن واجب البشرية ، لو رشدت أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن الظلم الذي يزاولونه ، وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال . وهذا هو واجب الجماعة المسلمة الذي يندبها اليه ربها ، ويدعوها من أجله ، ويناديها دائماً . .

الباب الخامس

الدّعوة

١ — دستور الدعوة :

آ — ان القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة الحي ورائدها الناصح ، وأنه هو مدرستها ، التي تتلقى فيها دروس حياتها ، وان الله هو المربي . ولقد اراد الله سبحانه أن يكون هذا القرآن هو الرائد الحي الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لقيادة أجيال هذه الأمة ، وتربيتها واعدادها لدور القيادة الراشدة ، الذي وعدها به كلما اهتدت بهديه ، واستمسكت بعهدها معه ، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن ، واستعزت به ، واستعلت على جميع المناهج الأرضية الجاهلية . .

ان هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى ولكنه دستور شامل . دستور للتربية ، كما أنه دستور للحياة العملية . وقد تضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية من لدن آدم عليه السلام ، وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها . تجاربها في الأنفس ، وتجاربها في واقع الحياة ، كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها ، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم ، وذلك الرصيد المتنوع . .

ان هذا القرآن ينبغي أن يقرأ ، وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي .

وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية تتنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم . ولتنير الطريق الى المستقبل ، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل ؛ أو على أنه سجل تحقيقـــه مضى ولن يعود .. ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه ، لنتلمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة ، في يومنا وفي غدنا ، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة . .

ففي هذا القرآن نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة المسلمة ، وهو يصنعها على عينيه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبني في الضمير الشعور الحي بوجوده سبحانه معها في أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ، وحراسته لها من كيد أعدائها خفية وظاهرة ، وأخذها في حماه وكنفه وضمها الى لوائه وظله وتربية أخلاقها وعاداتها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي الى كنف الله ، وتنتسب اليه . وتؤلف حزبه في الأرض وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً .

ان هذاالقرآن أتى بتوجيهاته وأسسه لكي ينشأ الجماعةالمسلمة الأولى. وهذه التوجيهات والأسس هي ، هي ما تزال ضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان . وان المعركة التي خاضها القرآن ، هي المعركة ذاتها التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان . لا بل ان أعداءهاالتقليديين الذين كانوا يواجههم القرآن ، ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم . . هم هم .. ووسائلهم هي هي ، تتغير أشكالها بتغير الملابسات ، وتبقى حقيقتها وطبيعتها . وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها الى توجيهات هذا القرآن ، حاجة الجماعة المسلمة الأولى ، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح ، وادراك موقفها من الكون والناس الى ذات النصوص والتوجيهات ، وتجد فيها معالم طريقها واضحة . ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها ، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي . ودستورها الشامل الكامل الذي تستمد منه منهج الحياة ، ونظام المجتمع وقواعد التعامل في كل شيء . . وما يزال هذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار

الزمان ، لو رجعت الأمة المسلمة الى هذا المعين ، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن ، وجعلته منهجاً للحياة ، لا كلمات تغنى باللسان لتطرب الاذان .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ليواجه شكوك القلب البشري وانحرافاته وآفاته ، ويأخذ عليها المسالك ، ويعالجها بكل أسلوب . وفي أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة وللدعاة الى هذا الدين ، ويجب على الداعية أن يرجع الى القرآن دائماً . فيشعر أن ربه يؤويه الى كنفه ، ويمسح على آلامه ، ومتاعبه ، ويُهَدْهِدُه ، ويسري عنه ويهون عليه مشقة ما يلقي من عَنَت الجاهلية وسوئها وتطاولها.. فيفيض الله عليه بالثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة ..

انه خطاب الله للانسان في رحمة علوية نَدية يقول للناس : خذوا هذا ودَعوا ذاك . ها هوذا طريقي فاسلكوه . لقد تَعثّرت خطاكم فهاكم حَبلي لقد أخطأتم واثمتم فتوبوا وهـا هوذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تَشردوا بعيداً ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . وأنت يا فلان بذاتك وشخصك قلت كذا وهو خطأ ، ونويت كذا وَهو اثم . وفعلت كذا وهي خطيئة . فتعال هنا قدامي ، وتطهر وتُب ، وعُد الى حماي . وأنت يا فلان بذاتك وشخصك أمرُك الذي يعضلك هذا حله .. وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه، وعملك الذي عملت هذا وزنه ..

فالقرآن هو المدرسة الالهية .. انه من صانع القلوب ، وخالق كل شيء بقدر . من هذه المدرسة الالهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون .. تخلص نفوسهم لدعوة الله فلا تضن عليها بشيء .. ولا تحتجز دونها شيء ، لا الأرواح ولا الأموال ، ولا خلجات القلوب ، ولا ذوات الصدور . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض .. موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعتز بها وتسابق اليها هي القيم التي تثق في هذه الموازين ..

وان هذا القرآن لهو الفرقان بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى

والضلال . بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج . وبين عهد لبشرية وعهد .. فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير ، وصورتها الممثلة في الواقع . منهجا لا يختلط بأي منهج آخر ، مما عرفته البشرية ، ويمثل عهدا جديدا للبشرية في مشاعرها وفي واقعها فـ (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا).

ان هذا القرآن يبني عقيدة المسلم وتصوره وأخلاقه ومشاعره وأوضاعه ، الى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم ، ويحذر من كيدهم ومكرهم، ويوجههم الى المعركة معهم بقلوب مطمئنة وعيون مفتوحة، وارادات محشودة ، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء .. لقد كان في القرآن كل شيء .. وهو ما يزال فيه كل شيء ، يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في كل جبهة .. يخوضها في الضمائر والمشاعر ، حيث ينشأ فيها عقيدة جديدة ومعرفة بربها جديدة . وتصورا للوجود جديدا ، ويقيم فيها موازين جديدة ، وينشيء اليها قيما جديدة . ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية . ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع ، وينشيء ويبث ملامح الاسلام الوضيئة الجديدة .. ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج. وهي على أتم استعداد للقائهم والتفوق عليهم بمتانة بنائها الداخلي الجديد: الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء ..

ان التفوق الحقيقي للجماعة المسلمة على المجتمعات الجاهلية من حولها هو تفوقها في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي وذلك بفضل المنهج القرآني الرباني . قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو ماديا.. إنّ أعداء الجماعة الاسلامية دائما أكثر عددا وأقوى عدّة ، وأغنى مالا ، وأوفر مقدرات مادية على العموم . ولكن التفوق الحقيقي يكون في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي ، ومن ثم السياسي والقيادي الذي يؤسسه الاسلام بمنهجه الرباني .. وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية :. اجتاحها أولا في الجزيرة العربية ، واجتاحها ثانيا في الامبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله كسرى وقيصر.. ثم بعد ذلك في الجوانب الأخرى سواء،

كان معه جيش وسيف أم كان معه مصحف وقرآن . ولولا هذا التفوق الساحق ما وضعت تلك الخارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيرا .

وان اجتياح الجاهلية سيتم بهذا القدر دائما حين تتفوق الجماعة الاسلامية في كل زمان وفي كل مكان . تتفوق ببنائها الروحي والخلقي والاجتماعي ومن ثم السياسي والقيادي الذي ينشئه القرآن .. هكذا نجد هذا القرآن لا يُعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب . ولا يعلمهم الأخلاق والآداب فحسب . كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين .. انما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ، ويعرض كل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية . وان هذا القرآن لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وإلا فلا ايمان أصلا ولا اسلام .. ان هذا القرآن جاء ليربي الضمائر والأخلاق والعقول . كما أنه يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها وطبيعة طريقها . وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين .. وان الله عز وجل قد أعلن اكمال العقيدة واكمال الشريعة معا. فهذا هو الدين . فسبحانه يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا). وبهذا غدَا القرآن عدّة هذا الدين فهو كامل . وان شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان ، لأنها بشهادة الله شريعة هذا الدين الذي جاء به للانسان في كل زمان وفي كل مكان ، لا لجماعة من بني الانسان في جيل من الأجيال . في مكان من الأمكنة .. إنّ الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي ..

والمبادىء الكلية جاءت لتكون هي الاطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية الى آخر الزمان ، دون أن تخرج عليه ، الا أن تخرج من اطار الايمان . والله خلق الانسان ويعلم من خلق ؛ هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة . فلا يقول أن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم الا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الانسان وأطوار الانسان .. ويقف المؤمن امام ارتضاء الله الاسلام دينا للذين آمنوا يقف أمام رعاية الله وعنايته . والا فما أنكد وما أحمق من

يهمل أو يرفض ما رضيه الله له ، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله .. ان هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها ، وحادى طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها وعن جبلتهم .

ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها وتسمع توجيهاته ، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام .. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ، وحين اتخذت القرآن مهجورا وان كانت تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويذ ورقي وأدعية ، أصابها ما أصابها. فلقد غفلت الأمة عن هذا القرآن فسارت في طريق غير هذا الطريق . نزع منها قيادة البشرية ، وتركها هكذا ذيلا للقافلة .. فلنعد الى هذا القرآن الذي يصفه الله لنا (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم). ما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون .. ما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام في فترة من تاريخنا ثم خرجنا من السلام الى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا ، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا . وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا .. بينما نملك الدخول في السلم الذي منحه الله لنا في ظل القرآن حين نتبع رضوانه ونرضى لأنفسنا ما رضيه الله لنا .

وأخيرا ان هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك .. وفيه وحده الغناء في جهاد الأرواح والعقول ، وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى المشاعر طرقها ، وفيه ما يزلزل القلوب الجاسية ويهزها هزا لا تبقى معه على قرار .. لذلك ينبغي أن يكون هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة الذي يعتمد عليه الدعاة الى الله قبل الاتجاه الى أي مصدر سواه . والذي ينبغي لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس ، وكيف يوقظون القلوب الغافلة وكيف يحيون الأرواح الخامدة . ان الذي أوحى بهذا القرآن هو الله . خالق هذا الانسان العليم بطبيعة تكوينه ، الخبير بدروب نفسه ومنحنياتها .. وكما أن الدعاة الى الله يجب أن

أن يتبعوا منهج الله في البدء بتقرير ألوهية الله سبحانه وربوبيته وحاكميته وسلطانه . وانهم كذلك يجب أن يسلكوا الى القلوب طريق هذا القرآن في تعريف الناس بربهم الحق كيما تنتهي هذه القلوب الى الدينونة لله وحده والاعتراف بربوبيته المتفردة وسلطانه .

ب ــ الحياة في جو القرآن :

نَزّل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله صلّى الله عليه وسلم لينشىء به أمة وليقيم به دَولة ، ولينظم به مجتمعا ، وليربي به ضمائرا وأخلاقا وعقولا .. لقد كانت الأمة تتلقى هذا القرآن ؛ لتقرر وفق توجيهاته وتقريراته خطتها وحركتها .. ولتتخذ وفق توجيهاته مواقفها من الناس جميعا . فقد كان هذا الكتاب هو موجهها ومحركها ومرشدها . ومن ثم كانت تَغلب ولا تُغلب ؛ لأنها تخوض معركتها مع أعدائهـــا تحت القيادة الربانية المباشرة . وهذه القيادة الربانية وارشاداتها ما تزال . والذين يحملون دعوة الاسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الارشادات كأنهم يخاطبون بها اللحظة ، ليقرروا على ضوئها موقفهم من شتى طوائف الناس . ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء ، ومن شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القوانين والموازين . اليوم وغدا والى آخر الزمان ..

وان الله الذي أخرج هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس كان يعدّها لأمر عظيم هائل . كان يَعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض لتستقيم عليه . كما لم تستقم أمة قط . ولتقيمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط . ولم يكن بُدّ أن تُراض هذه الأمة رياضة طويلة . رياضة تخلعها أولاً من جاهليتها . وترفعها من سَفح الجاهلية الهابط وتمضي بها صعدا في المرتقى الصاعد الى قمة الاسلام الشامخة . ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها ، وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية . وتربية ارادتها على حمل الحق وتبعاته . ثم تنتهي بها الى تقييم الحياة جُملة وتفصيلا وفق قيم الاســـلام في ميزان الله . حتى تكون ربانية حقاً ، وحتى ترتفع بشريتها الى أحسن تقويم . فتزن النفس بميزان الله ؛ فحين ينتفش

الباطل فيراه الناس رابيا ، وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته .. ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله الى هذا الباطل المتنفش . فلا تضطرب يده ، ولا يزوغ بصره ، ولا يختل ميزانه . انما هو الحق . الحق المجرد، الا من صفته وذاته ، والا من ثقله في ميزان الله وثباته .

لقد ربّى الله هذه الأمة بمنهج القرآن حتى وصلت الى المستوى الذي تؤتمن فيه على دين الله . لا في نفوسهـــا وضمائرها فحسب ، ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض ، بكل ما يضطرب في هذه الحياة من رغبات ومطامع ، وأهواء ومشارب ، وتصادم بين المصالح ، وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دورا في النهاية ، هو اعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها وبمشاعرها واستجاباتها وبسلوكها وأخلاقها وبشريعتها ونظامها، لأن تقوم على دين الله في الأرض ولأن تتولى القوامة على البشر .

وحقق الله ما يريد بهذه الامة والله غالب على أمره ، وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين الله في واقع . وتملك البشرية أن تترسّمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله ..

لذلك يجب أن نعيش في جو القرآن . وان الحياة في جو القرآن ، لا تعني مجرد دراسته وقراءته ، والاطلاع على علومه.. ان هذا ليس جو القرآن . ان الحياة في جو القرآن ، هو أن يعيش الانسان في جو وفي ظروف وفي حركة وفي معاناة وفي صراع وفي اهتمامات .. كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن.. أن يعيش الانسان، في مواجهة هذه الجاهلية ، التي تعم وجه الأرض اليوم ، وفي قلبه، وفي همه وفي حركته. أن ينشىء الاسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته، وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية بكل تصوراتها وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي ، وكل ضغطها كذلك عليه وحربها له ومناهضتهـــا لعقيدته الربانية عن منهجها الرباني ، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة بعد الكفاح والجهـــاد والاصرار .. هذا هو الجو القرآني الذي يمكن ان يعيش فيه الانسان فيتذوق هذا القرآن .. فهو في مثل هذا الجو نزل ، وفي هذا الخضم

عمل .. والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن، مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه ..

وان الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي الا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها . وان هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ، ولا يعطي ثماره ، الا لقوم يؤمنون . ولقد وَرَدَ عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : كنا نؤتى الايمان قبل أن نؤتى القرآن، وهذا الايمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الادراك .. ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان . لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد حلاوة القرآن ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يجده الا الذين يؤمنون ايمان ذلك الجيل . ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم الى الايمان . لقد كان الايمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه الا الايمان . لقد عاشوا بهذا القرآن . وعاشوا له كذلك . ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر ـ بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى ـ في التاريخ كله .. اللهم الا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسيرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب لقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، فلم تشب نبعه الشائب الرائق شائبة من قول البشر ، اللهم الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه .. وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك .. ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان ، وان هذا القرآن هو الذي التقط الانسان من سفح الجاهلية ودَرَج به في المرتقى الصاعد الى القمة السامقة في يسر وفي رفق وفي لين .

وما أجدر الذين يُحاولون أداء ما أدّاه ذلك الجيل أن ينهجوا نَهجه فيعيشوا بهذا القرآن ، ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم ولا قلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان . ويجب أن نعرف أن هذا القرآن جاء ليعمل في كل جيل وفي كل بيئة ، وذلك دون الاخلال بالقاعدة الاصولية العامة : (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). وهذا القرآن هو ذاته الذي يواجه الجماعة الانسانية في أي طور من أطوارها . والمنهج الذي التقط الجماعة المسلمة من سفح الجاهلية ، هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة أيّاً كان موقفها على الدرج الصاعد حتى يبلغ بها الى

السامقة (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ..

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ويقيم لها نظاما فتحمله هذه الأمة الى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل . ومن ثم جاء القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم في الزمن الطويل . وبالتجربة العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الاعداد ، لا فقها نظريا ، ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني .. ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى ، تلقوه توجيها يطبق في واقع الحياة ، كلما جاءهم منه أمر أو نهي ؛ وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية ، كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والاساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية . تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم ، وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ؛ ومما مارسوه قبل أن يأتيهم القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه : كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .. ان هذا القرآن لا يتذوقه الا من يخوض مثل المعركة التي نزل معها القرآن ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل بها ليواجهها ويوجهها والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية ، لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئا في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيدا عن المعركة وبعيدا عن الحركة .. ان حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً وان سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله ، والدينونة للطاغوت من دون الله ...

ج ــ المنهج المحدد للدعوة في القرآن :

ان هذا القرآن ليرسي قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها ، ويرسم

المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم . فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن ... (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون). ان الدعوة دعوة الى سبيل الله ، لا لشخص الداعية ولا لقومه . والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة ، حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة ، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه . وبالموعظة الحسنة التي تدخل الى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف . لا بالزجر والتأنيب في غير موجب . ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو عن حسن نية . فان الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة . ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ . وبالجدل بالتي هي أحسن . بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن الى الداعي ، ويشعر أنه ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الاقناع والوصول الى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها . وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه الا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة ، وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأي ، وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها .

والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة . وأن الداعي لا يقصد الا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء اليها في سبيل الله . لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر . ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني الى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة في الجدل . انما هو البيان والأمر بعد ذلك لله ..

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . فأما اذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فان الموقف يتغير . فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله اعزازا لكرامة الحق . ودفعا لغلبة الباطل . على ألا يتجاوز الرّدّ على الاعتداء حدوده الى التمثيل والتفظيع فالاسلام دين العدل والاعتدال .. ودين السلم والمسالمة . انما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به). وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة . فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة، في حدود القصد والعدل، يحفظ لها كرامتها وعزتها . فلا تهون في نفس الناس ، والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ، ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها . والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الى الله والعزة لله جميعا . ثم هم أمناء على اقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية الى الطريق القويم . فكيف ينهضون بهذا كله ، وهم يُعاقَبُون، فلا يُعاقِبُون . ويعتدى عليهم فلا يردون؟ ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل فان القرآن الكريم يدعو الى العفو والصبر حين يكون المسلمون قادرين على على دفع الشر ، ووقف العدوان في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً . فأما اذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها فالقاعدة الأولى هي الأولى .. ولأن الصبر يحتاج الى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة فان القرآن يصله بالله ويزين عقباه (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .. واصبر وما صبرك الا بالله). فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه اليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في ردّ الاعتداء بمثله ، والقصاص له بقدره . ويوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون ، فانما عليه واجبه يؤديه . والهدى والضلال بيد الله وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها ، واتجاهاتها ، ومجاهدتها للهوى أو الضلال ، وألا يضيق صدره بمكرهم . فانما هو داعية الى الله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئا لنفسه .. ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ويبطىء عليه النصر لابتلاء

ثقته بربه . ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة (ان الله مع الذين اتقوا والذين هـم محسنون). ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون .. هذا هو دستور الدعوة الى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله ومن أصدق من الله .

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشىء مجتمعا ويقيم نظاما .. والتربية تحتاج الى زمن والى تأثر وانفعال بالكلمة ، والى حركة تترجم التأثر والانفعال الى واقع .. والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة وبقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . انما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتتدرج في مراقيه رويدا رويدا ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا . ولقد جاء القرآن بمنهج كامل شامل للحياة كلها .. وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحيّة للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها ونموها . ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق . جاء ليكون منهج تربية ، ومنهج حياة ، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة . أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، وتكليفا تكليفا ، جاء لتكون آياته هي الأوامر اليومية التي يتلقاها المسلمون ليعملوا بها فور تلقيها . ولقد حقق القرآن بمنهجه ذلك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقت وتأثرت به . فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة وكتاب تعبد للتلاوة فحسب ، لا منهج تربية للانطباع والتكيف ، ومنهج حياة للعمل والتنفيذ ، لم ينتفعوا من القرآن بشيء لأنهم خرجوا عن منهجه الذي رسمه العليم الخبير ..

د — منهج التلقي :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم) لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشيء في الأرض طريقها على منهج الله وحده متميزة متفردة ظاهرة . لقد انبثق وجودها

ابتداء من منهج الله لتؤدي في حياة البشرية دوراً خاصاً لا ينهض به سواها . لقد وُجدت لاقرار منهج الله في الأرض وتحققه في صورة عملية ذات معالم منظورة ، تترجم فيها النصوص إلى حركات ، وأعمال ومشاعر وأوضاع وارتباطات. وهي لا تحقق غاية وجودها ، ولا تستقيم على طريقها ولا تنشيء في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية المتميزة الا إذا تلقت من الله وحده . لا التلقي من أحد من البشر ، ولا اتباع أحد من البشر ، ولا طاعة أحد من البشر . إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف . هذا ما يؤكده القرآن ويكرره في شتى المناسبات . وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة . وهو التوجيه الدائم لهذه الأمة في كل جيل من أجيالها لأنه هو قاعدة حياتها بل قاعدة وجودها .

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية ، فكيف تتلقى اذن من الجاهلية التي جاءت لتبدلها ولتصلها بالله ولتقودها بمنهج الله ؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها اذن ، وليس وجودها في هذه الحال من غاية .. لقد وجدت الأمة المسلمة للقيادة .. قيادة التصور الصحيح والاعتقاد الصحيح ، والشعور الصحيح ، والخلق الصحيح والنظام الصحيح والتنظيم الصحيح .. وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول وأن تتفتح وأن تتعرف إلى هذا الكون ، وأن تعرف أسراره ، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته . ولكن القيادة الاساسية التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله ، وتوجهه لخير البشر . لا لتهديدهم بالخراب والدمار ، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات .. ينبغي أن تكون للايمان ، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة مهتدية فيها بتوجية الله ، لا بتوجيه أحد من عبيد الله . وان طاعة أهل الكتاب والكفار والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة ، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعداً في طريق النماء والارتقاء . وهو بذاته دبيب الكفر في النفس وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب ..

وان أهل الكتاب والمشركين لا يحرصون على شيء حرصهم على اضلال هذه الأمة من عقيدتها . فهذه العقيدة هي صخرة النجاة وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة . وأعداؤه يعرفون هذا جيداً ، يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً . ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة ومن قوة كذلك وعدة . وحين يعجزهم أنْ يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين ، وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم يجندون من المنافقين المتظاهرين بالاسلام ، أو ممن ينتسبون زُوراً إلى الاسلام جنوداً مجندة لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة ، من داخل الدار ، ولتصد الناس عنها ، ولتزين لهم مناهج غير منهجها ، وأوضاعاً غير أوضاعها ، وقيادة غير قيادتها .. ومن ثم هذا التحذير من القيادة الربانية (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) وما كان يفزع المسلم ما يفزعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الايمان وراجعاً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة . وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطاً يلهب الضمير ويوقظه بشدة لصوت النذير ..

ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون . هذا هو الطريق .. وليقف أمامه الدعاة (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) انه الاعتصام بالله وحده سبحانه الحيّ القيوم .. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشدد مع أصحابه رضوان الله عليهم في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج ، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي ولا بالنظام الاجتماعي ، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الانسان .. وفرق بين هذا وذاك بين . فمنهج الحياة شيء والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر .

والاسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الاسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل ابداع مادي في نطاق منهجه للحياة .. روى الامام

أحمد عن عبدالله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة .. ألا أعرضها عليك قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال عبدالله بن ثابت : قلت له ألا ترى ما وجه رسول الله عليه وسلم ؟ فقال عمر رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا . قال فسرى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » وفي بعض الأحاديث (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما الا اتباعي) ..

هذا هو هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولا ضير وفق روح الاسلام وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً مع ربطها بالمنهج الايماني : من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للانسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بما في خير البشرية وتوفير الأمن لها والرخاء وشكر الله على نعمة المعرفة ، ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية : شكره بالعبادة وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية .. فأما التلقي عن أهل الكتاب في التصور الايماني وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود ألانساني ، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها . وفي منهج الأخلاق والسلوك ايضاً .. أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم لأيسر شيء منه . وهو الذي حذر الله منه الأمة المسلمة عاقبته وهو الكفر الصراح .. وهذا توجيه الله سبحانه . وهذا هو هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون . فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم عن المستشرقين . وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ومن الفلاسفة والمفكرين : الاغريق والرومان والأوربيين والامريكان .. وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة . وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن الذي انتهت اليه الحضارة المادية المجردة من روح

الدين .. أي دين .. ثم نزعم والله اننا مسلمون ، وهو زعم أثمه أثقل من إثم الكفر الصريح. فنحن بهذا نشهد على الاسلام بالفشل والمسخ. ان الاسلام منهج ، وهو منهج ذو خصائص متميزة: من ناحية التصور الاعتقادي ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها. ومن ناحية القواعد الأخلاقية التي تقوم عليها هذه الارتباطات ولا تفارقها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها . فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية .. وما يتناقض مع طبيعة القيادة أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي .. ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء .. ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً . بل الأمر اليوم ألزم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت اليها ما تعاني . وليس هنالك منقذ الا هذا المنهج الالهي . الذي يجب أن يحتفظ بخصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى . لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية ، وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق بالنسبة للماضي ، وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة .. ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة . هل وجدت الطمأنينة . هل وجدت السلام ؟ .. كلا .. لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق . وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي ، وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج (رجعية) ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ .. وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة ، كما يقود خطاها إلى النمو والرقي .

ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو .. اننا نرى واقع البشرية النكد ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه ، ونرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاح تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق ، والمرتقى

الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع . ونرى أن قيادة البشرية ان لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الانسان ، ولكل معنى من معاني الانسان . وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى ، والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك .. وهذا ما أراده الله سبحانه أن يُلقنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم ، ولكل جماعة مسلمة في كل زمان وفي كل مكان .

٢ ــ طبيعة الدعوة :

ان طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري تستهدف الاسلام .. اسلام العباد لرب العباد ، واخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، باخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة ..

وفي هذا جاء الاسلام جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله ، كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس ، فيجب أن تكون السلطة التي تُنظم حياتهم هي السلطة التي تُنظم وجوده . والناس محكومون بقوانين فطرية من صُنع الله في نشأتهم ونُموهم وصحتهم ومرضهم وحياتهم وموتهم ، كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها وهم لا يملكون تغيير سنة الله بهم في هذا كله ، كما أنهم لا يملكون تغيير سُنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتُصرفه .. ومن ثم ينبغي أن يعودوا إلى الاسلام في الجانب الارادي من حياتهم فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون هذه الحياة تنسيقاً بين الجانب الارادي في حياتهم والجانب الفطري وتنسيقاً بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني ..

وليعرف الدعاة إلى هذا الدين أن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر ،

والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني ، والتصادم بين منهج الجانب الارادي في حياة الانسان والجانب الفطري . هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الاسلام لله وحده . والتي واجهها الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته ، والتي يواجهها الدعاة في كل زمان وفي كل مكان . ان هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في نظرية مجردة ، بل ربما أحياناً لم تكن لها نظرية على الاطلاق ، انما كانت متمثلة في تجمع حركي ، متمثلة في مجتمع خاضع لتصورات وقيم ومفاهيم ومشاعر ، وتقاليد وعادات ، وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل ، والتكامل والتناسق ، والولاء والتعاون العضوي الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك بارادة واعية أو غير واعية للمحافظة على وجوده ، والدفاع عن كيانه ، والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أي صورة من صور التهديد . ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو ، فان محاولة الغاء هذه الجاهلية ورد الناس إلى الله مرة أخرى لا يجوز ولا يجدي شيئاً أن تتمثل في نظرية مجردة ، فانها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي فضلا على أن تكون متفوقة عليها ، كما هو المطلوب في حالة محاولة الغاء وجود قائم بالفعل لاقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وفي جزئياته ... بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلاً .

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الاسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة شهادة أن لا اله الا الله ، أي افراد الله سبحانه بالالوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية افراده بها اعتقاداً في الضمير ، وعبادة في الشعائر وشريعة في واقع الحياة . ولا توجد فعلاً ، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جلياً حقيقياً ، يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم . ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية أن تعود

حياة البشر بجملتها إلى الله . لا يقضون هُم في أي شأن من شؤونها ، ولا في أي جانب من جوانبها من عند أنفسهم بل لا بدّ لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه ، وحكم هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يُبلغهم اياه ، وهو رسول الله ، وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الاسلام الأول ، شهادة أن محمداً رسول الله . هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثّل فيها الاسلام ويقوم عليها ، وهي تُنشىء منهجاً كاملاً للحياة ، حين تُطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية ، في داخل دار الاسلام وخارجها ، في علاقاته بالمجتمع المسلم ، وفي علاقة المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى ..

* ولكن الاسلام لم يكن يملك أن يتمثّل في نظرية مجردة ليعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ، ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً . فان وجودهم على هذا النحو مهما كثر عددهم لا يمكن أن يؤدي إلى وجود فعلي للاسلام ، لأن الأفراد المسلمين نظرياً الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية . سيتحركون طوعاً أو كرهاً ، بوعي أو بغير وعي لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده . وسيدافعون عن كيانه ، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه ، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا .. أي أن الأفراد المسلمين نظريا سيظلون يقومون فعلا بتقوية المجتمع الجاهلي الذين يعملون نظرياً لازالته ، وسيظلون خلايا حيّة في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ، وسيعطونه كفايتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ؛ وذلك بدل أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لاقامة المجتمع الاسلامي ... ومن ثم لم يكن بدّ أن تتمثل القاعدة النظرية للاسلام (أي العقيدة) في تجمّع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى .. لم يكن بُدّ أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي ، منفصل ومستقل عن التجمع

العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الاسلام الغاءه ، وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده في كل قيادة اسلامية تستهدف رَدّ الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ، وأن يتخلع كل من يشهد أن لا اله لا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع العضوي الحركي الجاهلي ، ومن قيادة ذلك التجمع في أية صورة كانت ، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة ومن اليهم ، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية ، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي وفي قيادته المسلمة .

هذه الحقيقة يجب أن تكون نيّرة للدعاة .. لم يكن بدّ أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الاسلام ولنطقه بشهادة أن لا اله الا الله وأنّ محمداً رسول الله ، لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق الا بهذا ، لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون له وجود ذاتي مستقل يعمل أعضاؤه عملاً عضويا كأعضاء الكائن الحي على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي ، تنظم تحركهم وتنسقها وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الاسلامي ، ولمكافحة ومقاومة وازالة الوجود الآخر الجاهلي . وهكذا وُجد الاسلام.. هكذا وُجِدَ مُتمثلا في قاعدة نظرية مجملة ، ولكنها شاملة يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ويواجه هذا المجتمع .. ولم يوجد قط في صورة نظرية مجردة عن هذا الوجود الفعلي ..فليعرف الدعاة الى هذا الدين أنه بهذا يمكن أن يوجد الاسلام مرة أخرى .

٣ ــ خطّ الدعوة :

ان الانسان ليأخذه الدهش والعجب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض ذلك الجهد الموصول من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه لهداية البشرية

الضالة المعاندة . ويتدبر ارادة الله المستقرة على ارسال هؤلاء الرسل واحداً بَعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة . وقد يعن للانسان أن يسأل : ترى هل تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة من لدن نُوح عليه السلام الى مُحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟ ترى هل تساوي تلك الجهود الموصولة منذ ذلك الزمن البعيد وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يُستهزأ بهم أو يُحرقون بالنار ، أو يُنشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأرض والديار ، حتى تجيء الرسالة الأخيرة فيجهد فيها محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الجهد المشهود المعروض ، هو والمؤمنون معه ، ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل .. ترى هل تساوي الحصيلة كل هذه الجهود وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق؟ ثم .. ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله المتجلية في استقرار ارادته سبحانه على ارسال الرسل تترى بعد العناد والاعراض والاصرار والاستكبار من هذا الخلق الهزيل المسمى بالانسان .

والجواب بعد التدبر : أن نعم .. وبلا جدال .. ان استقرار حقيقة الايمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد وكل هذا الصبر وكل هذه المشقة . وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل .. ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الانسان ذاته ، بل أكبر من الأرض ومـــا عليها ، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى ..وقد شاءت ارادة الله أن يخلق هذا الكائن الانساني بخصائص معينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولا الى الجهد الانساني ذاته . بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص ، ووكله الى ادراكه وجهده وارادته في تحقيق حقيقة الايمان في ذاته وفي نظام حياته . ولم يجبله على الايمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة ، أو يمحض للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كابليس . لسنا نعلم سَرّ هذا ولكننا نؤمن بأن

هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص ، واذن فلا بد من جهد بشري لاقرار حقيقة الايمان في عالم الانسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون اختارهم لاقرار هذه الحقيقة في الأرض لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية ومريرة وتضحيات شاقة نبيلة .

ان استقرار هذه الحقيقة في القلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله وأن يكون مستودعاً لسِرّ من أسراره ، وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقرير ، وهي حقيقة أكبر من الانسان ذاته ومن أرضه وسمائه ومن كل هذا الكون الكبير كما أن استقرار حقيقة الايمان في حياة البشر أو جماعة منهم معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية وارتفاعها الى المستوى الذي يُؤهلها لهذا الاتصال .

معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل . والمحدود الناقص بالكمـــال المطلق .. وهي حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل لأن تحققها ولو في هذه الصورة يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية تجاهد لتبلغ اليها طوال الأجيال .

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ الى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الايمان بالله فيها ، وان الحياة البشرية لم ترتفع الى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة ، وان الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الانسان سامقة . بل كانت حلما أكبر من الخيال ولكنه متمثل في واقع يحياه الانسان .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام الى المستوى الذي وصلت أو تصل اليه عن طريق

استقرار حقيقة الايمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم .

وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج ﷲ كامل ، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسالات الأولى أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة . والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الايمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر . لا علم ولا فلسفة ولا فن ولا نظام من النظم وانها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله . بل انحدرت قيمها وموازينها وانسانيتها ، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين، وعلى الرغم من توافر الراحة البدنية والمتاع العقلي وأسباب السعادة المادية بمجملها ولكنها لم تنل السعادة والطمأنية والراحة الانسانية أبداً ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الايمانية . ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة ولم تشعر بكرامة النفس الانسانية قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الاسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الانساني تنتهي حتما الى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق بدون تردد كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية ومن تضحيات نبيلة لاقرار حقيقة الايمان بالله في الأرض واقامة قلوب تنطوي على قبس من نور الله وتتصل بروح الله ، واقامة حياة انسانية يتمثل فيها منهج الله في الحياة وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم الى ذلك المستوى الرفيع الذي شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

* وستُعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد واخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعنة في الضلال . وستعذب الدعاة الى الحق أنواعا مختلفة من العذاب ، وتنكل بهم ألوانا شتى من

النكال ، كما ألقت ابراهيم في النار ونشرت غيره بالمنشار ، وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة الى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قبس من نور الله ويتصل بروح الله . ان هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح عليه السلام الى عهد محمد عليه أزكى السلام لينبيء عن استقرار ارادة الله على اطراد الدعوة الى حقيقة الايمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الايمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ، ولا ينكصون عنها ، وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذبها ويتحررون من ربقتها ، وهذا وحده كسب كبير أكبر من الجهد المرير ، كسب للدعاة وكسب للانسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يُسجِد الله الملائكة لهذا الكائن الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ولكنه يتهيأ بجهده هو ومحاولته وتضحيته لاستقبال قبس من نور الله كما يتهيأ لأن ينهض وهو الضعيف العاجز لتحقيق قدر الله في الأرض وتحقيق منهجه في الحياة ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة لاقرارها في حياة الآخرين وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع وحين يتحقق لروح الانسان هذا القدر من التحرر والانطلاق يهون الجهد وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله ..

ويجمع الله في الطريق أسرة النبوة كلها في ندوة واحدة تتلقى من ربها حديثاً واحداً ترتبط بها أرواحها وقلوبها وتتصل به طريقها ودعوتها . ويحس المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور (ما يُقال لكَ الا ما قَدْ قيلَ للرسل من قبلك). انه وَحْيٌ واحد ورسالة واحدة وعقيدة واحدة وانه كذلك استقبال واحد من البشرية وتكذيب واحد واعتراضات واحدة ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة وشجرة

واحدة وأسرة واحدة وآلام واحدة وتجارب واحدة وهدف في نهاية الأمر واحد . وطريق واصل ممدود . أي شعور بالانس والقوة والصبر والتصميم . توحيد هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين في طريق سار فيها من قبل نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد واخوانهم جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وأي شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يمضي وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك العصبة المختارة من بني البشر أجمعين . انها حقيقة (ما يُقَال لك الا ما قد قيل للرسل) ولكن أي آثار هائلة عميقة يُنشئها استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين ، وهذا ما يصنعه القرآن وهو يقرر مثل هذه الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب ...

ان دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسل بعده حتى وصلت الى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، هي دعوة واحدة من عند إله واحد ذات هدف واحد هو ردّ البشرية الضالة الى ربها ، وهدايتها الى طريقه ، وتربيتها بمنهاجه . وان المؤمنين بكل رسالة لأخوة للمؤمنين بسائر الرسالات كلهم أمة واحدة تعبد إلهاً واحداً وأن البشرية في جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله. وصنف المشاقين وهم حزب الشيطان بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون . هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الاسلام والتي يقررها القرآن (وقولوا : آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر على أن تكون مجرد علاقة أم أو نسب أو جنس أو وطن أو تبادل أو تجارة ، يرفعها القرآن الكريم عن هذا كله ليصلها بالله . ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان وتختفي فيها القوميات والأوطان . يتلاشى فيها الزمان والمكان ، ولا تبقى الا العروة الوثقى بالخالق الديان ..

٤ ــ تبعة ثقيلة :

ان الايمان حقيقة ايجابية متحركة . ما إنْ تستقر في الضمير حتى تسعى

بذاتها الى تحقيق ذاتها في الخارج ، في صورة عمل صالح ودعوة الى الله ، هذا هو الايمان الاسلامي .. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدّى في صورة حية خارج ذات المؤمن . فان لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فالدعوة الى الله تنبعث من ايمان المؤمن بدينه وشريعته انبعاثاً طبيعيا والا فالايمان غير موجود .. ومن هنا تبدو قيمة الايمان .. انه حركة وعمل ودعوة وبناء وتعمير يتجه الى الله ، انه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير ، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الاسلام التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة ، والدعوة الى دين الله هي من بديهيات الايمان ، وهذه لفتة القرآن (قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا الا **بلاغا من الله ورسالاته)**. هذه هي القولة الرهيبة التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر ، أمر الرسالة والدعوة، والرسول صلى الله عليه وسلم يُؤمر باعلان هذه الحقيقة الكبرى ، اني لن يُجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملجئاً أو حماية الا أن أبلغ هذا الأمر وأؤدي .. يا للرهبة .. ويا للروعة .. وياللجد أن الدعوة ليست تطوعا يتقدم بها صاحب الدعوة انما هو التكليف الصارم الجازم الذي لا مفرّ من أدائه فالله من ورائه ، وانها ليست اللذة الذاتية في حمل الخير والهدى للناس ، انما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التفلت منه ولا التردد فيه . وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد . انها تكليف وواجب ووراءه الهول ووراءه الجد ووراءه الكبير المتعال .. وليعرف الدعاة أن أمامهم واجبا ثقيلا لأنهم أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو حُجّة الله على الناس .

فلا فكاك من التبعة الثقيلة : تبعة اقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا . الا بالتبليغ والاداء على ذات المنهج الذي بلّغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدّى . فالرسالة هي الرسالة ، والناس هم الناس ، وهناك ضلالات وشبهات وشهوات وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة . والموقف هو الموقف ، والعقبات هي العقبات ، والناس هم الناس . ولا بد من بلاغ . ولا بد من أداء ، بلاغ

بالبيان وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حيّة واقعية عما يبلغون . وبلاغ بازالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة وتفتن الناس بالباطل وبالقوة. وإلا فلا بلاغ ولا أداء . انه الأمر المفروض لا حيلة في النفوس عن حمله(لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)وإلا فهي التبعة الثقيلة ، تبعة ضلال البشرية كلها وشقوتها في هذه الدنيا وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة . وحمل التبعة في هذا كله وعدم النجاة من النار . فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة ؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل . إنّ الذي يقول انه مسلم . اما أن يُبلغ ويؤدي هكذا ، وإلا فلا نجاة له في الدنيا ولا في الآخرة . انه حين يقول انه مسلم ثم لا يبلغ ولا يؤدي كل ألوان البلاغ والأداء هذه إنّما يؤدي شهادة ضد الاسلام الذي يدعيه بدلاً من أداء شهادة له تتحقق في قوله تعالى (وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

وتبدأ شهادته للاسلام من أن يكون هو بذاته ثم ببيته وعائلته ثم بأسرته وعشيرته ، صورة واقعية من الاسلام الذي يدعو اليه ، وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة الى تحقيق الاسلام في حياتها كلها . وتنتهي شهادته بالجهاد لازالة العوائق التي تضلل الناس وتفتنهم من أي لون كانت هذه العوائق . فاذا استشهد في هذا فهو اذن شهيد ، أدّى شهادته لدينه ومضى الى ربه . وهذا هو وحده هو الشهيد . ان المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين ، شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء . وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر . وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلا رفيعا . يشهد لهذا الدين بالاحقية في الوجود وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وتشكيلات ، (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) . والمسلم لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ونظام مجتمعه وشريعة نفسه وقومه ، فيقوم مجتمعه من حوله تدبر أموره وفق هذا المنهج الالهي القويم .. وجهاده لقيام هذا المجتمع وتحقق هذا المنهج وايثاره الموت في سبيله على

الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية . هو شهادة بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء ، ومن ثم يُدعى شهيدا . انها وقفة أمام هذه الحقيقة ، فمن لم يُؤَدّ هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما اذا ادعى الاسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الاسلام أو حاولها في نفسه ولكنه لم يؤدها في المجال العام ولم يُجاهد لاقامة منهج الله في الحياة ايثاراً للعافية وايثاراً لحياته على حياة الدين فقد قَصّر في شهادته وأدى شهادة ضد هذا الدين شهادة تصد الآخرين عنه وهم يَرون أهله يشهدون عليه لا لَه ، وويل لمن يَصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه . انه مؤمن بهذا الدين وما هو من المؤمنين ...

انها الأمانة للشهادة لهـــذا الدين .. الشهادة في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له ، ترجمة حَيّة في شعورها وسلوكها حتى يرى الناس صورة الايمان في هذه النفس فيقولوا ما أطيب هذا الايمان وأحسنه وأزكاه . وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس . يتأثر بها الآخرون . والشهادة له بدعوة الناس اليه وبيان فضله ومزيته بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية ، فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للايمان في ذات نفسه اذا هو لم يدع اليها الناس كذلك وما يكون قد أدّى الدعوة والتبليغ والبيان . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة اقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة ومنهجا للبشرية جميعا ، المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فاقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات بعد الايمان الذاتي ، ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة ومن ثم فالجهاد ماض الى يوم القيامة على هذا الأساس .

ان حمل أمانة العقيدة والشريعة يقتضي فيها الادراك والفهم والفقه وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع ، ولكنْ هناك صورة زرية بائسة ، ومثل سيء شائن ، ولكنها معبرة عن حقيقة صادقة عن الذين كُلّفوا بحمل الأمانة فلم يَحملوها ، كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام وليس له فيها الا

ثقلها فهو ليس صاحبها وليس شريكا في الغاية لمنها (مثل الذين حُمّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) : ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين عبرت بهم أجيال كثيرة والذين يعيشون في هذا الزمان . وهم يحملون أسماء مسلمين . ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب وهم لا ينهضون بما فيها أولئك كلهم كالحمار يحمل أسفارا وهم كثيرون كثيرون . فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . انما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

٥ ــ منهج الدعوة :

ان الداعية . داعية الى الله (وداعياً الى الله) .. لا الى دنيا ولا الى مجد . ولا الى عزة قومية . ولا الى عصبية جاهلية . ولا الى مغنم . ولا الى سلطان أو جاه . ولكن داعياً الى الله في طريق واحد يصل الى الله باذنه (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيرا) فالدعوة دعوة الى الله (وادع الى ربك) .. دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة الى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية . لا لمصلحة ولا لمغنم . ولا لتملق هوى . ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها . ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق . وان الدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة . ومن يعتنقوها ليقودوا بها الاتباع . ومن يعتنقونها ليحققوا بها الاطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تُشتَرى منهم وتُباع . انما تقوم الدعوات بالقلوب التي تتجه الى الله خالصة له . لا تبغي جاها ولا متاعا ولا انتفاعا . انما تبغي وجهه وترجو رضاه . ويجب ألا نغفل عن هذه الحقيقة البسيطة التي كثيرا ما ننساها وهي أنّ الناس هم الناس والدعوة هي الدعوة والمعركة هي المعركة . انها أولاً وقبل كل شيء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص في داخل النفس . ثم هي معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان في واقع الحياة . والمعركة بطرفيها لا بدّ من خوضها . ولا بدّ القائمين على الجماعة المسلمة في الأرض من مواجهتها بطرفيها كما واجهها القرآن أول

مرة وواجهها الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا بد من الأخطاء والعثرات . ولا بُدّ من ظهور الضعف والنقص في مراحل الطريق . ولا بدّ من المضي أيضاً في علاج الضعف والنقص كل ما أظهرتهما الأحداث والتجارب ، ولابُدّ من توجيه القلوب الى الله بالأساليب التي اتبعها القرآن في التوجيه .

ويُوجه الله توجيهاً حاسماً لبيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة (واما نُرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

ان الدعاة الى الله ليس عليهم الا أن يؤدوا تكاليف الدعوة في كل مراحلها ، وليس عليهم أن يبلغوا بها الا ما يشاؤه الله ، كما أنه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة اذا رأوا قدر الله يبطىء بهم عن الغلب الظاهر والتمكين في الأرض . انهم دعاة وليسوا الا دعاة .. بذلك يتعلم الدعاة الى الله أن يتأدبوا في حق الله ، انه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر ، ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعيده للمهتدين والمكذبين .ليس لهم أن يقولوا دعونا كثيرا . فلم يستجب لنا الا القليل .أو لقد صبرنا طويلاً فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء ..

ان عليهم الا البلاغ أما حساب الناس في الدنيا أو في الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد انما هو من شأن الله . فينبغي تأدبا في حق الله واعترافا بالعبودية له أن يترك له سبحانه يفعل فيه ما يشاء .. وانه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو المستهتر الفاسد أو الملحد الكافر ، ممكنا له في الأرض ، غير مأخوذ من الله .. لكن الناس انما يستعجلون .. انهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق ، ونهاية الطريق لا ترى الا بعد أن تجيء .. لا ترى الا مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجه الى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون في حياتهم الفردية القصيرة نهاية الطريق فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق .. وهذا هو القرآن يقرر في كثير من جوانبه الحقيقة (فأهلكناهم بذنوبهم)..

وان صاحب الدعوة لا يجوز أن يُعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الايمان (اتبع ما أوحي اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين) . هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يُحدد الله المجال الذي يتناوله اهتمام الرسول وعمله . كما يُحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة الى دينه في كل الأرض . في كل جيل . يجب أن يفرغ قلب صاحب الدعوة ويوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا فهؤلاء في حاجة الى بناء كيانهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها . قاعدة العقيدة .. وفي حاجة لانشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفي حاجة الى بناء أخلاقهم وسلوكهم وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه . وهذا كله يحتاج الى الجهد ويستحق الجهد . فأما الواقفون على الشق الآخر فجزاؤهم الاهمال والاعراض بعد الدعوة والبلاغ وحين ينمو الحق في ذاته فان الله يُجري سنته فيقذف بالحق على الباطل فيقذفه فاذا هو زاهق .. ان على الحق أن يوجد . ومتى وُجد في صُورته الصادقة فان شأن الباطل هين وعمره كذلك قريب ..

والمؤمنون وحدة منفصلة عمن سواهم . متضامنون متكافلون فيما بينهم . فعليهم أنفسهم . عليهم أنفسهم ليزكوها ويطهروها .. وعليهم جماعتهم فليلتزموها ويرعوها . ولا عليهم أن يَضل غيرهم اذا هم اهتدوا . فهم وحدة منفصلة عمن سواهم وهم أمة متضامنة فيما بينها بعضهم أولياء بعض (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضَلَّ اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) ..

وان هذه الآية تقرر مبادىء أساسية في طبيعة الأمة المسلمة وفي طبيعة علاقاتها مع الآخرين . ان الأمة المسلمة هي حزب الله . ومن عداها فهم حزب الشيطان ومن ثم لا يقوم بينها وبين الآخرين ولاء ولا تضامن لأنه لا اشتراك في عقيدة ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ولا اشتراك في تبعة أو جزاء ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم الى الهدى . والهدى هو دينها . وشريعتها نظامها . ان كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام

الله ، لا يضرها من ضل اذا اهتدت ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها ، ثم في الأرض جميعا ، وأول المعروف : الاسلام لله وتحكيم شريعته وأول المنكر : الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه ، ان هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ، وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه ، وتعبيد الناس شريعة غير شريعته وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ، ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم ، ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وانكم تضعونها على غير موضعها واني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ان الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله أن يعمهم بعقابه) وهكذا صحح الخليفة الأول ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة ، ونحن اليوم أحوج الى هذا التصحيح لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق ، فما أيسر ما يلجأ الضعاف الى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ويريحهم من عنت الجهاد وويلاته . وكلا والله ان هذا الدين لا يقوم الا بجهد وجهاد ولا يصلح الا بعمل وكفاح ولا بدّ لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس اليه واخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ولتقرير ألوهية الله في الأرض ولردّ المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ولاقامة شريعة الله في حياة الناس واقامة الناس عليها . لا بُدّ من جهد بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين يحتاجون الى الارشاد والانارة ، وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى وتعطل دين الله أن يوجد . وتعوق شريعة الله أن تقوم . وبعد ذلك تسقط التبعية عن الذين آمنوا وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء الى الله (الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وان الله عز وجل يقرر حقيقة في منهج الدعوة وهي أن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . انه من أمر الله وحده فهذه القلوب من صنعه ولا يحكمها غيره ولا يصرفها سواه ولا سلطان لأحد عليها الا الله . وما على الرسول الا البلاغ . فأما الهدى فهو بيد الله يعطيه من يشاء ممن يعلم سبحانه أنه يستحق الهدى ويسعى اليه . واخراج هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التي لا بدّ أن تستقر في حسّ المسلم ليتوجه في طلب الهدى الى الله وحده وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده . ثم هي تفسح في احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم ويعطف عليهم ويرتقب اذن الله لقلوبهم في الهدى وتوفيقهم اليه بمعرفته حين يريد (ليس عليك هُداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فلتفسح لهم صدرك ولتفض عليهم سماحتك ، ولتبذل لهم الخير والعون ما احتاجوا اليه منك وأمرهم الى الله . ان ما على الداعية الا التبليغ وليس له ردّ طبيعتهم التي لا حيلة له فيها وانطماس بصيرتهم (فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهكذا يصور الله موتى لا حياة فيهم . صما لا سمع لهم . عميا لا يهتدون طريق . والذي ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه . ميت لا حياة فيه . انما هي حياة حيوانية بل هو أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه والذي لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات والذي لا يبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود ولو كانت له عينان كالحيوان . أما الذين يسمعون الدعوة فهم أصحاب القلوب الحية والبصائر المفتوحة والادراك السليم . فهم يسمعون فيسلمون ولا تزيد الدعوة أن تنبه فطرتهم فتستجيب ف(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ان الكلمة الهادية لا يتشربها الا القلب المؤمن المفتوح للهدى ، والعظة البالغة لا ينتفع بها الا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها . والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل وبالهدى والضلال .

ان الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج الى بيان طويل انما

تنقص الناس الرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه . وان النصيحة لتثقل على نفوس الاشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسبون النصيحة نقصا لأقدارهم . ان الصغير هو الذي يبعد يدك عنه التي تمتد لتساندة . ليظهر أنه كبير ..

ليس للداعية الا التبليغ والبيان . وان الله هو الذي يتصرف في الأمر كله ، فليس على الداعية الا أن يمضي وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئا حتى ولو كان هو النبي الرسول .. انه ليس الذي ينقص الذين يلجون في الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين ، انما الذي ينقصهم آفة في القلب وعطل في الفطرة وانطماس في الضمير .

٦ – نقطة البدء

ان نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الاسلام أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان العام لتحرير الانسان .. هذه نقطة البدء التي يتجب أن يقف أمامها الدعاة . أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيعبدون الله .. وحقيقة العبادة لو كانت هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تتعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان . انما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو اخراج البشر جملة من الدينونة للعباد وردهم الى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء .

إن توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد القوامة وتوحيد الحاكمية وتوحيد مصدر الشريعة وتوحيد منهج الحياة وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة

الشاملة .. إنَّ هذا التوحيد هو الذي يُستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرُسل وأن تُبذل في سبيله كل هذه الجهود ، وأن تتحمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن الله سُبحانه في حاجة اليه . فالله سبحانه غَني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تُصبح حياة لائقة بالانسان الا بهذا التوحيد الذي لا حَدَّ لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء .

ننظر ابتداء الى أثر حقيقة التوحيد في كيان الكائن الانساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي وحاجته الفطرية وتركيبه الانساني أثرها في تصوره وأثر هذا التصور في كيانه : إنَّ هذا التصور اذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل بكل معاني الشمول يُخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها و بكل أشواقها و بكل حاجاتها و بكل اتجاهاتها و يردُها الى جهة واحدة تتعامل معها جهة تطلب عندها كل شيء وتتوجه اليها بكل شيء . جهة واحدة ترجوها وتخشاها ، وتتقي غضبها وتبتغي رضاها جهة واحدة تملك لها كل شيء لأنها خالقة كل شيء ومالكة لكل شي ومُدبرة كل شيء ... كذلك يرد الكينونة الانسانية الى مصدر واحد . تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها ، وشرائعها وقوانينها . وتجد عنده اجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والانسان بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام ... عندئذ تتجمع هذه الكينونة تتجمع شعوراً وسلوكاً وتصوراً واستجابةً . في شأن العقيدة والمنهج . وشأن الاستعداد والتلقي . وشأن الحياة والموت وشأن السعي والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتفرق مزقاً ولا تتجه الى شتّى السُبل والآفاق ولا تسلك شتّى الطرق على غير اتفاق ...

والكينونة الانسانية حين تتجمع على هذا النحو . تصبح في خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ في حالة الوحدة التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها .. فالوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه والوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال ، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع

والأجناس والوحدة هي حقيقة الانسان على تنوع الأفراد والاستعدادات والوحدة هي غاية الوجود الانساني وهي العبادة على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها . وهكذا حيثما بحث الانسان عن الحقيقة في هذا الوجود .

وحين تكون الكينونة الانسانية في الوضع الذي يطابق الحقيقة في كل مجالاتها تكون في أوج قوتها الذاتية وفي أوج تناسقها كذلك مع حقيقة هذا الكون الذي تعيش فيه وتتعامل معه ومع حقيقة كل شيء في هذا الوجود مما تتأثر به وتؤثر فيه .. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشىء أعظم الآثار وأن تؤدي أعظم الأدوار .. وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الانساني وفي كيان التاريخ الانساني .. وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى وهي لا بد كائنة باذن الله سيصنع الله بها الكثير مهما يكن في طريقها من العراقيل ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشىء قوة لا تقاوم لأنها من صميم قوة هذا الكون وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون .. ان هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الايماني . وان كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق فقيمة الحياة الانسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ؛ وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءاً من هذه العبادة أو كل العبادة ، متى نظرنا الى المعنى الكبير الكامن فيه وهو افراد الله سبحانه بالالوهية والاقرار له وحده بالعبودية .. هذا المقام الذي لا يرتفع الانسان الى ما هو أعلى منه ولا يبلغ كماله الانساني الا في تحقيقه .. وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى اليها .. مقام تلقي الوحي من الله ومقام الأسراء أيضا . (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) .

ونتنقل الى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة لله وحده وآثارها في

الحياة الانسانية : ان الدينونة لله تُحرر البشر من الدينونة لغيره وتُخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وبذلك تُحقق للانسان كرامته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك، اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية في صورة من صورها الكثيرة .. سواء عبودية الاعتقاد أو عبودية الشعائر أو عبودية الشرائع .. فكلها عبودية وبعضها مثل بعض تُخضع الرقاب لغير الله باخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله . والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين . لا بد للناس من دينونة .

والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة .. انهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط . ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) ولا يخسر الانسان شيئا كأن يخسر آدميته ويندرج في عالم البهيمة وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة ...

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد .. يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم ، لا ضابط لها ولا هدف الا حماية مصالح المشرعين أنفسهم سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم أو في طبقة حاكمة أو في جنس حاكم . فالنظرة على المستوى الانساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده ولا يتقيد بشريعة الله لا يتعداها .. ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين ..

فهذه هي الصورة الصارخة ، ولكنها ليست هي كل شيء ان العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة . ونضرب مثلا لهذا تلك العبودية لصانعي الموضات والأزياء مثلا . أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جدا من البشر؟ كل الذين يسمونهم متحضرين .. إن الزي المفروض من آلهة الأزياء سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات ..

الخ . ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي أو لجاهلية أن يفلت منها ، أو يفكر في الخروج عنها. ولو دان الناس في هذه الجاهلية الحضارية لله بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عباداً متبتلين .. فماذا تكون العبودية إنْ لَم تكن هي هذه ؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية ان لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضا ؟...

وان الانسان ليُبصر أحيانا بالمرأة المسكينة وهي تلبس ما يكشف عن سوآتها وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها . وتصنع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثاراً للسخرية . ولكن الالوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها رداً ، ولا تقوى على رفض الدينونة لها لأن المجتمع كله من حولها يدين لها .. فكيف تكون الدينونة ان لم تكن هي هذه ؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية ان لم تكن هي تلك ؟.. وليس هذا إلا مثلاً واحداً للعبودية المذلة حين لا يدين الناس لله وحده وحين يدينون لغيره من العبيد .. وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر ولعبودية البشر للبشر ...وهذا يقودنا الى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد في صورة من صور الدينونة .. سواء في حاكمية التشريع أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد وفي صورة حاكمية الاعتقاد والتصور .. هذه هي الحقيقة ..

هكذا تصنع الجاهلية بالناس .. هكذا تمسخ فطرتهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقيا وحضارة وتجديدا . ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن (رجعيات).(تقليديات).(ريفيات).. المسخ هو المسخ.. والانتكاس عن الفطرة .وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدي الله ؟ انها تسميهم الضالين . وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضى والقبول . أجل من يهتدي الى المستنقع الكريه والى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية

فيه . وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف لحمها ، وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ انها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما ، رجعية وتخلفاً وجموداً وريفية . وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والاعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه ، في المستنقع الكريـــه ..

ان الجاهلية هي الجاهلية فلا تتغير الا الأشكال والظروف . إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف . هذا الاستعباد الذي يسلب الانسان خصائص الانسان ، ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيدمن أمثاله . ان مشركي اليوم ومشركاته يتلقون هذه الأزياء عن الأرباب الأرضية..

ان بيوت الأزياء ومصمميها وأساتذة التجميل ودكاكينها لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك.. ان هذه الأرباب تصدر أوامرها فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية . وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح فهي تطيع صاغرة.. تطيع تلك الأرباب . والا عيرت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها .. ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ، ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص والمجلات والصحف التي تقود هذه الحملة المسعورة .. وبعضها يبلغ في هذا الى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخورا متنقلا للدعارة؟ من الذي يقبع وراء هذا كله ؟ الذي يقبع وراء هذا كله ، وراء هذه الأجهزة كلها في العالم كله . يهود .. يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ، ويبلغون أهدافهم كلها من اطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان .. أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار واشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه ، وافساد الفطرة البشرية وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل وأدوات الزينة ، وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا الشعار وتغذيه .

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة .. انها ترتبط بالعقيدة وبالشريعة بأسباب شتى : انها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية وتحديد الجهة التي تُشرع للناس في هذه الأمور ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة . كذلك تتعلق بابراز خصائص الانسان في الجنس البشري ، وتغليب الطابع الانساني في هذا الجنس على الطابع الحيواني ..

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق، وتجعل العري الحيواني تقدماً ورقياً ، والستر الانساني تأخراً ورجعية . وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الانسان وخصائص الانسان .. وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون ما للدين والزي ؟ ما للدين وملابس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان .. ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الاسلام لارتباطها أولا بقضية التوحيد والشرك ، ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الانسان ، وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية وتحرص على سترها ومواراتها ..والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء ومن الله ومن الناس . والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والاعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة هم الذين يريدون سلب الانسان خصائص فطرته وخصائص انسانيته التي بها صار انساناً ، وهم الذين يريدون اسلام الانسان لعدوه الشيطان ، وما يريده من نزع لباسه وكشف سوآته ، وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الانسانية واشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة . وقدفقدت مقوماتها الانسانية ..

ان العري فطرة حيوانية ولا يميل الانسان اليه الا وهو يرتكس الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان .. وان رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري طبعاً .. والمتخلفون في أواسط أفريقيا عراة . والاسلام حين يدخل بحضارته الى هذه

المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة . فأما في الجاهلية الحديثة (التقدمية) فهم يرتكسون الى الوهدة التي ينتشل الاسلام المتخلفين منها وينقلهم الى مستوى الحضارة بمفهومها الاسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الانسان ، والعري هو النكسة والردة الى الجاهلية ..

ان الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها ، وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال وأحيانا من الأولاد تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الارباب من السحرة المتصلين بالجن والعفاريت .. ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار ومن .. ومن .. ومن الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء حتى تنقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء ... وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير الله في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع الى جانب الأعراض والأخلاق في سبيل هذه الأرباب .. ان البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ وعلى تصفيف الشعر وكيه وعلى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاماً بعد عام وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلي المتناسقة مع الزي والشعر والحذاء .. الى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة ..

ان البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال . ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الاموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب . ولا يملك الرجل والمرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء ...

وأخيراً تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية .. وما من أضحية

يقدمها عابد الله لله الا ويُقدّم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتُقام أصنام من (الوطن)ومن (القوم) ومن (الجنس) ومن (الطبقة) ومن(الانتاج) ومن غيرها من شتّى الأصنام والأرباب.. وتُدقّ عليها الطبول وتنصب لها الرايات ويُدعى عباد الأصنام الى بذل النفوس والأموال لها بغير تردّد .. والا فالتردّد هو الخيانة وهو العار ..

وحين يتعارض العرض مع مُتطلبات هذه الأصنام فان العرض هو الذي يُضحّى ، ويكون هذا هو الشرف الذي يُراق على جوانبه الدم كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام .. إنّ كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليُعبد الله وحده في الأرض وليتحرّر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ولترتفع الحياة الانسانية الى الأفق الكريم الذي أراده الله للانسان .. ان كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله .. والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال اذا هم جاهدوا في سبيل الله ،عليهم أن يتأملوا ماذا تُكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد وفوقها الأخلاق والاعراض .. ان تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تُكلفهم ما تُكلفهم الدينونة لغير الله ، وفوق ذلك كله الذُل والدنس والعار .....وأخيراً فان توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبودية والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن يُنفق في تأليه الأرباب الزائفة كي يوجه بجملته الى عمارة الأرض وترقيتها وترقية الحياة فيها ...

وهناك ظاهرة واضحة متكررة وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ليقيم من نفسه طاغوتا يُعبد الناس لشخصه من دون الله .. احتاج هذا الطاغوت كي يُعبد (أي يُطاع ويُتّبع) الى أن يُسخر كل القوى والطاقات : تُسبّح بحمده وتُرتل ذكره وتنفخ في صورته العبدية الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان الالوهية العظيمة . وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة واطلاق

الترانيم والتراتيل حولها ، وحشد الجموع بشتى الوسائل للتسبيح باسمها واقامة طقوس العبادة لها ... وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا . لأن الصورة العبدية المزيلة تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل .. وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال وأرواح أحياناً وأعراض . ولو أنفق بعضها في عمارة الأرض والانتاج المثمر لترقية الحياة البشرية واغنائها لعاد على البشرية بالخير الوفير .. ولكن هذه الطاقات والأموال والأرواح اوالأعراض لا تنفق في هذا السبيل المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده وانما يدينون للطواغيت من دونه ... ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والانتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده وعبادة غيره من دونه .. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض والقيم والأخلاق وفوق الذل والقهر والدنس والعار . وليس هذا في نظام أرضي دون نظام وان اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات ..

والخلاصة التي ينتهي اليها القول في هذه القضية : أنه يتجلى بوضوح أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية التي يعبر القرآن عنها بالعبادة هي قضية عقيدة وإيمان واسلام وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام .. انها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم . وقضية ايمان يوجد أو لا يوجد . وقضية اسلام يتحقق أو لا يتحقق .. ثم هي بعد ذلك لا قبله قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام وتنفذ فيها الأحكام .وكذلك ان قضية العبادة ليست قضية شعائر وانما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة .. وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه الرسل والرسالات واستحقت كل هذه العذابات والتضحيات .. وهنا يقف الدعاة ليواجهوا الجاهلية العنيدة ..

ان البشرية اليوم بجملتها تزاول رجعية شاملة الى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول . محمد صلى الله عليه وسلم وهي جاهلية تتمثل في صور شتى : بعضها يتمثل في الحاد بالله سبحانه وانكار لوجوده .. فهي جاهلية اعتقاد وتصور

كجاهلية الشيوعيين .. وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم .. وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك ... وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه وأداء الشعائر التعبدية مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم مسلمين ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الاسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد ..

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين أو شرك بالله كالآخرين ..

ان رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ، تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت الى جاهلية شاملة وأنها تعاني رجعية نكدة الى الجاهلية التي أنقذها منها الاسلام مرات متعددة كان آخرها الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا بدوره ، يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الاسلامي والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة ...

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد الى الدخول في الاسلام كرة أخرى والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت اليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الاسلام الأساسي : وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده ، والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده .. وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الاسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الاسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك . وان تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا ، يخرج الناس من الاسلام الى الجاهلية ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعا .. انها دورات جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الاسلام . فيجب أن

تواجهها دورة من دورات الاسلام الذي يُواجه الجاهلية ليَردّ الناس الى الله مرة أخرى ، ويُخرجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ولا بُدّ أن يصل الأمر الى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تُعاني من مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية .. فانه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الاسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية : وتَتَأرجح أمام المجتمع الجاهلي — وهي تَحسبه مجتمعا مسلما — وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا ، لا من حيث تزعم . والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع .. بعيدة جدا ..

ان نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الاسلام أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان لتحرير الانسان .

٧ — منهج محدد :

يجب أن نقف وقفة طويلة مع القرآن الكريم نَحن أصحاب الدعوة الى هذا الدين في هذا الجيل وفي كل جيل ، فان مدى التوجيه في القرآن الكريم يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة ، ويَنسحب على جميع الأجيال ، وجميع الدعاة ، ويرسم منهجاً للدعوة الى هذا الدين لا يَتقيَّد بالزمان والمكان ، ولنقف هنا عند معالم الطريق :

ان طريق الدعوة الى الله شاقّ مَحفوف بالمكاره ، مع أن نَصر الله للحق آت لا ريب فيه ، الا أن هذا النصر انما يأتي في موعده الذي يقدره الله وفق علمه وحكمته وهو غَيب لا يعلم موعده أحد حتى ولا الرسول . والمشقة في هذا الطريق تنشأ عن عاملين أساسيين : عن التكذيب والاعراض اللذين تُقابل بهما الدعوة في أول الأمر ، والحرب والأذى اللذين يُعلنان على الدعاة .. ثم من الرغبة البشرية في

نفس الداعية في هداية الناس الى الحق الذي تذوّقه وعرف طعمه . والحماسة للحق والرغبة في استعلائه . وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والاعراض والحرب والأذى فكلها من دواعي مشقة الطريق .

والتوجيه القرآني يُعالج هذه المشقة من جانبيها .. وذلك حين يُقرر أن الذين يُكذبون بهذا الدين أو يُحاربون دعوته . يعلمون علم اليقين أن ما يُدعون اليه هو الحق وأن الرسول الذي جاء من عند الله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لا يستجيبون ويستمرون في جحودهم عناداً واصراراً ، لأن لهم هوى في الاعراض والتكذيب . وأن هذا الحق يحمل معه دليل صدقه وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له متى كانت هذه الفطرة حيّة . وأجهزة الاستقبال فيها صالحة (انما يستجيب الذين يسمعون). فأما الذين يجحدون فان قلوبهم ميّتة وهم موتى وهم صُم وبكم في الظلمات . والرسول لا يُسمع الموتى ولا يُسمع الصمّ الدعاء .

والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله .. هذا كله من جانب ومن الجانب الآخر فان نصر الله آت قريب لا ريب فيه .. كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله وبقدر الله . وكما أن سنة الله لا تستعجل ، وكلماته لا تتبدل . من ناحية مجيء النصر في النهاية . فكذلك هي لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم .. والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة ولو كانوا هم الرسل . فان استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة . وصبره على الأذى بلا تململ ويقينه في العاقبة بلا شك .. كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر الى موعده المرسوم . ويحدد التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين ودور الدعاة بعده في كل جيل .. انه التبليغ والمضي في الطريق ، والصبر على مشاق الطريق .. أما هدى الناس وضلالهم انما يتبعان سنة الهية لا تتبدل فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته . ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يُحب . كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يُعاند ويحارب ان شخصه لا اعتبار له في هذه القضية وحسابه ليس على عدد المهتدين انما حسابه على ما أدّى . صبر وما التزم . وما استقام كما أمر .. وأمر الناس بعد ذلك الى ربّ الناس

(من يشأ الله يُضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .. (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (انما يستجيب الذين يسمعون)....

ومن هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة الى هذا الدين أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه اليهم الدعوة في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية . ولا أن يُحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم .. ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه).. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) (وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرلنامن الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه).

والتوجيه القرآني نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يرغبوا في اتيانهم بآية .. أية آية مما يطلبون . وقيل للرسول (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون).. وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قيل لهم :(قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يُؤمنون . ونُقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ليعلموا أولاً أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون، وأنهم موتى ، وأن الله لم يقسم لهم الهدى وفق سنة الله في الهدى والضلال ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل ، وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم .. وهذا يقودنا الى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني .. انه ليس خاصاً بزمن ولا محصورا في حادث ،

ولا مُقيداً باقتراح مُعين . فالزمن يتغير وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى . وأصحاب الدعوة الى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر ..

ان الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الاسلامية اليوم الى مُحاولة بلورة العقيدة الاسلامية في صورة (نظرية مذهبية) على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة، التي يصوغها البشر لفترة من الفترات ، ثم يمضي الزمن فاذا كلها عورات وشطحات ومُتناقضات .. وهي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الاسلامية الى محاولة بلورة النظام الاسلامي في صورة مشروع نظام على الورق أو صورة تشريعات مُفصلة على الورق أيضاً تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالاسلام (لأن أهل هذه الجاهلية يقولون : ان الاسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام الواقعي للحياة) وتنظم لهم هذه الأوضاع ، بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون الى الطاغوت ، ولا يحكمون أو يتحاكمون الى شريعة الله .. وكلها محاولات ذليلة لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة التي لا تثبت على حال باسم تطور وسائل الدعوة الى الله .

وأذل من هذه المحاولة من يضعون على الاسلام أقنعة أخرى ويصفونه بصفات من التي تروج في فترة من الفترات .. كالاشتراكية ..والديمقراطية .. وما اليها ظانين أنهم انما يخدمون الاسلام بهذه التقدمة الذليلة ..

ان الاشتراكية مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر قابل للصواب والخطأ . وان الديموقراطية نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضاً .. والاسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي والاقتصادي ، والنظام التنفيذي والتشكيلي .. وهو من صنع الله المُبرأ من النقص أو العيب .. فأين يقف من الاسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله سبحانه عند البشر بوصفه بصفة من أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الاسلام من يريد أن يستشفع لله سبحانه عند العبيد يقول من أقوال هؤلاء العبيد ؟...

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه يتخذونهم أولياء : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زُلفى ..)فهذا هو الشرك . فما الوصف الذي يطلق اذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم ويا للنكر والبشاعة يستشفعون لله سبحانه عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟.

ان الاسلام هو الاسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديموقراطية هي الديمقراطية .. ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة الا العنوان الذي جعله الله له ، والصفة التي وصفه بها .. وهذه وتلك من مناهج البشر ومن تجارب البشر .. واذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس .. ولا ينبغي لصاحب الدعوة الى دين الله أن يستجيب لاغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلب وهو يحسب أنه يحسن الى دين الله ..

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ولم يقدروا الله حق قدره .. اذا كنتم تقدمون الاسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية وباسم الديمقراطية لأن هذين الزيين من أزياء الاتجاهات المعاصرة .. فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الاقطاعي ، كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجمع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وايطاليا أيام بسمارك وماتزيني مثلاً .. وغداً من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم الذي يضعها العبيد للعبيد ، فكيف يا ترى ستقولون غداً عن الاسلام لتقدموه للناس في الثوب الذي يُحبه الناس؟....

ان التوجيه القرآني في هذه الموجه التي نحن بصددها وفي غيرها كذلك يشمل هذا كله .. انه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ، فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين . ولا يُحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته .. ان الله غني عن العالمين ومن لم يستجب لدينه ، عبودية له ، وانسلاخاً من العبودية لسواه فلا حاجة لهذا الدين به . كما أنه لا حاجة لله

سبحانه بأحد من الطائعين أو العصاة . ثم انه اذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه التي يُريد الله أن تسود البشرية ، فان له كذلك أصالته في منهجه في العمل وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية . إنَّ الذي نزّل هذا الدين بمقوماته وخصائصه وبمنهجه الحركي وأسلوبه ، هو سبحانه الذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه .. بذلك تلتئم جوانب التصور الاسلامي للأمر كله الى جانب وضوح المنهج في الدعوة وتقرير موقف صاحب الدعوة وهو يتحرّك بهذه العقيدة ، ويواجه النفوس البشرية في كل حال وفي كل جيل ..

٨ – خط فاصل :

ان المنهج القرآني لا يعني ببيان الحَق ّ واظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا .. ان استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخَط ّ الفاصل يرسم عند مفرق الطريق (وكذلك نُفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) .. ان هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله سبحانه ليتعامل مع نفوس البشرية ذلك أن الله سبحانه يعلم ان انشاء اليقين الاعتقادي بالحق ّ والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر . والتأكد من أنَّ هذا باطل مَحض وشر خَالص وأن ذلك حَق ّ مَحض وخَير خالص .. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحَق ّ أنه على حَق ّ . ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يُحادّه ويحاربه انما هو على الباطل . وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جَعل لكل نَبي عَدواً منهم (وكذلك جعلنا لكل نبي عَدواً من المجرمين) ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين ان الذين يعادونهم انما هم المجرمون عن ثقة في وضوح وعن يقين ..

ان سفور الكفر والشر والاجرام ضروري لوضوح الايمان والخير والصلاح واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف

المؤمنين وفي سبيلهم فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقان . ولا بُدّ من وضوح الألوان والخطوط .. ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة اسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين ، وتعريف سبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الاسلامية والحركة الاسلامية من هم المؤمنون من حولهم ، ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السبيلان ، ولا يتشابه العنوانان ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين .. وهذا التحديد كان قائما ، وهذا الموضوع كان كاملاً يوم كان الاسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه .. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين . ومع هذا التحديد وهذا الموضوع كان القرآن يتنزل وكان الله سبحانه يُفصل الآيات على ذلك النحو لتستبين سبيل المجرمين .

وحيثما واجه الاسلام الشرك والوثنية والالحاد ، والديانات المنحرفة المختلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعدما بدلتها أو أفسدتها التحريفات البشرية ، حيثما واجه الاسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك لا يجدي معها التلبيس ..

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الاسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا أنها تتمثل في وجود أقوام من النّاس من سُلالات المسلمين في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للاسلام يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته ، ثم اذا هذه الأرض ، واذا هذه الأقوام تهجر الاسلام حقيقة وتعلنه إسماً . واذا هي تتنكر لمقومات الاسلام اعتقاداً وواقعاً ، وان ظنت أنها تدين بالاسلام اعتقاداً . فالاسلام شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن لا اله الا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون والمتصرف فيه ، وأن الله وحده هو الذي يتقدم اليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله ، وأن الله وحده هو الذي

يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ، وأيما فرد لم يشهد أن لا اله الا الله بهذا المدلول ، فانه لم يشهد ولم يدخل في الاسلام بعد . كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا اله الا الله بهذا المدلول ، فهي أرض لم تدن بدين الله ، ولم تدخل في الاسلام بعد .. وفي الأرض أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ، وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للاسلام ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا اله الا الله بذلك المدلول ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول .. وهذا أشق ما تواجهه حركات الاسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام ، أشق ما تعانيه هذه الحركات ، هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا اله الا الله ، ومدلول الاسلام في جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر . أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين المجرمين ، واختلاط الشارات والعناوين ، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق .

ويعرف أعداء الحركات الاسلامية هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا ، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام .. تهمة تكفير المسلمين ، ويصبح الحكم في أمر الاسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا الى قول الله ، ولا الى قول رسول الله . هذه هي المشقة الكبرى ، وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة الى الله في كل جيل .. يجب أن تبدأ الدعوة الى الله سبحانه باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة الى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مهادنة ، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح . انظروا ؟ انهم يكفرون المسلمين .. ان الاسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدعون . ان الاسلام بين والكفر بين . الاسلام شهادة أن لا اله الا الله بذلك المدلول . فمن لم يشهدها على ذلك النحو ، ومن لم يقمها في الحياة على هذا المدلول فحكم الله

ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين ...(وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين).. أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة الى الله هذه العقبة ، وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله، لا تصدها شبهة ، ولا يعوقها غبش ، ولا يميعها لبس . فان طاقاتهم لا تنطلق الا اذا اعتقدوا في يقين أنهم هُم (المسلمون)وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم (المجرمون)...

ولا نزال نجدنا في حاجة الى تقرير من هم المشركون : انهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الالوهية سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله أوبتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه مهما تسموا بأسماء المسلمين ، فلتكن من أمر ديننا على يقين .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة الى الله هذه العقبة ، وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة ...

كذلك فانهم لن يحتملوا متاعب الطريق الا اذا استيقنوا أنها قضية كفر وايمان ، وأنهم وقومهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة ، وقومهم على ملة ، وأنهم في دين ، وقومهم في دين ... (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين)...

.. .. وصدق الله العظيم ..

٩ ـ قاعدة الدعوة :

يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس الى اعادة انشاء الدين يجب أن يدعوهم أولاً الى اعتناق العقيدة حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون .. ويجب أن يعلموهم أن الاسلام هو أولاً اقرار عقيدة : لا اله الا الله بمدلولها الحقيقي . وهو

ردّ الحاكمية لله في أمرهم كله . اقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، واقرارها في أوضاعهم وواقعهم . ولتكن هذه القضية هي أساس دعوتهم الى الاسلام كما كانت هي أساس دعوتهم الى الاسلام أول مرة . هذه الدعوة التي تكفّل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة .. فاذا دخل في هذا الدين بمفهومه هذا الأصيل عصبة من الناس فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الاسلامي في حياتها الاجتماعية لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس وألا تحكم في حياتها كلها الا الله . وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أُسس النظام الاسلامي عليه كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سنّ التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية في اطار الأسس العامة للنظام الاسلامي . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامي الواقعي العملي الجادّ ..

ولقد يُخيل الى بعض المخلصين المتعجلين ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الرباني القويم المؤسس على حكمة العليم الحكيم وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة .. نقول لقد يُخيل لبعض هؤلاء أن عرض أُسس النظام الاسلامي ، بل التشريعات الاسلامية كذلك على الناس مما يُيسر لهم طريق الدعوة ويُحبب الناس في هذا الدين .. وهذا وَهْم تُنشئه العجلة . ان النفوس يجب أن تخلص أولا لله وتعلن عبوديتها له بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره .. من ناحية المبدأ .. قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه . ان الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة في اخلاص العبودية لله والتحرر من سلطان سواه . لا من أن النظام المعروض عليها في ذاته خير مما لديها في كذا وكذا على وجه التفصيل .

ان نظام الله خيّر في ذاته لأنه شرع الله ولن يكون شرع العبيد يوماً كشرع الله ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة .. ان قاعدة الدعوة قبول شرع الله وحده ورفض كل شرع غيره هو ذاته الاسلام .. وليس للاسلام مدلول سواه فمن رغب في الاسلام فقد فصل في هذه القضية ولم يعد في حاجة الى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته فهذه احدى بديهيات الايمان ... لقد كان القرآن الكريم يخاطب

فطرة الانسان بما في وجوده وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات .. كان يستنقذ فطرته من الركام ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما رَانَ عليها وعَطّلَ وظائفها ، ويفتح منافذ الفطرة لتتلقّى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .

هكذا يجب أن تطول مَرحلة بناء العقيدة وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت وينبغي أيضا ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ، ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك لتتمثل العقيدة حيّة وتنمو نمواً حياً في خضم المعركة .

وخطأ أي خطأ بالقياس الى الاسلام أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية .. المعرفة الثقافية بل خطر أي خطر كذلك . ان القرآن الكريم لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى كلا .. فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جُملة واضحة ثم ترك أصحابه يدرسون ثلاثة عشر عاماً أو أكثر أو أقل حتى يستوعبوا النظرية الاسلامية . ولكن الله سبحانه كان يريد أمراً آخر .. كان يريد منهجا معينا متفرداً ، كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد ، كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة . كان يُريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي ، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . وكان الله سبحانه يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة فلم يكن بد من أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة .. حتى اذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج .

هذه هي طبيعة الدين الاسلامي ولا بد أن نعرف طبيعته ولا نحاول أن نغيرها لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية . فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يُعاد اخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة . يجب أن ندرك خطأ المحاولة

وخطرها معاً في تحويل العقيدة الاسلامية الحيّة التي يجب أن تتمثل في واقع تام متُحرك ، الى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بنظرية اسلامية . ان العقيدة الاسلامية يجب أن تتَمثّل في نفوس حيّة وفي تنظيم واقعي وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة الى نفوسهم وتنزعها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مَساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله النظرية ، وتشمل فيما تشمل مساحة النظرية ومادتها ولكنها لا تقتصر عليها .

انّ التصور الاسلامي للالوهية وللوجود الكوني وللحياة وللانسان تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور ايجابي وهو بطبيعته يكره أن يتمثّل في مُجرد تصور ذهني معرفي ، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته ويجب أن يتمثل في بَشر وفي تنظيم حيّ وفي حركة واقعية .. وطريقته في التكوين أن ينمو خلال الأناسي والتنظيم الحيّ والحركة الواقعية حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً ، ولا ينفصل في صورة نظرية بل يظل مُمَثلاً في الصورة الواقعية .

وكل نُمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله هو خَطأ وخطر كذلك بالقياس الى طبيعة هذا الدين وغايته وطريقة تركيبه الذاتي والله سبحانه يقول (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) فالفرق مقصود والمكث مقصود كذلك ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة (مُنظمة حية) لا في صورة (نظرية مَعرفية) .

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين أنه كما أن هذا الدين دين رباني ، فان منهجه في العَمل منهج رباني كذلك متواف مع طبيعته ، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل ، ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي ومن ثم يغير الواقع الحيوي فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور الاعتقادي ويغير به الواقع الحيوي جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة .. ثم لينشيء منهج تفكير خاصاً به بنفس

الدرجة التي ينشىء بها تصوراً اعتقادياً وواقعاً حيوياً . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي ، فكلها حزمة واحدة .

فاذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . انما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين الا به .. انه لم تكن وظيفة الاسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن وظيفته كانت أن يغير طريقة تفكيرهم ، وتناولهم للتصور والواقع ، ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل الى التصور الرباني والحياة الربانية الا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يُقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصحّ تصورهم وتكوينهم الحيوي ...

ونحن حين نُريد من الاسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير . ونخضع الاسلام لطرائق التفكير البشرية .. كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ، وكأنما نريد أن نرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد .. والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا والهزيمة تكون قاتلة .

ان وظيفة المنهج الرباني أن يُعطينا نحن أصحاب الدعوة الاسلامية منهجاً خاصاً للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا .. فاذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة، كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية . وحرمنا أنفسنا من فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا. وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا.. والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا والخسارة تكون قاتلة ..

ان منهج التفكير والحركة في بناء الاسلام لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج

التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ، ولا ينفصل عنه كذلك .. ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشيء (الاسلام) في الأرض في صورة حركة واقعية . بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الاسلام في هذه الصورة الا المشتغلون فعلاً بحركة اسلامية واقعية .

وأن قصارى ما يفيده هؤلاء من تقديم الاسلام لهم في هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا اليه هم فعلا في أثناء الحركة . ومرة أخرى نُكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي ، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي . ومرة أخرى نُكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للاسلام الرباني ، وأنه منهج أعلى وأقوم وأشدّ فاعلية وأكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات الكاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين بالفعل بحركة واقعية ، وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري . فاذا صحّ هذا في أصل النظرية فهو أصحّ بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم أسس النظام الذي يتمثّل فيه التصور الاسلامي ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام . ان الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الاسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الاسلامي ، كذلك هي تتعمّد أحياناً أن تُحرجهم فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون اليه ؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ؟ وهي في هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم ، وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة ، وأن يُحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، ويتحدّد فيها النظام من خلال الممارسة ، وتُسن فيها التشريعات في ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية .

ومن واجب أصحاب الدعوة الاسلامية ألاّ يستجيبوا للمناورة . من واجبهم أن

يرفضوا املاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم . من واجبهم ألاّ يستخفهم من لا يوقنون . ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الاحراج وأن يستعلوا عليها ، وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته ، وهذا هو مصدر قوتهم كذلك ..

ان المنهج في الاسلام يساوي الحقيقة ولا انفصام بينهما .. وكل منهج غريب لا يمكن أن يُحقق الاسلام في النهاية . والمناهج الغربية الغريبة يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية ، ولكنها لا يمكن أن تُحقق نظامنا الرباني ...فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة ، وكالتزام النظام في كل حركة اسلامية . لا في الحركة الاسلامية الأولى كما يظن بعض الناس .

١٠ — مصلحة الدعوة :

ولقد تدفع الحماسة أصحاب الدعوات بعد الرسل ، والرغبة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها .. الى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالاغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة . يحسبونه هم ، ليس أصيلاً فيها ، ومجاراتهم في بعض أمرهم . كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها ولقد تدفعهم كذلك الى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم وذلك حرصا على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها ،واجتهاداً في تحقيق (مصلحة الدعوة)ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير . أما النتائج فهي غيب لا يعلمه الا الله . فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج . انما يجب أن يمضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله . ولن تكون الا خيراً في نهاية المطاف وهاهوذا القرآن ينبههم إلى ان الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثُم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان

الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم)واذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية الى دعوتهم . فغير المعصومين في حاجة الى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة . والحرص على ما يسمونه (مصلحة الدعوة)..

ان كلمة (مصلحة الدعوة)يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات لأنها مزلة ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص . ولقد تتحول (مصلحة الدعوة)الى صنم يتعبده أصحاب الدعوة ، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل . ان على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على منهجها ويتحروا هذا المنهج دون التفات الى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرا على الدعوة وأصحابها . فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب سواء كان هذا الانحراف كثيراً أو قليلاً . والله أعرف منهم بالمصلحة ، وهم ليسوا بها مكلفين .. انما هم مكلفين بأمر واحد . ألاّ ينحرفوا عن المنهج وألاّ يحيدوا عن الطريق .

١١ – جهد مضاعف :

إنّ الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها وتنحرف أجيال منها. وان الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني اسرائيل ، فجعل الله سبحانه أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة ، نماذج من العقابيل التي تلمّ بالأمم ، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته ..

ذلك أن أشدّ القلوب استعصاءً على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت . فالقلوب الغفل الخامة أقرب الى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزّها وينفض عنها الركام لجدّته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد

الذي يطرق فطرتها لأول مرة . فأما القلوب التي نوديت من قبل ، فالنداء الثاني لا تكون له جدته ، ولا تكون له هزته ، ولا يقع فيها الاحساس بضخامته وجديته ، ومن ثم تحتاج الى الجهد المضاعف والى الصبر الطويل .

كذلك ان طبيعة الذين طال عليهم طول العبودية والذل والخضوع للارهاب والتعبد للطواغيت لطبيعة صعبة على الدعاة . تبدو عليها أعراض الالتواء والاحتيال والأخذ بالأسهل تجنباً للمشقة .. كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا . والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها . وتسير مع القطيع ، لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً .. انها الطبيعة الخائرة المفككة الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة ..

وانه ليقع حينما يشتد الظلم ويفسد المجتمع وتختل الموازين ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه . بل يقع أن يصل فساد الفطرة الى حد انكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ، ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره (جباراً في الأرض) ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون . حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هذا هو الفضل . وأن هذا هو الأدب ، وأن هذا هو الصلاح . فاذا رأوا مظلوماً يدفع الظلم عن نفسه ، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها .. اذا رأوا مظلوما يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ، ولولوا ودهشوا وسموا هذا المظلوم الذي يدفع الظلم سفاكاً أو جباراً ، وصبوا عليه لومهم ونقمتهم . ولم يجدوا للمظلوم عذراً من ضيقه بالظلم الثقيل .. انهم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه فتمردوا عليه واستكانوا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن وبذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع والاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس واستنقاذ قوم كهؤلاء شاق عسير ..

وان متاعب كل صاحب دعوة يواجه نفوساً طال عليها الأمد لكبيرة جدا .

وهي تستمرىء حياة الذّل تحت قهر الطاغوت . وبخاصة اذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها اليه ، ثم طال عليها الأمد ، فبهتت صورتها ، وعادت شكلا لا روح فيها ..

إنّ جهد صاحب الدعوة في مثل هذه الحال لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك .. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات ، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة والاندفاع الى الجاهلية عند أول بادرة ..

ان هذا القلب البشري سريع التقلب ، سريع النسيان ، وهو يشفّ ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع . فاذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تلبّد وقسا ، وانطمست اشراقته وأظلم وأعتم (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) فلا بدّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بُدّ من الطرق عليه حتى يرق ويشف ، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التلبد والقساوة ..

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد . فانه يمكن أن تدبّ فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله .. فالله يُحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة وتزخر بالنبات والزهر وتمنح الأكل والثمار . وكذلك القلوب حين يشاء الله (اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها)....

١٢ — قلعة للدعوة :

ان المؤمن مكلف هداية أهله واصلاح بيته كما هو مكلف هداية نفسه واصلاح قلبه (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة). وان الاسلام دين اسرة ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته وواجبه في بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي .. المجتمع الاسلامي ..

• ان البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولا بد أن تكون القلعة مُتماسكة من داخلها ، حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا يُنفذ اليها . والا يكن كذلك سَهُلَ اقتحام المعسكر من داخل قلاعه فلا يصعب على طارق ولا يستعصي على مُهاجم .. وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه الى بيته وأهله . واجبه أن يُؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يَسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .. ولا بُدَّ من الأم المسلمة . فالأبّ المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة .

لا بدّ من أبّ وأمّ ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثاً يُحاول الرجل أن يُنشيء المجتمع الاسلامي بمجموعة من الرجال .

لا بُد من النساء في هذا المجتمع ، فهن الحارسات على النشيء ؛ وهو بذور المستقبل وثماره . ومن ثم كان القرآن يتنزّل للرجال والنساء ، وكان يُنظم البيوت ويقيمها على المنهج الاسلامي ، وكان يُحمل المؤمنين تبعة أهلهم كما يُحملهم تبعة أنفسهم (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً).. هذا أمر ينبغي أن يُدركه الدعاة الى الاسلام وأن يُدركوه جيداً .

ان اول الجهد ينبغي أن يُوجّه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ، وإلى الأهل بعامة . ويجبُ الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشىء البيت المسلم . وينبغي لمن يُريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة . والا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الاسلامية .

وسيظل البنيان مُتخاذلا كثيرَ الثغرات . وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه .. كان قد أنشىء مجتمع مسلم في المدينة يُهيمن عليه الاسلام ، يُهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويُهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه مرجع الرجال والنساء جميعاً إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الاسلام .

وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويُربُّوا أبناءهم على منهج الاسلام .

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نُظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك . والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبي الاسلام . سواء اهتدت اليه بنفسها ، أو هداها اليه رجلها . زوجها أو اخوها أو ابوها ..

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع يتحاكمون إلى تصور واحد وحكم واحد . وطابع واحد . فأما هنا .. فالرجل المسلم يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يُعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ، وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل .

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . ان عليه أن يقي نفسه النار ثم عليه أن يقي أهله ، وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف . فينبغي له أن يُدرك ثقل هذا الواجب ليبذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى .

ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشىء بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو .. من الاسلام .. وسيضحي في سبيل هذا بأشياء : سيضحي بالالتماع الكاذب في المرأة . سيُضحي بخضراء الدمن . سيُضحي بالمظهر البرّاق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين التي تُعينه على بناء بيت مسلم . وعلى انشاء قلعة مسلمة . ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الاسلامي ، أن يعلموا أن الخلايا الحيّة لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا اليهن واليهم بالدعوة والتربية والاعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) .

ونرجع الكرة إلى طبيعة الاسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يُهيمن عليها الاسلام ، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي ، فهو مبني على أساس أن تكون هنالك جماعة . الاسلام عقيدتها ، والاسلام نظامها ، والاسلام شريعتها ، والاسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها . هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الاسلامي ويحمله إلى النفوس . ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي كما يحميها من فتنة الايذاء سواء . ومن ثم نتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، مُحتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الاسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العش المسلم او في القلعة المسلمة ، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الاسلامي .. انها ضرورة وليست نافلة أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالاسلام وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها فيعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو اليها ، في صورة واقعية يراها من يُدعون اليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور باذن الله ، إلى أن يأذن الله بهيمنة الاسلام حتى تنشأ الاجيال في ظله ، في حمايته من الجاهلية الضاربة الأطناب .

١٣ – القاعدة الصلبة :

الجاهلية حين تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول‌الله وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله ، ومن تمرد على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله ، ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الذي أنشأته الدعوة . تنتفض الجاهلية وينتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه ..

وهذا الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه : كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ، وكلما تمثلت

الدعوة الاسلامية في تجمع حركي جديد يتبع في تحركه قيادة جديدة ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض .. عندئذ يتعرض كل فرد في التجمع الاسلامي للاذى والفتنة بكل صنوفها إلى حد اهدار الدم في كثير من الأحيان ، وعندئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله الا كل من نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في أغلب الاحيان ..

بذلك يتكون للاسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر ، فأما العناصر التي لم تحتمل الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى. ويجب أن يكون هذا الأمر مكشوفاً معروفاً للدعاة: ان الانتقال من الجاهلية إلى الاسلام هو الدخول في هذا الطريق الشائك الخطر .. هذه هي قاعدة الدعوة في كل زمان وفي كل مكان .. ولقد اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار .

لقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله لا ينتظرون شيئاً سوى الجنة وهم موقنون بأنهم لن يعيشوا في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب . هذه هي قاعدة الدعوة كما قامت وكما ستقوم .. روى ابن كثير في كتاب البداية والنهاية (قال الامام أحمد .. عن جابر قال : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم .. عكاظ والمجنة .. وفي المواسم ، يقول « من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة » فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك . ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله اليه من يثرب فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الاسلام . ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا : حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فرحل اليه منّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتّى توافينا . فقلنا يا رسول الله علام نبايعك ؟ قال « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني اذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال رويداً يا أهل يثرب . فانا لم نضرب اليه أكباد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وان اخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف . فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، واما أنتم قوم تخافون من انفسكم خيفة فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عندالله .. قالوا أبط علينا يا أسعد فوالله لا نَدَع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً . قام فقمنا اليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة) . فهؤلاء الأنصار الذين أرادوا الدخول في الاسلام كانوا على يقين واضح من تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أنهم لم يُوعدوا على هذه التكاليف شيئاً في هذه الحياة الدنيا حتى ولا النصر ولا الغلبة ، وأنهم لم يوعدوا عليها الا الجنة .

وأن الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الاسلامية وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة وأنه بدون المحن الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط ، وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والاصرار والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع وقلة العَدد وانعدام النصير الأرضي .. ان هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأصلية الثابتة عند نقطة الانطلاق . هذه هي التي يجب أن يقوم عليها الاسلام . فدعاة الاسلام هم هذه القاعدة وهم الحراس الأقوياء والأشداء. فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يُهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تُراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى . على أن الله سبحانه هو الذي يتكفل

بهذا لدعوته ، فحيثما أراد لها حركة صحيحة عرّض طلائعها ودعاتها للمحنة الطويلة وأبطأ عليهم النصر وقللهم ، وبطّأ الناس عنهم حتى يعلم منهم أنهم قد صبروا وثبتوا وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأمينة ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده سبحانه ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

. . . .

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وان الطريق أمام الدعاة هو نفوس الناس .

فاذا نظرنا إلى طبيعتهم ، شهوات الناس ونزواتهم ومصالح بعضهم ومنافعهم وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحل الذي يكره الجدّ ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة .. وفيهم من ينكر المعروف ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ولا تفلح البشرية الا أن يسود الخير والا أن يكون المعروف معروفاً والمنكر منكراً .. اذن لا بد من جماعة تتلاقى على ركيزتين هما : الايمان بالله والاخوة بالله لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق ، بقوة الايمان والتقوى ، ثم بقوة الحب والالفة . وكلتاهما ضرورتان من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة وكلفها به هذا التكليف ..

إنّ قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الالهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . لا بدّ من وسط غير الوسط الجاهلي ومن بيئة غير البيئة الجاهلية .. هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الايمان والأخوة .. الايمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والاشياء والأشخاص ، وترجع

إلى ميزان واحد تقوّم به كل ما يعرض لها في الحياة وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ....

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى على هاتين الركيزتين . على الايمان بالله ، ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه وتمثل صفاته في الضمائر ، وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية الى حد غير معهود الا في النــادرة من الأحوال . وعلى الحبّ . الحب الفياض الرائق . والود . الود العذب الجميل. والتكافل . التكافل الجاد العميق . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً لولا أنه وقع لـَحُـدّ من أحلام الحالمين . وعلى مثل ذلك الايمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان ....

لا بد من الايمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . . ولا بد من الايمان ليملك الدعاة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ويحتملوا تكاليفه وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم ، وثقلة المطامع . وزادهم هو الايمان وعدتهم هي الايمان وسندهم هو الله. وكل زاد سوى زاد الايمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الايمان تفل ، وكل سند غير سند الله ينهار . والمسلمون إما يدعون الى المعروف وينهون عن المنكر مع الايمان بالله ، واما أن لا يقوموا بشيء من هذا فهم غير مسلمين وغير متحققين بصفة الاسلام . وهذا بيان القرآن (كنتم خير أمة أخرجت للناس..) وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم نقتطف بعضها :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان)[1]

---

(١) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهُم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى ابن مريم)[1] . وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم)[2] . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان من اعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[3] . وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيّد الشهداء حمزة ورجل قام الى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله)[4] . فهذه ضرورة نحن غافلون عن قيمتها وحقيقتها .

١٤ — في ميزان الله :

ان الدعاة الى الله وطلائع البعث الاسلامي الذين يواجهون الجاهلية الشاملة في الأرض كلها ، والذين يعانون الغربة في هذه الجاهلية والوحشة ، كما يعانون الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل ، ان هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام أمر خطير وامام دلالته التي تستحق التدبر والتفكير . .

ان وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى . وشيء يستحق منه سبحانه أن يدمرّ الجاهلية وعمرانها ومنشآتها ومدخراتها جميعاً ، كما يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد . . وانه ليس على العصبة المسلمة الا أن تثبت وتستمر في طريقها ، والا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ اليه ، والا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، والا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه لن يترك أولياءه الى اعدائه ، الا فترة الاعداد والابتلاء ، وانها متى اجتازت هذه الفترة فان الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء . .

(١) أبو داود والترمذي .
(٢) أخرجه الترمذي .
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي .
(٤) رواه الحاكم والضياء .

انه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالاسلام ان يظن أن الله تاركه للجاهلية ، وهو يدعو الى افراد الله سبحانه بالربوبية كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية الى قوى الجاهلية ، فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه (اني مغلوب فانْتَصِر) .. ان القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . ان الجاهلية تملك قواها ولكن الداعي الى الله يستند الى قوة الله . والله يملك أن يُسخر له بعض القوى الكونية حينما يشاء وكيفما يشاء . وبأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب . . وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . وقد لبث نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاماً قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة الا اثنا عشر مسلماً . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوى الهائلة والتدمير على البشرية الضالة جميعاً وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها .. ان عصر الخوارق لم يمض ، فالخوارق تتم في كل لحظة وفق مشيئة الله المطلقة ولكن الله يستبدل بانماط من الخوارق انماطاً أخرى تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها .

وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها . ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ويلامسون آثارها المبدعة . . والدعاة الى الله الذين يسلكون السبل اليه ليس عليهم الا أن يؤدوا واجبهم كاملاً بكل ما في طاقتهم من جهد ثم يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون . عليهم أن يلجأوا الى الله الناصر المعين . وان يجأروا اليه كما جأر عبده الصالح نوح (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) . ثم ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عبادة فهم على هذا الانتظار مأجورون . . ولكن نشير هنا الى ان هذا القرآن لا يكشف عن أسراره الا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهاداً كبيراً . . ان هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل به القرآن ومن ثم يتذوقونه ويدركونه لأنهم يجدون انفسهم مخاطبين خطاباً مباشراً به كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى فتذوقته وأدركته وتحركت به .

ان اصحاب الدعوة الى ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد الذي

يصيبها من الدينونة لغيره هم صمام الأمان للشعوب والأمم . . وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لاقرار ربوبية الله وحده : الواقفين للظلم والفساد بكل صوره . . انهم لا يؤدون واجبهم لربهم ودينهم فحسب وانما هم يحولون دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع : (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلاً ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربُّك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) . .

١٥ — أخلاق الداعية :

يجب على الداعية أن تتوفر فيه الطبيعة الخيرة الرحيمةالهينة اللينة ، المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس فيجب على الداعية أن يكون رحيماً بمن معه ، ليّناً معهم ، و لو كان فظاً غليظ القلب ما تألف حوله القلوب ، ولا تتجمع حوله المشاعر . فالناس في حاجة الى كنف رحيم والى رعاية فائقة ، والى بشاشة سمحة ، والى ودّ يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم . . في حاجة الى قلب كبير يعطيهم ولايحتاج منهم الى عطاء، ويحمل همومهم ، ولا يعنيهم بهمّه .. ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف، والسماحة والود والرضاء .

وهكذا كان قلب الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم . . هكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشرى، ولا احتجز لنفسه شيئاً من اعراض هذه الدنيا . بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه ، وبره وعطفه وودّه الكريم . وهذا ما شهد له به القرآن الكريم وخطّه الله في هذا الكتاب لتكون هذه الأخلاق روح كل داعية وعدته مع النّاس (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك).

ويجب أن يكون اللين والتواضع والرفق الصورة الحسية المجسمة للداعية (واخفض جناحك للمؤمنين)صورة خفض الجناح كما يخفض الطائر جناحه حين يهم بالهبوط .وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين طوال حياته. فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية للقرآن الكريم الذي كان يُربيه (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ

فاستعذ بالله إنه سميع عليم) خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب اليهم الكمال ، ولا تكلفهم الشاق من الاخلاق ، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم .. كل أولئك في المعاملات الشخصية ، لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية . فليس في عقيدة الاسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار . وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة . فالاغضاء عن الضعف البشري والعطف عليه والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء. ورسول الله صلى الله عليه وسلم : راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والاغضاء وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغضب لنفسه قط فاذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء . . وكل أصحاب الدعوة مأمورون ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر ، وسماحة طبع ويسراً وتيسيرا في غير تهاون ولا تفريط في دين الله . .

وان للداعية الى الله وصفاً وروحاً ولفظاً وحديثاً وأدباً . ويتوجه بهذه الصورة وتلك الصفات الله تبارك وتعالى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى كل داعية من أمته . يقول للداعية : هذا هو منهجك ، وأخلاقك مهما كانت الأمور (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) ..

ان النهوض بواجب الدعوة الى الله في مواجهة التواءات النفس البشرية وجهلها واعتزازها بما ألفت واستكبارها أن يقال: انها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة الى اله واحد كل البشر أمامه سواء . . ان النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه الظروف أمر شاق ولكنه شأن عظيم (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً) ان كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب الى السماء . ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ، ومع

الاستسلام الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن الا التبليغ ولا على الداعية بعد ذلك أن تُتلقى كلمته بالاعراض ، أو بسوء الأدب أو بالتبجح في الانكار . فهو انما يتقدم بالحسنة ، فهو في المقام الرفيع وغيره يتقدم بالسيئة فهو في المكان الدون (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) ، وليس له أن يرد بالسيئة فان الحسنة لا يستوى اثرها كما لا تستوى قيمتها مع السيئة . والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر يرد النفوس الجامحة الى الهدوء والثقة فتنقلب من الخصومة الى الولاء ومن الجماح الى اللين (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات . وينقلب الهياج الى وداعة والغضب الى سكينة والتبجح الى حياء . على كلمة طيبة ونبرة هادئة وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام . ولو قُوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً . وخلع حياءه نهائياً . وأفلت زمامه وأخذته العزة بالاثم ، غير أن تلك السماحة تحتاج الى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الاساءة والرد . وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها . حتى لا يصور الاحسان في نفس المسيء ضعفاً . ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه . ولم يكن للحسنة أثرها اطلاقاً . وهذه السماحة قاصرة على حالات الاساءة الشخصية . لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها . فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها . أو الصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . وهذه الدرجة ، درجة دفع السيئة بالحسنة ، والسماحة التي تستعلي على دفعات الغيظ والغضب . والتوازن الذي يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى . درجة عظيمة لا يلقاها كل انسان . فهي في حاجة الى الصبر . وهي كذلك حظ موهوب يتفضل الله به على عباده الذين يحاولون فيستحقون . انها درجة عالية الى حد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي لم يغضب لنفسه قط ، واذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد ، قيل له ، وقيل لكل داعية في شخصه (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم) فالغضب قد ينزغ ويلقي في الروع قلة الصبر على الاساءة أو ضيق الصبر على السماحة . فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية

تدفع محاولاته لاستغلال الغضب والنفاذ من ثغرته. إنّ خالق هذا القلب البشري الذي يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان اليه ، يحوط قلب الداعية الى الله من نزغات الغضب أو نزغات الشيطان مما يلقاه في طريقه مما يثير غضب الحليم . .

وغضبة المؤمن يجب أن تكون لربّه حين يستباح جلاله سبحانه ووقاره . . اننا ننتفخ وننتفش ونغضب اذا أهين احدنا في أهله أو نفسه . ولكن المؤمن يجب أن يغار لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الاسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته . . وان الجماعة المسلمة يجب أن تقوم على الاسس الاخلاقية الرفيعة ، والقرآن الكريم يعرض من هذه الأسس جمهرة صالحة .. فالعنصر الاخلاقي أصيل وعميق في كيان التصور الاسلامي : وفي كيان الجماعة الاسلامية بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله . ان هذه الجماعة الاسلامية تقوم على العبودية لله وحده فهي اذن متحررة من كل عبودية للعبيد في أية صورة من صور العبودية . ومن هذه الحرية تنطلق الفضائل كلها . وتنطلق الأخلاقيات كلها . لأن مرجعها جميعاً الى ابتغاء رضوان الله ، ومرتقاها ممتد الى التحلي بأخلاق القرآن . وهذا هو الأصل الكبير في أخلاقية الاسلام . . فالمنهج الاسلامي يعطي الاخلاق اهتماماً كبيراً في القرآن ، كما أنه يدل على عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الاسلامية ، وفي فكرة الاسلام عن الحياة الانسانية . .

١٦ ـ جدّ .. وعمل :

ان لقلب المؤمن ما يشغله عن اللهو واللغو والهذر . . لغو القول . ولغو الفعل ولغو الاهتمام والشعور . له ما يشغله من ذكر الله وتصور جلاله . . وتدبرّ آياته في الأنفس والآفاق ، وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق من اللب ويشغل الفكر ويحرك الوجدان . وله ما يشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها في تطهير القلب وتزكية النفس وتنقية الضمير . وتكاليفها في السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الايمان . وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وصيانة حياته من الفساد والانحراف . وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرها . وعزّها والسهر عليها من كيد الأعداء . . وهي

تكاليف لا تنتهي ولا يغفل عنها المؤمن ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية . . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري والطاقة البشرية محدودة . وهي إما أن تُنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ، واما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته الى انفاقها في البناء والتعمير والاصلاح . . ولا ينفي هذا ان يروح المؤمن عن نفسه بين الحين والحين . ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون) . .

ان جو العقيدة هو جو جدّ وجزم كما أنه جو هول وروع . انّ هذا الموقف موقف جِدّ وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون) . . إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجدّ . . فتلهو في أخطر المواقف ، وتهزل في مواطن الجدّ ، وتستهتر في مواطن القداسة . فالذكر الذي يأتيهم ، يأتيهم (من ربهم) فيستقبلونه لاعبين . بلا وقار ولا تقديس . والنفس التي تفرغ من الجدّ والاحتفال والقداسة تنتهي الى حالة من التفاهة والجدب والانحلال . فلا تصلح للنهوض بعبء ، ولا الاضطلاع بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة. ان روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة . . والاستهتار غير الاحتمال . فالاحتمال قوة جادة شاعرة ، والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء . . وان اللهو ليلهي القلب ويأكل الوقت ، ولا يثمر خيراً ، ولا يؤتي حصيلة تليق بوظيفة الانسان المستخلف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التي يقرر الاسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ويرسم لها الطريق (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) والنص القرآني عام لتصوير نموذج من الناس ، واضح السمات قائم في كل حين . وقد كان قائماً على عهد الدعوة في الوسط المكي الذي نزلت فيه هذه الآيات . . (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) يشتريه بماله ويشتريه بوقته ويشتريه بحياته يبذل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص يفني فيها عمره المحدود الذي لا يعاد ولا يعود . .

الباب السادس

الزاد

لا بد من العون والزاد على تكاليف الدور العظيم والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور، من استشهاد الشهداء ونقص الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع ومكابدة أهوال الجهاد لاقرار منهج الله في الانفس واقراره في الارض بين الناس. فلا بد من العون (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين) وإن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، الذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الاعصاب مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج.. ولا بد من الصبر في هذا كله.. لا بد من الصبر على الطاعات والصبر على المعاصي والصبر على المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس وخلال القلوب وثقلة العناد ومضاضة الإعراض.

وقد قيل لرسول الله (قُم) فقام وظلّ قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسكن. ولم يعش لنفسه ولا لأهله.. قام وظلّ قائماً

على دعوة الله يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ، ولا ينوء به عبء الامانة الكبرى في هذه الارض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كله ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى ، حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية ، وتصوراتها ، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، حتى اذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الارضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمتد جذورها في التربة وفروعها في الفضاء . وتظلل مساحات أكبر . لم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الامة الجديدة ، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية . وفي أثناء هذا كله ، لم تكن المعركة الاولى ، معركة الضمير قد انتهت . فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الانساني . . ومحمد صلى الله عليه وسلم قائم على دعوة الله هنالك ، وعلى المعركة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الامن والراحة ، وفي نصب دائم لا ينقطع وفي صبر جميل على هذا كله ، وفي قيام بالليل ، وفي عبادة لربه وترتيل لقرآنه ، وتبتل اليه لتلقي المدد والزاد . .

وان الذي يعيش لنفسه ، قد يعيش مستريحاً ، ولكن يعيش صغيراً ويموت صغيراً ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير ، فما له والنوم ، وماله والراحة ، وما له والفراش الدافيء والعيش الهادىء والمتاع المريح ، ولقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الأمر وقدره فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام (مضى عهد النوم يا خديجة) . . أجل مضى عهد النوم وما عاد الا السهر والتعب والجهاد القوي الشاق . . لذلك لا بد من العبادة ، لأن العبادة في الاسلام ، ليست في معزل عن السلوك الاجتماعي أو الاخلاقي في الحياة . . انما هي الطريق للارتفاع الى المستوى السامق ،

والزاد الذي يقطع به السالك الطريق . فلا بد من صلة بالله يأتي منها المدد والزاد ، ولا بدّ من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه ؛ ولا بد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة ، ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس ومن المجتمع ومن البيئة . إنه حري أن يقود الآخرين الى النور الذي يراه ، لا أن يقوده الآخرون الى الظلمات والى الجاهلية التي تغرق فيها الحياة كلما انحرفت عن طريق الله ؛ والاسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والاخلاق والتشريعات والنظم كلها في نطاق الدعوة ، ولكل منها دور تؤديه في تحقيق العقيدة وتتناسق كلها في اتجاه واحد ، ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين وبدونهما لا يقوم هذا الكيان .

١ ــ الصبر :

الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ؛ انه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والاشواك مفروش بالدماء والاشلاء والايذاء والابتلاء . . الصبر على أشياء كثيرة . الصبر على شهوات النفس ورغباتها وأطماعها ومطامحها وضعفها ونقصها وعجلتها وملالها من قريب . . والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم ؛ والتوائهم واستعجالهم للثمار . والصبر على تنفش الباطل ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء ؛ والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ووسواس الشيطان في ساعات الكرب والضيق ، والصبر على مرارة الجهاد . . هذا كله وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ والحنق والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير ، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية ؛ والملل واليأس أحياناً والقنوط ؛ والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والغلبة والانتصار واستقبال الرخاء في تواضع وشكر ، وبدون خيلاء ، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله واستسلام لقدره ورد الأمر اليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ؛

الصبر على هذا كله وعلى مشقة ما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل لا تصوره حقيقة الكلمات . الكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة . انما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها ، انفعالات وتجارب ومرارات ، فيجب أن لا ينفذ صبر المؤمنين .

فإذا كان الباطل يصرّ ويصبر ويمضي في الطريق ، فما أجدر الحق أن يكون اشدّ اصراراً واعظم صبراً في المضي في الطريق . .

ان على الجماعة المسلمة أن لا تغفل عيونها ابداً ولا تستسلم للرقاد فإن أعداءها لا يهادنونها قط في أي زمان وفي أي مكان . . ان هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي ، منهج يتحكم في أموالهم كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم، منهج خيّر عادل مستقيم ، ولكن الشر لا يستريح للنهج الخيّر العادل المستقيم. والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة. والطغيان لا يسلّم للعدل والمساواة والكرامة . ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان . فينهد لحربها المستنفعون والمستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال ، وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون ان يتخلوا عن الطغيان والاستكبار ، وينهد لحربها المستهترون المنحلون لأنهم لا يريدون ان يتخلوا عن الانحلال والشهوات .. ولا بد من مجاهرتهم جميعاً ، ولا بد من الصبر والمصابرة ، ولا بد من اليقظة كي لا تؤخذ الجماعة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين الدائمين في كل أرض وفي كل جيل . . هذه هي طبيعة الدعوة وهذا هو طريقها . ان الله سبحانه يؤيد الصابرين وهو معهم ، ويثبتهم ويقويهم ويؤنسهم (ان الله مع الصابرين) فلا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة وقوتهم الضعيفة ، انما يمدهم حين ينفذ زادهم ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق . . والاحاديث في الصبر كثيرة نذكر منها بعض ما يمد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها :

عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال: شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة. فقلنا ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا

فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه.. والله ليتمّنّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[1] وعن ابن مسعود رضي الله عنه (كأني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الانبياء عليهم السلام ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون)[2] وعن يحي بن وثاب عن شيخ من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)

والصبر تربية للنفوس واعداد كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ولا تنهار جزعاً أمام الشدة. انه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسراً.. انه الرجاء في الله والثقة في الله والاعتماد على الله، ولا بد لامة تناط بها القوامة على البشرية والعدل في الارض والصلاح ان تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة.. (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس).. الصبر في البؤس والفقر، والصبر في المرض والضعف، والصبر في القلة والنقص والصبر في الجهاد والحصار والصبر على كل حال كي تنهض بواجبها الضخم وتؤدي دورها المرسوم في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال.. والصبر ترفّع على الألم واستعلاء على الشكوى وثبات على تكاليف الدعوة واداء لتكاليف الحق وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الامور وقبول لحكمه ورضاه.

---

(١) البخاري وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه الشيخان.

ان الصبر وسيلة للمؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو احياناً بلا نهاية والثقة بوعد الله والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك . . الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله وسبيل المؤمن الصبر مهما يطل هذا الطريق ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم .. والصبر ألوان ، وللصبر مقتضيات . . صبر على تكاليف الميثاق من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد .. الخ وصبر على النعماء والبأساء وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ، وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور ، وصبر وصبر وصبر كله ابتغاء وجه الله (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) لا تحرجا من أن يقول الناس جزعوا . ولا تجملا ليقول الناس صبروا ولا رجاء نفع من وراء الصبر . ولا دفعا يأتي به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله . والصبر على نعمته وبلواه صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضا والاقتناع ... والابتلاء لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم فليس الصبر هو احتمال الذلّ والعذاب وكفى ، ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية واستمرار العزم والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان . والصبر توجيه من الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي احتمل ما احتمل وعاني من قومه ما عاني (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) . . ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة وطريق مرير حتى لتحتاج نفس محمد صلى الله عليه وسلم في تجردها وانقطاعها للدعوة وفي ثباتها وصلابتها ، وصفائها وشفافيتها . تحتاج الى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين . نعم وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج الى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج الى صبر ، وإن مرارته لتحتاج الى جرعة حلوة من رحيق العظمة الإلهي المختوم (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وهو زاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل . سواء في مسارب الضمير أو في طريقها في جهاد المناوئين وكلاهما شاق عسير (فاصبر على ما يقولون) . . والصبر هو الصفة التي لا

يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها الا بها ، وهي تحتاج الى الصبر في كل خطوة من خطواتها ، الصبر على شهوات النفس ، والصبر على الاسلام الخالص ، اسلام القلب والوجه ومغالبته للهوى والشهوة والاستقامة على الدين وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف والصبر على مشاق الدعوة وعلى أذى الناس وعلى التواء النفوس وضعفها وانحرافها وتلونها . وعلى الابتلاء والامتحان والفتنة ، وعلى السراء والضراء ، والصبر على كلتيهما شاق عسير . فهو الكلية الاساسية في المنهج الاسلامي . .

وهكذا فان موكب الدعوة الى الله الموغل في القدم الضارب في شعاب الزمان ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب مستقيم الخطى . ثابت الاقدام يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل يقاومه التابعون من الضالين والمتبوعين ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة وتسيل الدماء وتتمزق الاشلاء والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة مهما طال الزمن للمؤمنين . .

ان نصر الله دائماً في نهاية الطريق (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) . وهكذا يرتسم للدعاة الى الله من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقهم واضحاً ودورهم محدداً . كما ترتسم لهم متاعب الطريق وعقباته ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . .

ان هذا القرآن يرسم سنة الله في الدعوات . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب . وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجيء في موعدها لا يعجلها عن هذا الموعد ان الدعاة الابرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب . ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين . ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته

ومن شهواته ، انما يرغب في هداية قومه ، حباً في هدايتهم ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة .. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فان الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه ، ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم أم تعلقت بالأجل المرسوم . .

والدعوة الى الصبر والتوجيه اليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول ، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية موصولة بالهدف البعيد منطلقة كذلك الى الافق البعيد . والصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد (فاصبر لحكم ربك) . . ان مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات التكذيب والتعذيب ومشقات الالتواء والعناد ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه ، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون ثم مشقات إمساك النفس عن هذا كله ، راضية مستقرة مطمأنة الى وعد الله الحق لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج الى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق (فاصبر صبراً جميلاً) والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة ، الراضي بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء . الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به . . وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهي دعوة الله، وهي دعوة الى الله ، ليس له هو منها شيء ، وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله . وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل اذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ومع الشعور بها في اعماق الضمير . . والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون . يقدر الاحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله . . ولكن البشر

لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون ، واذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود . . عندئذ يأتي التثبيت من الله (فاصبر صبراً جميلا) تثبيتاً للقلب على ما يلقى من عنت المناوأة والتكذيب . . (اصبر) . . انها الإشارة الى الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات الله . الطريق الذي يضمهم أجمعين . فكلهم ساروا في هذا الطريق . . كلهم عاني . كلهم ابتلي . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعاً . وطابعهم جميعاً . كل حسب درجته في سلم الانبياء . . لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات مفعمة بالآلام . لكأنما كانت تلك الحياة المختارة — بل إنها كذلك — صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية ، لتسجل كيف تنتصر الروح الانسانية على الآلام والضرورات وكيف تستعلي على كل ما تعتز به في الارض ، وتتجرد من الشهوات والمغريات ، وتخلص لله وتنجح في امتحانه وتختاره على كل شيء سواه . ثم لتقول للبشرية في النهاية هذا هو الطريق . . هذا هو الطريق الى الاستعلاء والى الارتفاع . هذا هو الطريق الى الله . فالصبر هو طريق الرسالات وطريق الدعوات (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . . الدعوة الى الصبر . . الصبر على التكذيب والصبر على الاذى . والصبر على نفخة الباطل وانتفاشه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان . والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا وهناك . والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال . والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الاصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء . . (فاصبر ان وعد الله حق) . مهما يطل الأمد ومهما تتعقد الامور ومهما تتقلب الاسباب . .

ولنقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق . . ان الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يلاقي ما يلاقي من الاذى والتكذيب والكبر والكنود يقال له (فاصبر ان وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون) : أدّ واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من أمرك ، حتى شفاء صدره

بأن يشهد تحقق وعيد الله للمتكبرين والمكذبين ليس له أن يعلق به قلبه .. إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويمضي . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته . ان الأمر كله لله والله يفعل به ما يريد . ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة الى الله في كل حين . فهذا هو حزام النجاة في خضم الرغائب التي تبدو بريئة في أول الأمر ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم .

صبر مرير :

ان اصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها . وأن يصبروا على التكذيب بها . والايذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ، ويحتملوا . ولا بد من أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويُبدئوا فيها ويعيدوا . إنه لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب . مهما واجهوا من انكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فاذا كانت المرة المئة لم تصل الى القلوب ، فقد تصل المرة الواحد بعد المئة . وقد تصل المرة الواحد بعد الألف . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب .

ان طريق الدعوات ليس هيناً ليناً . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات . والنظم والاوضاع يجثم على القلوب . ولا بد من ازالة هذا الركام ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . واحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها .

وان الانسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم اذا لمسة عابرة

تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود . وقد أعيا من قبل كل مجهود .

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة الارسال . . انك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً واياباً فتخطىء المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم اذا حركة عابرة من يدك فتتصل الموجة وتنطلق الاصداء والانغام . ان القلب البشري هو أقرب ما يكون الى جهاز الاستقبال . واصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الارسال . .

انه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ؛ فيهجر الناس .. انه عمل مريح . قد يفثأ الغضب ويهدىء الاعصاب. ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين . . ان الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية . فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون . ان الداعية أداة في يد القدرة والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو . والبقية على الله . والهدى هدى الله . .

(وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) .. ان يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدراً بالقوم وألقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون الى جانبه مضايقات المكذبين . ولولا أن تاب الى ربه واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه ، لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه . .

وان في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه . وأن في رجعة ذي النون الى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لاصحاب الدعوات

ينبغي أن يتدبروها . وان القرآن لا يقص قصة الا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة الا ليغير بها باطلاً انه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حيّ . انه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد . . فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . . انما هو الصبر على تكــاليف هذه الدعوة أيضاً . . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر بها الايمان . . انما هناك المعاناة اليومية التي لا تنتهي . معاناة الاستقامة على أفق الايمان والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك . والصبر في ذلك على الضعف الانساني في النفس وفي الغير ممن يتعامل معهم الداعية في حياته اليومية . . والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر . والصبر على طول الطريق ، وبُعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال . والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان الا واحداً منها . في الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان . .

هذا هو طريق العقيدة المرسوم. توحيد لله وشعور برقابته وتطلع الى ما عنده، وثقة في عدله وخشية من عقابه . ثم انتقال الى دعوة الناس واصلاح حالهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر بالزاد الاصيل . زاد العبادة لله والتوجه اليه بالصلاة ثم الصبر على ما يصيب الداعية الى الله من التواء النفوس وعنادها وانحراف القلوب واعراضها . ومن الأذى تمتد به الالسنة وتمتد به الأيدي ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء (ان ذلك من عزم الامور) وعزم الأمور قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

وان الذين احتملوا في الطريق الى الله ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . اولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن

يضيع أعمالهم ولن ينسى جهادهم . انه سينظر اليهم من عليائه فيرضاهم وسينظر الى جهادهم اليه فيهديهم وينظر الى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر الى صبرهم واحسانهم فيجازيهم خير الجزاء (والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) . . انه الله يأمرنا بالصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الاجيال لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققته الجماعة الأولى التي انتهت الى ما انتهت اليه حتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الاسلام وفي تاريخ البشرية جميعاً .

التواصي بالصبر :

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الايمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بدّ من الصبر . لا بدّ من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير : والصبر على الأذى والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل وتنفّج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم وبُعد النهاية .. والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة بما يبعثه من احساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه وتساند الجميع . وتزودهم بالحب والعزم والاصرار . . الى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا يعيش حقيقة الاسلام الا في جوها ، ولا تبرز الا من خلالها والا فهو الخسران والضياع (والعصر إنّ الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . فالصبر هو العنصر الضروري للايمان بصفة عامة والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة وتواصيها على معاني الصبر وتعاونها على تكاليف الايمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس : تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الايمان في الارض وحمل تكاليفه . فيوصي بعضها بعضاً فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . . وان يكن قائماً على الصبر الفردي

(ثم كان من الذين آمنوا وتوا صوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهو ايحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت . ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

٢ ــ الصلاة :

ان المتأمل في أسرار هذا القرآن وفي أسرار المنهج الرباني للتربية المتمثل فيه ، يطلع على عجب من اللفتات النفسية النافذة الى اعماق الروح البشرية . ومنها اللفتة في ساحة المعركة الى الصلاة (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم . فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يُصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم؛ وَدّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم ان الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً) . وهذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الايماني . أن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة . بل انها السلاح . . ولقد كان أولئك الرجال الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح . لقد كانوا متفوقين في ايمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة . ويشعرون انه معهم في المعركة . متفوقين كذلك في ايمانهم بهدف يقاتلون من أجله ويشعرون أنه أرفع الاهداف جميعاً . متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الانساني . . وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله وتذكيراً بهذا كله . ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة بل كانت هي السلاح (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون).

طول الأمد ويشق الجهد قد يضعف الصبر أو ينفد اذا لم يكن

ومن ثم يقرن الله سبحانه الصلاة الى الصبر . فهي المعين

الذي لا ينضب والزاد الذي لا ينفد . . المعين الذي يجدد الطاقة والزاد الذي يزود القلب فيمتد حول الصبر ولا ينقطع ثم يضيف الى الصبر الرضى والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين .. انه لا بد للانسان الفاني المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حين يواجه قوى الشر الباطنة والظاهرة . حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات واغراء المطامع . وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ثم ينظر فاذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب . ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب. حينما يجد الشر نافشاً والخير ضاوياً ولا شعاع في الأفق ولا معالم في الطريق . . . هنا تبدو قيمة الصلاة . . انها الصلة المباشرة بين الانسان الفاني والقوة الباقية . . انها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض . انها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض . انها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير الى مجال الواقع الكوني الكبير. انها الروح والندى والظلال في الهاجرة. انها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود . . ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان في الشدة قال : (أرحنا بها يا بلال) . ويكثر من الصلاة اذا حز به أمر ليكثر من اللقاء بربه .

ان هذا المنهج الاسلامي منهج عبادة . . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وانها مدد الروح وانها جلاء القلب . وانه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر .. ان الله سبحانه حينما انتدب محمداً صلى الله عليه وسلم للدور الكبير الشاق قال له (يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) . فكان الاعداد للقول الثقيل . والتكليف الشاق والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن .. انها العبادة التي تفتح القلب وتوثق الصلة وتيسر الأمر وتشرق بالنور وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان . . وقيام الليل هو الاعداد للمهمة الكبرى بوسائل الاعداد

الالهية المضمونة قيام الليل أكثره: أكثر من نصف الليل، ودون ثلثيه، وأقله ثلث الليل. هكذا كان يقوم الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم للصلاة وترتيل القرآن (قم الليل الاقليلاً نصفه او انقص منه قليلاً أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلاً).

ان قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها. والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره. والانس بالوحدة معه والخلوة اليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الاعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة. واستقبال اشعاعاته وايحاءاته وايقاعاته في الليل الساجي.

ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول و ينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل. وينير للقلب في الطريق الشاق الطويل ويعصمه من وسوسة الشيطان ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ويعلم ما يتسرب اليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً، وأي الاسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه. فهو سبحانه يقول (ان ناشئة الليل هي اشد وطئاً وأقوم قيلاً) فالآية تقول: ان ناشئة الليل هي أشد وطئاً أي أجهد للبدن. واقوم قيلاً: أي أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش. بعد كد النهار. أشد وطئاً وأجهد للبدن ولكنها اعلان لسيطرة الروح واستجابة لدعوة الله. وايثار للأنس به. ومن ثم فانها أقوم قيلاً. لأن للذكر فيها حلاوته وللصلاة فيها خشوعها. وللمناجاة فيها شفافيتها، وانها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره..

فلا بد من التعبئة الروحية الى جوار التعبئة النظامية. وهما معاً ضروريتان للافراد والجماعات.. وقد يجد المؤمنون انفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي. وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت وأنتنت البيئة. وهنا لا بد من الزاد

للاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترات لأنه أمر شاق عسير يحتاج الى زاد معين (واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل) (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب) . ان هذه الدعوة لطريقها طويل تتطلب عبادة طويلة وتهجداً ودعاء الى الله وهذا ما يصف الله به عباده المؤمنين . (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) انها ترسم صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب الى الرقاد والراحة والتذاذ المنام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب وأن كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلاً عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذة . شغلاً بربها. شغلاً بالوقوف في حضرته . وبالتوجه اليه في خشية وفي طمع تتنازعها الخوف والرجاء . طالبة المدد والزاد . (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) واذا كان الرسول يؤمر بالصلاة والتهجد .. وهو المصطفى المختار . فما أحوج الآخرين الى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به في درجاتهم . . فهذا هو الطريق . . وهذا هو زاد الطريق . . .

٣ ـ الدعاء :

ويقف الداعية ليناجي ربه بعيداً عن عيون الناس . بعيداً عن اسماعهم . في عزلة يخلص فيها لربه ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال (يا رب . .) بلا واسطة . وان ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء . ولكن المكروب يستريح الى البث . ويحتاج الى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر . فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) . . ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق . ولتطمئن قلوبهم الى أنهم قد عهدوا بأعبائهم الى من هو أقوى واقدر . وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ

اليه ولا يخيب من يتوكل عليه . . والدعاء يسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة ، والودّ المؤنس . والرضى المطمئن ، والثقة واليقين . ويعيش المؤمن في جناب رضي ، وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) . أخرج ابو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن ميمون — باسناده — عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين) . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي) .

٤ — الذكر والتسبيح :

(فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) .. ويحتاج الصبر على الكفر والاستهزاء والجحود والاعراض الى تسبيح كثير حتى يرتفع ضيق الصدر . . فاتجه الى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . في هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة وفي هدأة الغروب والشمس تودّع والكون يغمض اجفانه . وسبح بحمده فقرات من الليل والنهار . . كن موصولاً بالله على مدار اليوم . . (لعلك ترضى) . . ان التسبيح بالله اتصال . والنفس التي تتصل تطمئن وترضى وهي في ذلك الجوار الرضي . وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن ، فالرضا ثمرة التسبيح والعبادة وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع في حنايا القلب . . انه لا بد للداعية من الزاد ليقوى به على مشاق الطريق . . وان العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين . انه ليس منهج معرفة نظرية وجدل لاهوتي . انه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري . وللواقع البشري جذوره وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء .. وتغيير هذا الواقع الجاهلي الى الواقع الرباني الذي يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة

تحتاج الى جهد طويل والى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة . ولا قِبَلَ له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمده من ربه . انه ليس العلم وحده وليست المعرفة وحدها ، انما هي العبادة لله والاستمداد منه ، هي الزاد وهي السند وهي العون في الطريق الشاق الطويل (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً) . انه زاد الطريق وعدة الموكب الكريم في هذا الطريق . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء واسجد له في الليل وسبحه طويلاً .. انه الاتصال بالمصدر الذي نزّل القرآن . انه الاتصال بصاحب الدعوة فهو ينبوع القوة ، ومصدر الزاد والمدد . . الاتصال به ذكراً وعبادة ودعاء وتسبيحاً . . ليلاً طويلاً . . فالطريق طويل والعبء ثقيل ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير وهو هناك حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تطلع وفي أنس تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة، وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل، وترى عظمة التكليف وضخامة الامانة فتستصغر ما لاقته وما تلاقي من أشواك الطريق .

٥ ــ الصوم :

ان الصوم يوقظ التقوى في القلوب. والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ولو تلك التي تهجس في البال . والصوم يحكم سلوك المتعبد ويربي ضميره . . ومن الطبيعي أن يُفرض الصوم على الامة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله لتقرير منهجه في الارض وللقوامة به على البشرية . وللشهادة على الناس . فالصوم هو مجال تقرير الارادة العازمة الجازمة . ومجال اتصال الانسان بربه اتصال طاعة وانقياد . كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها واحتمال ضغطها وثقلها ايثاراً لما عند الله من الرضى والمتاع . وهذه كلها عناصر لازمة في اعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والاشواك . والذي تتناثر على جوانبه الرغائب والشهوات والذي تهتف بسالكيه آلاف المغريات . وان الغاية من الصوم هي الاعداد للدور العظيم الذي أخرجت هذه الامة لتؤديه اداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير .

وهكذا يحتاج الداعية الى هذا الزاد الكبير زاد العبادة (فاعبده واصطبر لعبادته) اعبده واصطبر على تكاليف العبادة ، وهي تكاليف الارتقاء الى افق المثول بين يدي المعبود والثبات في هذا المرتقى العالي . اعبده واحشد نفسك وعبيء طاقتك للقاء ، والتلقي في ذلك الافق العلوي . . انها مشقة .. مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ومن كل هاتف ومن كل التفات . . وانها مع المشقة للذة لا يعرفها الا من ذاق . ولكنها لا تنال الا بتلك المشقة والا بالتجرد لها والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة . فهي لا تفشي سرها ولا تمنح عطرها الا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً (فاعبده واصطبر لعبادته) . .

والعبادة في الاسلام ليست مجرد الشعائر . انما هي كل نشاط : كل حركة ، كل خالجة ، كل نية ، كل اتجاه . . و انها لمشقة ان يتجه الانسان في هذا كله الى الله وحده دون سواه ، مشقة تحتاج الى الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط الارض الى السماء . وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة انه يتعبد الله فيرتفع في نشاطه كله الى أفق العبادة الطاهر الوضيء . وانه لمنهج يحتاج الى الصبر والجهد والمعاناة .

٦ ـ التقوى :

التقوى هي زاد القلوب والارواح منها تقتات . وبها تتقوى وترف وتشرق . وعليها تستند في الوصول والنجاة وأولو الالباب هم أول من يدرك التوجيه الى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب) . .

التقوى : حساسية في الضمير وشفافية في الشعور وخشية مستمرة وحذر دائم وتوق لأشواك الطريق . . طريق الحياة . . الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات واشواك المطامع والمطامح وأشواك المخاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك اجابة رجاء . والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً وعشرات غيرها من الاشواك . . والتقوى هي التي تهيىء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وان يستجيب . . (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) . .

وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى . قال فما عملت . قال شمرت واجتهدت . قال فذلك التقوى . .

هي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ، ويحرسه أن يضعف ، ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك ولا يدرك الحاجة الى هـذا الحارس اليقظ الا من يُعاني مشاق هـذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وفي شتى اللحظات .. والاستقامة على الطريق والاعتدال والمضي على النهج دون انحراف هو في حاجة الى التقوى ، الى اليقظة الدائمة والتدبر الدائم. والتحري الدائم بحـدود الطريق وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . .

والتقوى هي التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون) . .

والمؤمن كلما اقترب بتقواه من الله تيقظ شوقه الى مقام أرفع مما بلغ والى مرتبة وراء ما ارتقى ، وتطلع الى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام . وهكذا الاستسلام.الاستسلام لله ،طاعة له واتباعاً لمنهجه واحتكاماً إلى كتابه . هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة الاسلامية لتحقق وجودها وتؤدي دورها اذ انه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة . انما تكون مناهج جاهلية . .

ولا تنهض القلوب بالاعباء الثقال الا وهي على بينة من أمرها. وكثيراً ما يهتف الله سبحانه بالمؤمنين بالتقوى : (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) انه الهتاف بالتقوى . . نور يكشف الشبهات ويزيل الوساوس ويثبت الاقدام على الطريق الشائك الطويل . . هذا هو الزاد . . وهذه هي عدة الطريق . . زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقي .

وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مدّ البصر . فلا تنبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة . . ثم هو زاد المغفرة والخطايا الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار . وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الازواد ، وتقصر الاعمال . . انها حقيقة . ان تقوى الله تجعل في القلب فرقاناً يكشف له منعرجات الطريق ولكن هذه الحقيقة ككل حقائق العقيدة لا يعرفها الاّ من ذاقها فعلاً . ان الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقها . ان الامور تظل متشابكة في الحس والعقل والطوق . وتظل متشابكة في النظر والفكر . والباطل يظل متلبساً بالحق عند مفارق الطريق . وتظل الحجة تضخم ولكن لا تقنع . وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل . ويظل الجدل عبثاً والمناقشة جُهداً ضائعاً . . ذلك ما لم تكن هي التقوى . . فاذا كانت استنار العقل ووضح الحق وتكشف الطريق واطمأن القلب واستراح الضمير و استقرت القدم وثبتت على الطريق . ان الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة . . ان هناك اصطلاحاً من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذي خلقت به السماوات والارض ... ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة .. الهوى الذي ينشر الغبش ويحجب الرؤية ويعمي المسالك ويخفي الدروب . والهوى لا تدفعه الحجة ، انما تدفعه التقوى . تدفعه مخافة الله ومراقبته في السر والعلن . ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ويرفع اللبس ويكشف الطريق .

٧ ـــ الارادة :

لا بد من تربية الارادة وتأكيد الشخصية والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الانسانية حرية **الانطلاق** من الضرورات عندما تريد. فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها . لا بد من قوة كامنة تقف أمام القوة الظاهرة الغالبة ، وهذه القوة الكامنة لا تكون الا في الارادة . الارادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق . وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة ، وتتحمل تكاليفها ، وتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . . وان الفارق الرئيسي بين الانسان والحيوان : ان للانسان ارادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة. فاذا فقد هذا كله فقد أهمّ خصائص الانسان المميزة لجنسه وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله . . فلا بد من تحرير

الارادة لتعتاد الصمود والثبات . وان هذا لضروري لكل من يحملون دعوة الله . ويؤهلون لأمانة الخلافة في الارض . وقد كان اختبار الارادة والاستعلاء على الاغراء . هو أول اختبار وجّه من قبل الى آدم وحواء . . فلم يصمدا له . واستمعا الى اغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما.وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) .

ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الارض . . إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواه .

وكثير من الناس من تهيج مطامعهم أمام الاغراء فتتهاوى عزائمهم وينسون عهدهم مع الله. فيحتالون الحيل . وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب وتقل التقوى . ويصبح التعامل مع مجرد النصوص. ويراد التفلت من ظاهر النصوص ويقولون سيغفر لنا . وان الدراسة لهذا الدين لا تجدي ما لم تخالط القلوب . وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة . . انما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا . ويحرفوا الكلم عن مواضعه . ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تزيد لهم عرض الحياة الدنيا . وهل آفة الدين الا الذين يدرسونه ولا يأخذونه عقيدة ولا يتقون الله ولا يرهبونه .. ان هذه الشريعة جاءت ليحكم بها . لا لتعرف وتدرس وتتحول الى ثقافة في الكتب والدفاتر . جاءت لتتبع في كل دقة ولا يترك شيء منها. ويستبدل به حكم آخر في صغيرة من شؤون الحياة أو كبيرة . . فاما هذا واما فهي الجاهلية والهوى . . ومتى طاشت الارادة سيطر الهوى . . ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع اليه الا هواه فهو إلهه الذي يتعبده ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً في القرآن وهو يعجب من أمره ويشهد بغفلته وعماه (أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟) . . .

الباب التاسع

الابتلاء

١ – توجيه قرآني :

قال الله سبحانه وتعالى (لتبلون في أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . . انها سنة العقائد والدعوات . لا بدّ من بلاء ، ولا بدّ من أذى في الأموال والأنفس . ولا بدّ من صبر ومقاومة واعتزام . . انه الطريق . . الطريق الى الجنة وقد حُفت الجنة بالمكاره ، بينما حُفت النار بالشهوات . ثم انه هو الطريق الذي لا طريق غيره لانشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها . طريق التربية لهذه الجماعة واخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف المعروفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة . ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها اذاً والصبر عليها . فهم عليها مؤتمنون وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطون فيها بعد ذلك مهما تكن الاحوال وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة .

فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة وتنميها وتجمعها وتوجهها . والدعوة الجديدة في حاجة الى استثارة هذه القوى لتتأصل جذورها وتتعمق . وذلك لكي

يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم ، هم أنفسهم ، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية ، ويعرفون حقيقة النفس البشرية وخباياها وحقيقة الجماعات والمجتمعات وهم يرون كيف تصطرع مبادىء دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس ، ويعرفون مداخل الشيطان الى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ومسارب الضلال . ثم لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير ولا بد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون . فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها اليها . . أفواجاً . . في نهاية المطاف . . انها سنّة الدعوات ، وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ في ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في النصر ، وهو يعاني الشدائد . ما يصبر على ذلك الا أولو العزم الاقوياء (وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور) . وهكذا علمت الجماعة المسلمة الأولى ما ينتظرها من تضحيات وآلام وما ينتظرها من أذى وبلاء في الانفس والأموال ، ولكنها سارت في الطريق ولم تتخاذل ولم تتراجع ولم تنكص على أعقابها . . لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت ، وأن توفية الاجور يوم القيامة ، وان هذه الحياة الدنيا ما هي الا متاع الغرور . . على هذه الارض الصلبة المكشوفة كانت تقف ، وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو . . والارض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان ، والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل انسان ، وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال . . والقرآن هو القرآن . .

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان ، وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة ووسائل ايذائها في سمعتها ، وفي مقوماتها ، وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها . ولكن القاعدة واحدة (لتبلون في أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . وهكذا يكشف الله لنا تبارك وتعالى عن طبيعة الدعوة وطبيعة الاعداء الراصدين لها في الطريق . ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيداً للجماعة المسلمة كلما همّت أن تتحرك بهذه العقيدة وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض . فتتجمع عليها

وسائل الكيد والفتنة ، ووسائل الدعاية الحديثة لتشوه أهدافها وتمزق أوصالها . يبقى هذا التوجيه القرآني حاضراً يجلو أبصارها بطبيعة هذه الدعوة وطبيعة طريقها وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق . ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك . فتعرف حين تناوشها الذئاب بالأذى وحين تعوى عليها بالدعاية ، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة .. انها سائرة في الطريق . . وانه هو الطريق . . ومن ثم تستبشر بالابتلاء والفتنة والأذى والادعاء الباطل عليها ، واسماعها ما يكره ويؤذي . . تستبشر بهذا كله لأنها تستيقن منه انها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها ، وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق ، ويبطل عندها الكيد والبلبلة ، ويصغر عندها الابتلاء والأذى ، وتمضي في طريقها الموعود الى الأمل المنشود في صبر وفي تقوى وفي عزم أكيد .

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين) . لا بدّ من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعزّ على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف . . والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي اصحابها تكاليفها لا يعزّ عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين ، وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها . . كانت أعزّ عليهم وكانوا أضنّ بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها الا حين يرون ابتلاء أهلها بها ، وصبرهم على بلائها . انهم عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يُبتلون به وأكبر ، ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه . . وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها . مقدرين لها ، مندفعين اليها .. وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجاً . .

ولا بدّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان

ليعلمها المؤمن في نفسه الا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم الا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب . وأهم من هذا كله ، أو القاعدة لهذا كله . . الالتجاء الى الله وحده حين تهتز الاسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب الى الله وحده لا يجد سنداً الا سنده . وفي هذه اللحظة قد تنجلي الغشاوات وتتفتح البصيرة وينجلي الأفق على مد البصر .. لا شيء الا الله . . لا قوة الا قوته ، لا حول الا حوله . . لا ارادة الا ارادته . . لا ملجأ الا اليه . . وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها التصور الصحيح (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) انا لله . . وكلنا . . كل ما فينا . . كل كياننا وذاتيتنا . . لله واليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير . التسليم . . التسليم المطلق ، وهؤلاء ينعم عليهم الجليل بصلوات منه يرفعهم الى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) . .

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الاعداد العجيب ، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من البشر أجمعين . . لذلك ان الله قد وضع الابتلاء لينكشف المجاهدون ويتميزوا ، وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ، ولا أمر الضعاف الجزعين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم) . .

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها ويطلع على خفاياها ويعلم ما يكون من أمرها علمه ما هو كائن فعلاً . فما هذا الابتلاء؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه . ان الله جلت حكمته يأخذ البشر بما هو في طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم . وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه . فلا بد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها . والابتلاء بالسراء والضراء وبالنعماء والبأساء وبالسعة والضيق وبالفرج والكرب.. كلها تكشف

عما هو مخبوء من معادن النفوس وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها . .
وان العبد المؤمن يرجو الا يتعرض لبلاء الله وامتحانه ، ويتطلع الى عافيته ورحمته . فاذا أصابه بلاء بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته متطلعاً الى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

٢ ـ سُنَّة جارية :

ان الايمان ليس كلمة تقال باللسان ، انما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج الى صبر ، وجهد يحتاج الى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم ، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به . وكذلك تصنع الفتنة في القلوب (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) هذه الفتنة على الايمان أصل ثابت وسنّة جارية في ميزان الله سبحانه : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء . ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ، فيحاسب الناس اذن على ما يقع من عملهم ، لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ، وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً الا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله ، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه . .

ان الايمان امانة الله في الأرض ، لا يحملها الا من هم لها أهل . وفيهم على حملها قدرة وفي قلوبهم تجرد لها واخلاص والا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والاغراء . وانها لأمانة الخلافة في الارض وقيادة الناس الى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة ، فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة ، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج الى طراز خاص يصبر على الابتلاء . .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للاذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة . ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة ولكنها ليست أعنف صور الفتنة فهناك فتن كثيرة في صور شتى ربما كانت أمرّ وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعاً ، وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ، وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى والهلاك .

وهناك فتنة اقبال الدنيا على المبطلين ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم في طريقهم العوائق ، وتُصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكر . لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه الا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً . وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله ، وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة وهو وحده مُوحش غريب طريد . .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة وهي مع ذلك راقية في مجتمعها ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ، ويجدها غنية قوية ، وهي مشاقة الله . .

وهناك الفتنة الكبرى أكبر من هذا كله وأعنف : فتنة النفس والشهوة ، وجاذبية الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان . أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الايمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابسات الحياة وفي منطق البيئة ، وفي تصورات أهل الزمان . فاذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله : كانت الفتنة أشد

وأقسى . وكان الابتلاء أشدّ وأعنف . ولم يثبت الا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الايمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان . وما بالله – حاشا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة ، ولكنه الاعداد الحقيقي لتحمل الأمانة ، فهي في حاجة الى اعداد خاص . لا يتم الا بالمعاناة العملية للمشاق ، والا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات . والا بالصبر الحقيقي على الآلام ، والا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء . . والنفس تصهرها الشدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع وتطرقها بعنف وشدة ، فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامداً الا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة واشدّها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين : النصر أو الاجر . وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار . وانهم ليسلمون الامانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن ، وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ، وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات . والذي يبذل من دمه وأعصابه ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته ، ثم يصبر على الأذى والحرمان ، يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل . فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام . فأما انتصار الايمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله وما يشك مؤمن في وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدرة ، فيها الخير للايمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق واهله من الله . وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ويقع عليهم البلاء أن يكونوا هم المختارين من الله ليكونوا أمناء على حق الله ، وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء : جاء في الصحيح : (أشدّ الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة زيد له في البلاء). ان الفتنة سنّة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف . وان هنالك نموذجاً من الناس يعلن كلمة الايمان في الرخاء . يحسبها

خفيفة الحمل هيّنة المؤونة ، لا تكلف نطقها باللسان ، فاذ أوذي بسبب الكلمة التي قـالها ، وهو آمن معافى استقبلها في جزع واختلت في نفسه القيم واهتزت في ضميره العقيدة (ومن الناس من يقول آمنا بالله . فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) وتصوّر أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه حتى عذاب الله ، وقال في نفسه ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء ، فعلام أصبر على الايمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من العذاب . . وان هو الا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) .

ففي معترك الحياة ومصطرع الاحداث تنمو الشخصية المسلمة وتصاغ . ويوماً بعد يوم وحدثاً بعد حدث تنضج هذه الشخصية وتنمو ، وتتضح سماتها . . كانت الجماعة المسلمة الأولى التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز الى الوجود بمقوماتها الخاصة وقيمها الخاصة ، وطابعها المميز بين سائر الجماعات . . وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحياناً درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ، فلا تعود خليطاً مجهول القيم . . وكان القرآن الكريم يتنزل في ابان الابتلاء أو بعد انقضائه ، يصور الأحداث ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه فتنكشف المواقف والمشاعر والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور ، عارية من كل رداء وستار . ويلمس فيها موضع التأثر والاستجابة ، ويربيها يوماً بعد يوم وحادثاً بعد حادث ، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد . ولم يترك المسلمون لهذا القرآن يتنزل بالأوامر والنواهي وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة ، انما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات والفتن والامتحانات فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة ، ولا تنضج نضجاً صحيحاً ، ولا تصح وتستقيم على منهج الا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية التي تحفر في القلوب وتنقش في الاعصاب وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث . اما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع

ودلالته ، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة ساخنة بحرارة الابتلاء . قابلة للطرق ، مطاوعة للصياغة .

ولقد كانت فترة عجيبة حقاً تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فترة اتصال السماء بالأرض اتصالاً مباشراً ظاهراً مبلوراً في أحداث وكلمات . ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه ، وأن سمع الله اليه ، وان كل كلمة منه وكل حركة . بل كل خاطر وكل نية ، قد يصبح مكشوفاً للناس يتنزل في شأنه قرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين كان كل مسلم يحس الصلة مباشرة بينه وبين ربه ، فاذا حزبه أمر أو واجهته معضلة انتظر أن تفتح أبواب السماء غداً أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته ، وفتوى في أمره ، وقضاء في شأنه . وحين كان الله سبحانه بذاته العلية . يقول : أنت يا فلان بذاتك قلت كذا ، وعملت كذا ، وأضمرت كذا ، وأعلنت كذا وكن كذا ، ولا تكن كذا . ويا له من أمر هائل عجيب . يا له من أمر هائل عجيب أن يوجّه الله خطابه المعين الى شخص معين . هو وكل من على هذه الأرض وكل ما في هذه الأرض ، وكل هذه الأرض ذرة صغيرة في ملكه الكبير .

لقد كانت فترة عجيبة حقاً يتملاها الانسان اليوم ويتصور حوادثها ومواقفها وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع . الأضخم من كل خيال ، ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم وتنضج شخصيتهم المسلمة . بل أخذهم بالتجارب الواقعية والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي ، وكل ذلك لحكمة يعلمها . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . .

وهذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلاً ندركها ونتدبرها . ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الادراك وهذا التدبير . وان النصوص القرآنية تغفل أسماء الاشخاص . وأعيان الذوات ، لتصور نماذج البشر ، وانماط الطباع . وتغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، لتصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ولا تنقطع بذهاب الاشخاص ولا

تنقضي بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل .
ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ،
ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف. ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه
والتعقيب والربط بالأصل الكبير .. ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها
وشهدوا احداثها ، فانه كان يزيدهم بها خبراً ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم
يدركوه ، وهم أصحابها وأبطالها ، ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات
القلوب ومخبآت الضمائر. ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في
اعماق الصدور .. ان النص القرآني معدّ للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا
الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي
كل تاريخ . معد للعمل في النفس البشرية اطلاقاً ، كلما واجهت مثل ذلك
الحادث او شبهه في الآماد الطويلة والبيئات المنوعة ، بنفس القوة التي عمل بها
في الجماعة الأولى ، ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم الا من يواجه مثل
الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح
القلوب لادراك مضامينها الكاملة ، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور
الى قوى وطاقات ، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها . تنتفض خلائق حيّة
موحية دافعة دافقة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها الى حركة حقيقية في عالم الواقع
وعالم الضمير .

وهناك نموذج من الناس مكرور في كل جيل يزن العقيدة بميزان الربح
والخسارة . يظنها صفقة في سوق التجارة : (ومن الناس من يَعبد الله على حرف
فان اصابه خير اطمأن به . وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا
والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك
هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) .

ان العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله ،
فيثبت هو على هذه الركيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدوافع ، فيتشبّث هو بالصخرة
التي لا تتزعزع ، وتتهاوى من حوله الاسناد ، فيستند هو الى القاعدة التي لا تحول

ولا تزول . هذه هي قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوي عليها ، متمكناً منها، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء — فهي في ذاتها جزاء. ذلك أنها الحمى الذي يلجأ اليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوى اليها . ويطمئن بها. هي في ذاتها جزاء، يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق ، بينما هو بعقيدته مطمئن القلب. ثابت القدم، هادىء البال ،موصول بالله مطمئن بهذا الاتصال. أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق ، فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة (فان اصابه خير اطمأن به) . وقال ان الايمان خير . فها هوذا يجلب النفع ، ويدر الضرع . وينمي الزرع ، ويربح التجارة، ويكفل الرواج. (وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) . خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع الى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له . والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله (على حرف) غير متمكن من العقيدة ولا متثبت في العبادة . يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة . ووقفته المتأرجحة تمهد له من قبل لهذا الانقلاب . .

ان حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة. فالعقيدة حق يعتنق لذاته . بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك الا أن ينفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى فهي لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها . والمؤمن يعبد ربه شكراً لله له على هدايته اليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والانس به . فان كان هناك جزاء فهو فضل من الله ومنّة . استحقاقاً على الايمان أو العبادة . والمؤمن لا يجرب إلهه فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه، راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء . وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار . انما هي اسلام

المخلوق للخالق . صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس . والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب (ذلك هو الخسران المبين) . . يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضا الى جوار خسارة المال أو الولد أو الصحة ، أو اعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده ، ويبتلي بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه، واخلاصهم انفسهم له، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره.. ويخسر الآخرة بما فيها من نعيم وقربى ورضوان. فيا له من خسران.

والى اين يتجه هذا الذي يعبد الله على حرف ؟ الى اين يتجه بعيداً عن الله ؟ انه (يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) : يدعو صنما أو وثناً على طريقة الجاهلية الأولى، ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهلية المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه الى الله وحده ، والسير على صراطه ومنهجه . . فما هذا كله ؟ انه الضلال عن المتجه الوحيد الذي يجدى فيه الدعاء (ذلك هو الضلال البعيد) المغرق في البعد عن الهدى والاهتداء . . (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) . من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الانسان . . وهذا كله لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر، وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، واثقاله بالوهم واثقاله بالذل . وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران .

فمن مسّه الضر في فتنة من الفتن وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء . فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بنفسه كل مذهب . فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخية ، وكل رجاء في الفرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على

صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء . الا أنه لا سبيل الى احتمال البلاء الا بالرجاء في نصر الله . ولا سبيل الى الفرج الا بالتوجه الى الله . ولا سبيل الى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص الا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ، ولا نتيجة الا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله . . فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح الله .

٣ — حقيقة الابتلاء :

هناك حقيقة يجب أن يقف أمامها الدعاة يتملونها كثيراً . . وهي قدر الله أن يكون لكل نبي عدو ، هم شياطين الأنس والجن ، وقدره أن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ، ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدر الله أن تصغى الى هذا الزخرف افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . ويرضوه ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل والحق ، ومن الضلال والفساد في الأرض . . كل ذلك انما يجري بقدر الله ، وفق مشيئته . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه — فذرهم وما يفترون . ولتصغي اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون) .

فاذا تقرران هذا الذي يجري في الأرض من المعركة الناشبة التي لا تهدأ بين الرسل والحق الذي معهم ، وبين شياطين الأنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . اذا تقرران هذا الذي يجري في الأرض انما يجري بمشيئة الله . ويتحقق بقدر الله ، فان المسلم ينبغي أن يتجه اذاً الى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري ، والقدرة التي وراءه .. هكذا يوضح الله تبارك وتعالى : بارادتنا وتقديرنا جعلنا لكل نبي عدواً . . هذا العدو هو شياطين الأنس والجن : والشيطنة وهي التمرد والغواية والتمحض للشر ، صفة تلحق بالأنس كما

تلحق بالجن : ذلك أن هذه الحقيقة اذا عرفها القلب يجب أن تقرر :

١ ــ ان الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ويقفون بالأذى لاتباع الانبياء هم شياطين . . شياطين من الأنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً وظيفة واحدة وأن بعضهم يخدع بعضاً، ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

٢ ــ ان هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرون على شيء من عداء الانبياء ، وايذاء اتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . . انما هم في قبضة الله ، وهو يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فاذا اجتازوا الامتحان بقوة ، كفّ الله عنهم الابتلاء . وكفّ عنهم هؤلاء الاعداء ، وعجز هؤلاء الاعداء أن يمدوا اليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله . وآب اعداء الله بالضعف والخذلان وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم .

٣ ــ ان حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت ان يترك لشياطين الانس والجن أن يتشيطنوا ، فهو ــ انما يبتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرة ــ وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمن ــ فهو انما يبتلي أولياءه كذلك لينظروا : أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ ايخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله على السراء والضراء سواء . . وفي المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذي كان .

٤ ــ ان هوان الشياطين من الأنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم . فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر ، وهو الذي يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى .

ان هذا المشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة ، ومشيئة الله المهيمنة ،

وقدره النافذ جدير بأن نقف أمامه : انها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الأنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لامضاء خطة مقررة . . هي عداء الحق الممثل في رسالات الانبياء وحربه .. خطة مقررة في وسائلها (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) .. يمد بعضهم بعضا بوسائل الخداع والغواية ، وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . .

ان الشياطين يتعاونون فيما بينهم ، ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً. انهم لا يهدون بعضهم البعض الى الحق أبداً ، ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلا . . ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً . . انه محاط بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد – على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه – مقيداً مغلولاً . انه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وارادتهم .. كلا إن ارادتهم مقيدة بمشيئة الله ، وقدرتهم محدودة بقدر الله ، وما يضرون أولياء الله بشيء الا بما اراده الله – في حدود الابتلاء – ومرد الأمر كله الى الله . ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها .. ومشهد احاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرها جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ وبالسلطان الحق الاصيل في هذا الوجود . وان يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق بعد بنائه في قلوبهم ، هم ، وفي حياتهم ، أما عداوة الشياطين وكيد الشياطين ، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ (ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) .

انها سنة جارية أن ينتدب الله في كل قرية – وهي المدينة الكبيرة أو العاصمة – نفراً من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله. ذلك أن دين الله

يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الاكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس ، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب ، ويرد هذا كله الى الله وحده .. رب الناس . . ملك الناس . . إله الناس . . انها سنة من أصل الفطرة . . ان يرسل الله رسله بالحق . . بهذا الحق الذي يجرد مدعي الألوهية من الالوهية والربوبية والحاكمية . فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسل الله . ثم يمكرون مكرهم في القرى ، ويوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً . ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى ، وفي نشر الباطل والضلال ، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي .. (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون) . انها سنة جارية ، ومعركة محتومة ، لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله — وهي رد الحاكمية كلها لله — وبين أطماع المجرمين في القرى . بل بين وجودهم أصلاً . . معركة لا مفر للنبي أن يخوضها ، فهو لا يملك أن يتقيها ، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يمضوا الى النهاية فيها . . والله سبحانه يطمئن أولياءه . . إن كيد أكابر المجرمين — مهما ضخم واستطال — لا يحيق الا بهم في نهاية المطاف . ان المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها ، وهو حسبهم ، وهو يرد على الكائدين كيدهم (وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون) . فليطمئن المؤمنون .

٤ — طبيعة الابتلاء :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً) . ولله الحكمة البالغة : فان بروز المجرمين لحرب الانبياء والدعوات ، يقوى عودها ، ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها — مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق — هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة ، وهو الذي يمحص القائمين عليها ، ويطرد الزائفين منهم . فلا يبقى بجوارها الا العناصر القوية المؤمنة المتجردة التي

لا تبتغي مغانم قريبة ، ولا تريد الا الدعوة خالصة تبتغي بها وجه الله تعالى .

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالازهار ، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على كل انسان ان يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ووقعت البلبلة والفتنة .ولكن بروز الخصم والاعداء للدعوات هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً ، فلا يكافح ويناضل ويحتمل الآلام والتضحيات الا أصحاب دعـوة الحق الجادّون المؤمنون ، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع واعراض الحيـاة الدنيا ، بل على الحياة نفسها ، حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير الاّ أصلبهم عوداً وأشدهم ايماناً وأكثرهم تطلعاً الى ما عند الله واستهانة بما عند الناس . عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل ، وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الاقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها واجتازوا امتحانها وبلاءها ،أولئك هم الامناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . .

وان التجارب والابتلاءات تعلم الدعاة كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . والذي يقع غالباً أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات . حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ماضون في طريقهم . قالت الكثرة المتفرجة . أو شعرت . أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام ، الا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن .. وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة ، ويرجح على الحياة ذاتها عند اصحاب الدعوة ، وعندئذ يدخل المتفرجون افواجاً في هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع .. من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين يقفون في وجه دعوة الحق ؛ وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ، فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ومعروفة

لا يخطئها الواثقون بالله .. انها الهداية الى الحق والانتهاء الى النصر (وكفى بربك هادياً ونصيراً) ..

وبروز المجرمين في الطريق أمر طبيعي . فدعوة الحق انما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو البشرية . فساد في القلوب . وفساد في النظم . وفساد في الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة ، التي يستندون هم في وجودهم اليها .. فطبيعي اذن ان يبرزوا للانبياء والدعوات دفاعاً عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ولا يستطيع الحياة الا في المقاذر . وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري ولا يستطيع الحياة الا في المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون. فطبيعي اذن أن يكونوا اعداء لدعوة الحق ، يستميتون في كفاحها ، وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية لانها تسير مع خط الحياة ، وتتجه الى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما اراده الله . . فليصبر من يثق بالله وحكمته ونصره ، ولتمضي الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر ، وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) .

٥ — ابتلاء شديد :

والابتلاء ألوان . ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص ، وابتلاء للتقويم (ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين). (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .. والابتلاء بالشر مفهوم أمره، ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته بربه ، ورجائه في رحمته . . فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة الى بيان . .

ان الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وان خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر . . ان كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر . ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء

بالخير . كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .. ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم . الجامحة في أوصالهم . كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل .

ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات واطماع . كثيرون يصبرون على التعذيب والايذاء فلا يخيفهم . ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الاغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء . كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والراحة. ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال . وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح. ان الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ، ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب ، وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.. لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى اذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء . وذلك شأن البشر الا من عصم الله ، فكانوا ممن قال : فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير . وليس ذاك لأحد الا للمؤمن . ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)(رواه مسلم) . . وهم قليل . فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر . والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان .

ان الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطبائع القلوب ، ودرجة الغبش فيها والصفاء ، ودرجة الهلع فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح ، عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن مؤمنين ومنافقين . ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم ، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم ، ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده وهم

مختلطون مبهمون . . وتعاقب الشدة والرخاء محك لا يخطىء وميزان لا يظلم . والرخاء في هذا كالشدة . . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل . والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ، ولا تستخفها السراء وتتجه الى الله في الحالين . وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله . وان الله تعالى يربي النفوس بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء .

ثم ان القرآن يخاطب الكينونة البشرية . بما يعلم خالقها من تركيبها الخفي . وبما يطلع منها على الظاهر والباطن . وعلى المنحنيات والدروب والمسالك . وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة . ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها..ومن هنا ينبهها الى حقيقة الابتلاء (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) انه سبحانه هو الذي وهب الأموال والاولاد.. وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والاولاد. فلا يقعد أحد اذن عن تكاليف الامانة وتضحيات الجهاد .. كذلك فتنة القوة .. فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة . التي تخول لهم في الارض ، لأنهم يخشون من هو أقوى . فينفقون قوتهم في طاعته واعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالاموال والأولاد ، ولا يقعدهم ذلك عن الجهاد ، فيوجهون أموالهم وأولادهم في طاعة الله . أما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) .

وهناك التفاتة إلى الفتنة المستكنة في المتاع المتاح في هذه الارض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله . ويلفتنا الله عز وجل التفاتة لاعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة ، حتى لا يكون فتنة لأصحابه ، ثم كي لا يكون فتنة للمؤمنين الذين يعانون ما يعانون من أذى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وتقلب الذين كفروا في البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان . وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة . ويحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم

يُعانون الشظف والحرمان، ويُعانون الاذى والجهد، ويُعانون المطاردة أو الجهاد.. وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويَستمتعون. ويَحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة بل في مسلاة. ويَحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم، فيزيدهم ضلالا وبطراً و لجاجاً في الشر والفَساد.

٦ – قيمة الكلمة :

(يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون. كَبُر مَقتاً عند الله أن تَقولوا ما لا تفعلون) ان الجهاد هو عملية تمحيص تَتم في داخل النفس وفي مكنون الضمير. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونات تَمهيداً لاخراج الدخل والدغل والأوشاب. وتركها نَقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب (وليمحص الله الذين آمنوا) وكثيراً ما يجهل الانسان نفسه ومَخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها. وحقيقة ما استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير. وفي هذا التمحيص الذي يَتولاه الله سبحانه بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء. يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يَعلمونه قبل هذا المحك المرير. محك الاحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية..

ولقد يَظن الانسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم اذا هو يكشف على ضوء التجربة العملية، وفي مواجهة الاحداث الواقعية أن في نفسه عَقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط.

ومن الخير أن يَعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبكها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة.. فلا يكفي للانسان أن يَقول: أسلمت وأنا على استعداد للموت، فيبلغ بهذه الكلمة رضوان الله والجنة.. انما هي التجربة الواقعية والامتحان

العملي ، وانما هو الجهاد وملاقاة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء . والله يريد من المؤمنين أن يوازنوا في حسهم بين وزن الكلمة التي يقولها اللسان ووزن الحقيقة يواجهها في البيان .. فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حساباً لكل كلمة يقولها اللسان ووزن الحقيقة يواجهها في العيان . فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حسابا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وبذلك يقدر المؤمنون قيمة الكلمة وقيمة الامنية وقيمة الوعد في ضوء الواقع الثقيل . ويعلم الله عز وجل أن طريق الجنة ليست الكلمات الطائرة والاماني المرفرفة . انما هو تحقيق الكلمة وتجسيم الامنية والجهاد الحقيقي والصبر على المعاناة .

والله يريد أن يربي الجماعة المسلمة لتتسلم قيادة البشرية .. البشرية بكل ضعفها ونقصها وشهواتها ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها . لذلك يتطلب من الدعاة الثبات على الحق ، وصبر على المعاناة ، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية . وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف ووسائل العلاج . ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة وصبر على الشدة بعد الرخاء وطعمها يومئذ لاذع مرير .. هذا هو الطريق . هذه هي التربية التي يأخذ الله بها حملة دعوته ليعدها للدور العظيم الهائل الشاق .

ان معركة العقيدة ليست ككل معركة . انها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون انتصار في معركة الضمير .. انها معركة لله ، فلا ينصر الله فيها الا من خلصت نفوسهم له . وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون اليها ، فان الله لا يمنحهم النصر الا اذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها ، كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك لحكمة يعلمها الله .

اما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها ، اخلاص التجرد فلا يمنحهم

الله النصر أبداً حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا .. وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة في كل زمان وفي كل مكان حين يتلقوا الهزيمة المريرة والقرح الاليم وذلك لمواقفهم المضطربة المتأرجحة . وان هذه العقيدة تعلم أصحابها فيما تعلم ، أن ليس لهم في أنفسهم شيء ، فهم كلهم لله . وانهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له ويتحركون له ويقاتلون له بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد ، وانهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم كائناً هذا القدر ما يكون .. فأما الذين تهمهم أنفسهم ، وتصبح محور تفكيرهم ، وتقديرهم ومحور اهتمامهم وانشغالهم فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الايمان (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) . فهناك هاجس يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة حين تصطدم وتعاني الالآم ، حين ترى الثمن أفدح مما تظن . وان هذه الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع .. لذلك لا بُد من الابتلاء ولا بُد من التمحيص (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) فليس كالمحنة والبلاء محك يكشف ما في الصدور، ويصهر ما في القلوب، فينفي عنها الزيف والرياء ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء . فهو الابتلاء والاختبار، وهو التطهير والتصفية للقلوب.. وأخيراً .. ان الله يربي النفوس ويصحح تصورهم ويعدهم ، فالطريق أمامهم طويل ، والتجارب أمامهم شاقة والتكاليف عليهم باهظة .. والابتلاء أمر مطرد في كل دعوة تنخرط في كتيبة الايمان حتى يصبروا على مقتضيات الايمان من البلاء والكرب، والشدة والجراح. فلا تضعف نفوسهم ولا تتضعضع قواهم ولا تلين عزائمهم ولا يستكينون ولا يستسلمون .

٧ — من خلال التجربة في القرآن :

ان الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها على محك التجربة ، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .. لأن هذه الحماسة البالغة ما تلبث أن تنطفىء شعلتها وتتهاوى على مراحل الطريق .. والتفرق في منتصف الطريق ظاهرة بشرية في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الايمانية مبلغاً عالياً من

التدريب .. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل ، فيحسن الانتفاع فيها بهذه التجربة القرآنية (ألم تَرَ إلى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نُقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كُتب عليهم القتال تولوا الا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكل طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤتَ سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إنَّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غُرفة بيده فشربوا منه الا قليلاً منهم . فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ..

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول ... فإن كثرة بني اسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم . ولم تبق الا قلة متمسكة بعهدها مع نبيها ، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الجدال حول جدارته بالملك والقيادة ووقوع علامة الله باختياره لهم .. ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى ، وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم (قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غُرفة بيده فشربوا

منه الا قليلاً منهم) وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية . فأمام الهول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم تهاوت العزائم وزلزلت القلوب (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة .. اعتصمت بالله ووثقت . وقالت (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة .. تبرز منها خبرة القائد بالنفوس . وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة وفصله للذين ضعفوا ، وتركهم وراءه .. ثم .. وهذا هو الأهم عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده ، تجربة بعد تجربة ، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة ، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الايمان الخالص ووعد الله الصادق للمؤمنين ..

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير هذه التجربة .. إن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل . وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود .فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف ، انما حكمت حكماآخر ، فقالت (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ثم اتجهت لربها تدعوه (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).. وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين ، انما هو في يد الله وحده ، فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه .. وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا وعندما يتحقق في القلب الايمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون .. إنها ذخيرة التجربة تطوف بالجماعة المسلمة في شتى المجالات وشتى الاتجاهات وهو يربيها ويعدها للدور العظيم .

الباب الثامن

في الطريق

١ ــ الضعف :

ان الضعف ليس عذرا بل هو الجريمة. فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس إلى حماه يعتزون به ، والعزة لله ، (فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) والضعفاء هم الضعفاء الذين تنازلوا عن أخص خصائص الانسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه . وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله ، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه . أو ينزل كارها .

والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد انسانا يريد الحرية ، ويتمسك بكرامته الآدمية فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد وتؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل .. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال .

وإن الله يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد ايمانه ، لأنه عرف الايمان وذاقه ثم ارتدّ عنه ايثاراً للحياة الدنيا على الآخرة ، فيرميه الله بغضبه وبعذابـــه

العظيم (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون). ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة ،

ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض . فللأرض حساب وللعقيدة حساب . ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلا ، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد ، فهي أعلى من هذا وأعز .. ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة والتفظيع للجريمة . وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم ،مؤثرين الموت على لفظه باللسان ، كذلك صنعت سمية أم ياسر وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت ، وكذلك صنع أبوه ياسر .

وقد كان بلال رضوان الله عليه يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول .. أحد .. أحد .. ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها .. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله فيقول نعم . فيقول أتشهد أني رسول الله فيقول لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك . وذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبدالله بن حذيفة السهمي – أحد الصحابة رضوان الله عليهم – أنه أسرته الروم . فجاؤوا به الى ملكهم . فقال له تنصر ، وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت . فقال اذن أقتلك . فقال أنت وذاك . قال ، فأمر به ، فصلب . وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر ، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه ، وهو ينظر ، فاذا هي عظام

تلوح ، وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع في البكرة ليلقى فيهـا ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : انما بكيت لأن نفسي انما هي واحدة تلقى في هذا القدر الساعة ، في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تُعذب هذا العذاب في الله ، وفي رواية : أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل اليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه . فقال : ما منعك أن تأكل . فقال : أما أنه قد حلّ لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال لـه الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك . فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين . فقال نعم ، فقبّل رأسه . فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يُقبّل رأس عبدالله بن حذافة وأنا أبدأ . فقام فقبّل رأسه رضي الله عنهما).. ذلك أن العقيدة أمر عظيم لا هوادة فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن . وعند الله ، وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة ، وهان كل ما فيها من نعيم . أما الضعاف المشوهي الايمان فيغريهم البريق الخادع القريب من عيونها . من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك . من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه . لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء . لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاما .. كلا .. ان هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء ، انما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم ، وفي قلوبهم ، وفي نخوتهم ..

ان المستضعفين كثرة . والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة وما الذي يخضعها ، انما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة . والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الانسان .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير ، إلا برغبة هذه الجماهير ، فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالارادة هي التي تنقص هذه القطعان .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة .. وان الطاغية يخدع الجماهير الغافلة ، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها .. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانا . انما هي الجماهير الغافلة الذلول ، تمطي له ظهرها فيركب ، وتمد له أعناقها فيجر ، وتحني له رؤوسها فيستعلي . وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغي ، والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة ، وخائفة من جهة أخرى .

وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية وهو فرد لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين . لو أنها شعرت بإنسانيتها وحريتها ، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة . ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا .. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به ، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً .. فالضعف جريمة في الإسلام نصيبه النار (فيقول الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار).. ان الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وامعات ، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق . لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار .

لقد منحهم الله الكرامة ، كرامة الإنسانية ، وكرامة التبعة الفردية وكرامة الاختيار والحرية ولكنهم هم تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا. بل لم يفكروا أن يقولوها بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم ، وما يقودونهم اليه من ضلال .. (انا كنا لكم تبعا) .. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون لهم شفيعا عند الله ، فهم في النار ، ساقهم اليها قادتهم ، كما كانوا يسوقونهم في الحياة سوق الشياة ، ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم(فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر

والضر وكيد الأعداء . وعلى العصبة المسلمة التي ترتقي في الأفق السامق أن تستعلي وتعتز بعقيدتها وربها ؛ فالعزة هي صنو الايمان في القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى ، العزة التي لا تهون ولا تهن ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات الا أن يتضعضع فيه الايمان ، فاذا استقر الايمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ..

ان العزة كلها لله ، وليس شيء منها عند أحد سواه . وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضا (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعا). فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره ، ليطلبها من عند الله . فهو واجدها هناك ، وليس بواجدها عند أحد ولا في أي كنف ، ولا بأي سبب (فان العزة لله جميعا). انها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية ، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين وتبديل الحكم والتقدير . وتعديل النهج والسلوك وتعديل الوسائل والأسباب. ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها ، عزيزا كريما . ثابتا في وقفته غير مزعزع . عارفا طريقه إلى العزة ، طريقه الذي ليس له هنالك سواه .. انه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر ، ولا لعاصفة طاغية ، ولا لحدث جلل . ولا لوضع ولا لحكم ، ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعا . وعلام ؟ والعزة لله جميعا .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس ، حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها عن كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي . يستعلي بها على شهواته المذلة ورغائبه القاهرة . ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس . ومتى استعلى على هذه ، فلن يملك أحد وسيلة لاذلاله وإخضاعه ، فانما تذل الناس شهواتهم ورغائبهم ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان . وهذه هي العزة الحقيقية . ذات القوة والاستعلاء والسلطان ، انها

الاستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثم هي خضوع لله وخشوع ، وخشية وتقوى . ومن هذا الخضوع ترتفع الحياة . ومن هذه الخشية لله تصمد لكل مـــا يـــأباه .

٢ ـــ الخوف :

إن العقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها ، ليس لهم من إرَب في الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية في حياتهم من سواها . عقيدة يَعيشون لها وحدها فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها . ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية لأنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يقدمونها فداها .. انها صورة رائعة هائلة لهذه العقيدة التي تعلن ميلاد القوة الحقيقيـــة الكبيرة في النفوس ، المعلقة بالله . فهي لا تخشى إلا الله ، لأنه ربّ كل شيء ، ولا تخشى الناس لأن الله رب الناس : (الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).. والشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة . ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول .. وأنهم يملكون النفع والضر ، ليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب . فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ، ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد .. انه الشيطان (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين).

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن ينتضخم الشر ، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا ، لا تقف في وجهه معارضة ولا يصمد له مدافع ولا يغلبه من المعارضين غالب . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا. فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الارهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه. يقلبون المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وينشرون الفساد والباطل والضلال . ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير .. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم

من مقام القيادة .. بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له ، وجلاء الحق الذي يطمسونه .. والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه . وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عاريـــا ، لا يستره ثوب من كيده ومكره . ويعرّف المؤمنين الحقيقـــة : حقيقه مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهم وهو . أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته..

إن القوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف ، هي القوة التي تملك النفع والضر . هي قوة الله وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله . وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) (فلا تخشوهم واخشون).. وان القرآن نزل ليضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم .. لقد قرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله . وان هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الايمان .. فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مُجردا من كل مظاهر القوة. ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة . ولو ساندته جميع القوى . ومن كانت له قيمة الايمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا.

وان الجهاد في سبيل الله لاقرار منهج الله في الأرض وإعلان سلطانه على البشر وتحكيم شريعته في الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ، هو صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد. وان الحكم بما أنزل الله سيواجه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من بعض الناس ، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبـــول والاستسلام . معارضة الكبراء والطغـــاة ، وأصحاب السلطان الموروث ، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه . ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع ، والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . وستواجه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة .. وستواجه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال ..

ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها.. وستواجه معارضة جهات شتى ، غير هذه وتلك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض.. علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجهات وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال فهو يناديهم (فلا تخشوا الناس واخشون) .. هذا هو الطريق .. يجب أن لا تقف خشية الناس دون تنفيذ لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الاقرار من ثم بتفرد الله سبحانه بالألوهية ، أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعة الله . وتشغب عليها . يجب أن لا تقف الخشية لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة . فالله وحده هو الذي يستحق الخشية . والخشية لا تكون إلا لله .. وهناك من تراودهم أطماع الحياة الدنيا ممن يدعون لأنفسهم اسم المسلمين ، وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال وأصحاب الشهوات لا يريدون حكم الله ، فيملقون شهوات هؤلاء جميعا طمعا في عرض الحياة الدنيا ، كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل مكان .

وهؤلاء بهذا يشترون بآيات الله ومنهجه ودستوره عرضا حقيرا (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) . وذلك ممن يسكتون على الباطل خوفا منه ، أو يحرفون ما أنزل الله أو يلقون الفتوى المدخولة وذلك مقابل رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين .. انه ليس أشنع من خيانة المستأمن . وليس أبشع من تفريط المستحفظ . والذين يحملون عنوان (رجال الدين) يخونون ويفرطون ويلبسون . فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله .. فلا بد للدعاة إلى الله أن لا يحسبوا للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ولا يخشون أحداً إلا الله الذي أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) ..

فلا بد للدعاة من الجهاد لإقرار منهج الله في الأرض (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم).. فهم يجاهدون في سبيل الله ، لا في سبيل أنفسهم ، ولا في سبيل قومهم ، ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم . في سبيل الله لتحقيق منهج الله وتقرير سلطانه وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق وليس لهم في هذا الأمر شيء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، انما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك . وهم يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . وفيم الخوف ؟ وَفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ويعرضون منهج الله في الحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس . ومن يَستمد مدده وعونه من عند الناس . أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم ، وأما من يَستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس ، وما يفعلون . كائنا هؤلاء الناس ما كانوا . وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان . وكائنة حضارة هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون .. اننا نحسب حسابا لما يقول الناس ، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس ولما يصطلح عليه الناس ، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين .. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع اليه في الوزن والقياس والتقويم .. انه منهج الله وشريعته وحكمه ، فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل . ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون .. انه ليست قيمة أي وضع أو أي عرف أو أي تقليد أية قيمة .. انه موجود وأنه واقع وأن ملايين البشر يعتنقونه ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم . فهذا ميزان لا يعترف به التصور الاسلامي ، إنما قيمة أي وضع وأي عرف وأي تقليد وأي قيمة أن يكون لها أصل في منهج الله الذي منه وحده تستمد القيم والموازين .. ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم . فهذه سمة المؤمنين المختارين الذين لا يخافون أي شيء . فالخوف من الله الاحد ..

وان قلب المؤمنين ينبغي أن يكون راسخاً ثابتاً لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو

مـوصول بقوة الله الغالب على امره القاهر فوق عباده . واذا جـاز أن تنال هذا القلب هـزة وهو يواجه الخطر ــ فان هذه الهزة لا يجوز أن تكون هـزيمة وفرارا. والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفا على الحياة وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن انسان يواجه عدوه انسانا ، فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة ، ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها ، ثم انه إلى الله إن كان حيا ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . فهو في كل حالة أقوى من خصمه (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يـولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير). إن المؤمن رغم كل هذا لا يخشى أحدا من العبيد ، فالمؤمن لا يخشى إلا الله (أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين). وإن مشاعر المؤمنين لتثور وهي تستجاش بهذه الآيات القرآنية مع وقائعها الرهيبة وآثارها. فأنتم يا دعاة الإسلام، أنتم ستار قدرته سبحانه وأداة مشيئته (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون). ويوجد دائما في الصف الإسلامي فئة تجيد المداورة وتنفذ من الأسوار وتتقن استخدام الأعذار ، وتدور من خلف الجماعة ، وانه لمن مصلحة العصبة المسلمة أن تهتك الأستار فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون .. وهناك الخوف على الأهل .. وهي حقيقة عميقة في الحياة البشرية . فالله يمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء (انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم). وكثيراً ما يكون الأهل دافعاً للتقصير في تبعات الايمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم ولو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . قد يتحمل العنت في نفسه ، ولا يتحمله في زوجه وولده ، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ، فيكونون عدوا له لأنهم صدوه عن الخير وعوقوه عن تحقيق غاية وجودة الإنساني العليا ، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه اتقاء لما يصيبهم من جرائه أو لأنهم قد يكونون في طريق غير

طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . لذلك اقتضت التحذير من الله لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا والحذر من تسلل هذه المشاعر وضغط هذه المؤثرات .

٣ ــ الأسوة :

إن أصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله .. وانه لينبغي لهم أن تمتلىء قلوبهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أياً كان .. (واتل عليهم نبأ نوح : إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون) .. إن الطاغوت لا يتحمل بقاء الداعية في نظامه ، لأن الداعية ماض في طريقه وهو يقول لهم : نفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دبرتم (ولا تنظرون) لا تمهلوني . فكل استعدادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه .. انه التحدي الصريح الذي لا يقوله القائل الا وهو مالىء يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته . فما كانت العدة والقوة ؟ كان معه الايمان بالله وحده ، ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدي غرورا . وليس كذلك تهورا وليس انتحارا . انما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوة المزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الايمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله جديرون أن يقفوا هذه الوقفة دائما . ولن يضرهم الطاغوت إلا أذىً . ابتلاء من الله ، لا عجزا منه سبحانه عن نصرة أوليائه ، ولا تركا لهم ليسلمهم إلى أعدائه . ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف ، ثم تعود الكرة للمؤمنين .. هذه هي سنة الله في الأرض .. فإذا طال طريق على العصبة المؤمنة مرة . فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة . والاستخلاف للمؤمنين . وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق. (فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون). وما شك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أوحي اليه ولا امترى. وهو على بينة من ربه .

ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد الكفرة والمعاندين في وجه الدعوة، وما كان يخالج نفس الداعية الأعظم من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين. تحتاج كلها الى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت.. وما أحوج الدعاة وهم يواجهون مثل تلك الحال في كل مكان، ويتآزر عليهم الصد والاعراض والسخرية والاستهزاء والتعذيب والايذاء والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية . وتتضافر عليهم كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية . وتسلط عليهم أبشع ألوان الحرب وأنكدها . ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها ..

وما أحوج الدعاة إلى تدبر هذا التوجيه الرباني بهذه الآية الكريمة بكل فقرة فيها . وبكل اشارة وبكل لمحة فيها وكل ايماءة . ما أحوج الداعية الى اليقين : (فلا تك في مرية منه أنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون). ستجد في نفسك ظلالا كما وجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه .

إن الدعاة تقف اليوم بوجههم الجاهلية التي تعترف بوجود الله سبحانه — أو لا تعترف — ولكنها تقيم للناس أربابا في الأرض يحكمونهم بغير ما أنزل الله، ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم لهذه الأرباب لا لله .. ثم هي الدعوة الإسلامية للناس كافة : أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم وأن يعودوا الى الله وحده يتخذونه رباً، لا أرباب معه ، ويدينون له وحده ، فلا يتبعون الا شرعه ونهجه ولا يطيعون إلا أمره ونهيه .. ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد وبين الجاهلية والإسلام وبين طلائع البعث الإسلامي وهذه الطواغيت في أرجاء الأرض والأصنام. وإن الدعاة لا بد أن تجد نفسها وموقفها كله في هذا القرآن في مثل هذا الأوان .

يجب على الدعاة أن يتأسوا برسل الله (قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . اني توكلت على الله ربي وربكم). نقف أمام تلك المواجهة من هود لقومه، وأمام هذا الحسم الكامل وفي تحد سافر، وثقة من ربه ..

ان أصحاب الدعوة الى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة أن يقفوا طويلاً امام هذا المشهد الباهر . رجل واحد ، لم يؤمن معه الا قليل يواجه أعتى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، وأشد أهل الأرض بطشاً كما قال عنهم الله (واذا بطشتم بطشتم جبارين) فهؤلاء العتاة الجبارون يبطشون بلا رحمة . والذين أبطرتهم النعمة .. هؤلاء هم الذين واجههم هود عليه السلام هذه المواجهة في شجاعة المؤمن ، واستعلائه وثقته واطمئنانه . وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة وتحداهم أن يفعلوا ما في وسعهم . ولقد وقف هود عليه السلام هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين ، انما هم من الدواب ، وهو مستيقن أنه ما من دابة الا وربه أخذ بناصيتها (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) .. ففيم يحفل اذن بهؤلاء الدواب ؟ وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض واعطاهم ما اعطاهم من نعمة ومال وقوة ودين ، وقدرة على التصنيع والتعدين للابتلاء ، لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم ، اذا شاء ولا يضرونه شيئاً ، ولا يردون له قضاء . ففيم اذن يهوله شيء مما هم فيه ، وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء ، وكيف شاء ..

ان اصحاب الدعوة الى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو ، حتى يملكوا أن يقفوا بايمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم .. أمام القوة المادية وقوة الصناعة وقوة المال وقوة العلم البشري وقوة الأنظمة ، والاجهزة والتجارب ، والخبرات . وهم مستيقنون ان ربهم آخذ بناصية كل دابة . وأن الناس كل الناس ، ان هم الا دواب من الدواب ..

هذا هو الطريق وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ، فاذا القوم الواحد أمتان مختلفتان .. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه وأمة تتخذ من دون الله ارباباً وتحاد الله . ويوم تتم هذه المفاصلة ، يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه والتدمير على كل أعدائه في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال .. ففي تاريخ الدعوة الى الله على مدار التاريخ

لم يفصل الله بين أوليائه واعدائه الا بعد أن فاصل أوليـــاؤه اعداءه على أساس العقيدة ، فاختاروا الله وحده . . وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره ، والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه .

٤ ــ النفاق :

ان النفس اذا لم تتجرد لله ، لم تتحرر ابداً من ضغط القيم والأوضاع والضرورات والمصالح والحرص والشح ، ولم ترتفع أبداً على المصالح والمغانم والمطامع والمطامح ، ولم تستشعر أبداً تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التي يحسها القلب المملوء بالله أمام القيم والأوضاع وامام الأشخاص والأحداث وامام القوى الأرضية ، والسلطان وأصحاب السلطان . .

ومن هنا تبذر بذرة النفاق . وما النفاق في حقيقته الا الضعف عن الاصرار على الحق في مواجهة الباطل وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع وتعليقهما بغير الله . وثمرة التقيد بملابسات الأرض ، ومواضعات الناس في عزلة عن منهج الله للحياة . وان طبيعة المنافقين الأولى حين نتلمسهم حسب التوجيه القرآني هي ولاية الكافرين دون المؤمنين (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً اليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة . فان العزة لله جميعاً . وقد نزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) فيكشف الله عز وجل عن سوء التصور لحقيقة القوى . انه إما عبودية لله كلها ، استعلاء وعزة وانطلاق . واما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة واغلال . ولمن شاء ان يختار . .

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله . وما أحوج ناساً ممن يدعون الاسلام ويتسمون بأسماء المسلمين وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض . أن يتدبروا القرآن . . ان كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين . . والا فان الله غني عن العالمين . وأولى

مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى يسمي ذلك تسامحاً أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وايماناً بحرية الرأي . . وهي ، هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله وهو يموّه على نفسه في أول الطريق حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان . . ان الحمية لله ولدين الله ولآيات الله ، هي آية الايمان ، وما تفتر هذه الحمية الا وينهار بعدها كل سد وينزاح بعدها كل حاجز وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار . وان الحمية لتكبت في أول الأمر عمداً ثم تهمد ، ثم تخمد ثم تموت . فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فإما أن يدفع . واما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبر بين الكفر والايمان على قنطرة النفاق وان موقف المنافق هو موقف الذبذبة والأرجحة والاهتزاز وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفين : الصف المؤمن أو الصف الكافر .. موقف لا يثير الا الاحتقار في نفوس المؤمنين لذلك يرسم الله صورة النفاق (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) ان هذا الموقف يوحي بضعف هذه النفوس المرتدة الى حمأة النفاق .. هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف .. انها صورة المنافقين في كل آن . خوف ومداراة . وقلب منحرف . وضمير مدخول . ومظاهر خالية من الروح . وتظاهر بغير ما يكنه الضمير . الضعف عن المواجهة والجبن عن المصارحة . سقوط الهمة وضعف العزيمة .. انها أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب . انهم خشب لا حركة فيها ، ملطوعة بجانب الجدار . فهم الذين يمثلون الجمود الراكد البارد (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

. . ولخطورة أمر النفاق كان عمر رضي الله عنه يأتي حذيفة بن اليمان (وهو الصحابي الذي عرفه رسول الله بأسماء المنافقين) . لقد كان عمر يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه : ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُسمه من المنافقين .

وكان حذيفة يقول له : يا عمر لست منهم . ولا يزيد .

(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) . في قلوبهم آفة . في قلوبهم علة. والمرض ينشيء المرض والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد .. ان المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا ، والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت وعدتها الاساسية : هذا الدين . وهذه العقيدة الدافقة الدافعة ، وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله ، وهي التوكل على الله والثقة بنصره . ان المنافقين في نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر ، وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة من اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة وللاخطار الواضحة .. إنهم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور كما يسمونه ، وللالقاء بالنفس الى التهلكة . . انهم يحسبون الحياة كلها بما فيها الدين والعقيدة صفقة في سوق التجارة . ان كانت ظاهرة الربح اقدموا عليها . فأما اذا كان الخطر فالسلامة أولى . انهم لا يدركون الامور ببصيرة المؤمن ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الايمان . انها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً ، فهي مؤدية الى إحدى الحسنيين : النصر والغلب ، أو الشهادة والجنة . ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله . . وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض .

والعصبة المؤمنة والدعاة .. في كل زمان وفي كل مكان مدعوون الى ان يزنوا بميزان الايمان والعقيدة وان يدركوا ببصيرة الايمان وان يروا بنور الله وهداه . وألا يتعاظموا قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا يستهينوا بقوتهم ووزنهم فان الله معهم .

ان العقيدة وطريقها لشاقة بعيدة . تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة . ان تكاليف العقيدة هو جهد خطر ، تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية . ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) . . انه لمشهد مكرور في البشرية ترسمه هذه الكلمات الخالدة فكثيرون هم أولئك الذين

يتهاوون في الطريق الصاعد الى الآفاق الكريمة . . كثيرون اولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ، ويميلون الى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان . فما هي قلة عارضة . انما هي النموذج المكرور ، وانهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وان خُيل اليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب واجتنبوا اداء الثمن الغالي .

فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص . (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم وهم في ريبهم يترددون) . .

هذه قاعدة الله . فالذين يؤمنون بالله و يعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون ان يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ، ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والارواح بل يسارعون اليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة بأمره ويقيناً بلقائه وثقة بجزائه وابتغاء لرضاه وانهم ليتطوعون تطوعاً ، فلا يحتاجون الى من يستحثهم فضلاً عن الأذن لهم . انما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير . لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها . يا دعاة الاسلام . . ان الطريق الى الله واضحة مستقيمة . فما يتردد و يتلكأ الا الذي لا يعرف الطريق أو الذي يعرفها و يتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق . وان اصحاب هذه القلوب الحائرة لهم الخطر على مسيرة الدعوة فهم يبثون الخور والضعف في الصفوف بهممهم الساقطة وقلوبهم المرتابة ، وان هذا الصنف الخطير يخاف من الناس ويحاول ارضاء الناس بسخط الله (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) فماذا يكون الناس . وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذي لا يؤمن بالله عادة ، ولا يعنو له ، ويعنو لانسان مثله ويخشاه . ان المؤمن لا يخضع الا لله ولا يخشى الا الله . . انه النموذج المكرور الذي يدعي الاسلام ويفرح بالسلامة والراحة ، و يحسبون ان السلامة غاية يحرص عليها الرجال (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) .

هؤلاء نموذج لضعف الهمة وطراوة الارادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون اعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات .. ان الكفاح والجهاد فطرة في المؤمن ، وانه ألذ واجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال . ان الدعوات في حاجة الى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق ، والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون ، لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيعيثون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى ، وانه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً . وليعرف الدعاة في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق. ان للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة وان ضريبة الذل لأفدح في كثير من الاحيان. وان بعض النفوس الضعيفة ليخيل اليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها وتفرق من صداها يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . هؤلاء الأذلاء يؤدون افدح من تكاليف الكرامة ، انهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ويؤدونها من أقدارهم ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأولادهم وهم لا يشعرون . .

ان المنافقين نموذج من الناس الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأي وتكاليف العقيدة فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فلقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والادراك بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوهم والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي المتفتح المنطلق الوثاب (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) .

وما يؤثر الانسان السلامة الذليلة والراحة البليدة الا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة . وفوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة وان بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر وتطبع على

القلوب والعقول ، والحركة دليل الحياة والمحرك في الوقت ذاته للحياة . ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل ، وتشد العضل وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة ، وتدرب الطاقات البشرية على العمل ، وتشحذها للتلبية والاستجابة . . وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة والسلامة الذليلة . . هذا هو الطريق . . (أنهم رجس) . . والقاعدون في الجماعة المكافحة — وهم قادرون على الحركة — الذين يقعدهم ايثار السلامة عن الجهاد . . رجس ودنس ، ما في ذلك من شك ولا ريب ، رجس خبيث يلوث الارواح ودنس قذر يؤذي المشاعر . فالجثة المنتنة في وسط الأحياء تؤذي وتعدي وهم الخاسرون (ومأواهم جهنم بما كانوا يكسبون) . . انها الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها ومن أصدق من الله حديثا . . فهؤلاء المبطئون . . وهم معدودون من المسلمين يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرون عليها اصراراً ويجتهدون فيها اجتهاداً (وان منكم لمن ليبطئن) . . ها هم أولاء كما يكونون في كل زمان وفي كل مكان . . ها هم أولاء ضعفاء منافقين ، ملتوين ، صغار الاهتمامات أيضاً . لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر ، ولا أفقاً أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة ، فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد . انهم يبطئون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال . يتخلفون عن المعركة : فان اصابت المجاهدين محنة وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين في بعض الاحايين يفرح القاعدون ويحسبون ان فرارهم من الجهاد ونجاتهم من الابتلاء نعمة (فان اصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيداً) وهكذا يعد المنافق التخلف عن الجهاد نعمة . . انها نعمة ولكنها عند الذين لا يتعاملون مع الله . عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله . ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة .

نعمة عند من لا يتطلعون الى آفاق أعلى من مواطيء الاقدام في هذه الارض . كالنمال . . نعمة عند من لا يحسون ان البلاء في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله واعلاء كلمة الله . هو فضل واختيار من الله يختص به من يشاء من عباده

ابر فعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري ، ويطلقهم من إسار الارض يستشرفون حياة رفيعة يملكونها ولا تملكهم . وان المؤمن لا يتمنى البلاء ، بل يسأل الله العافية . ولكن اذا ندب للجهاد خرج غير متثاقل خرج يسأل الله احدى الحسنيين . النصر أو الشهادة . وكلاهما فضل من الله وكلاهما فوز عظيم . فيقسم الله له الشهادة فاذا هو راض بما قسم الله وفرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الغنيمة والاياب فيشكر الله على فضله ويفرح بنصر الله لا لمجرد النجاة .

ان الايمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك ، والاسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ، ولتترجم نفسها الى حركة وعمل في عالم الواقع .

ومنهج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها الى حركة سلوكية واقعية وتحويل هذه الحركة الى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالينبوع الاصيل . وبعض الناس يخبر الله عن حالهم(ويقولون: آمنا بالله و بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا . أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) . .

وهؤلاء يقولون بأفواههم آمنا بالله و بالرسول وأطعنا . . يقولونها بأفواههم. ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيتولون ناكصين يكذبون بالاعمال ما قالوه باللسان (وما أولئك بالمؤمنين) . فالمؤمنين تصدق أفعالهم أقوالهم . . والايمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي . انما هو تكيف في النفس. وانطباع في القلب ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير . . ان هذا الفريق الذي كان يدعي الايمان ثم يسلك هذا السلوك الملتوي انما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان . المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام . ولكنهم لا يرضون أن تقضى بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه . فاذا دعوا الى حكم الله

ورسوله أبوا واعرضوا وانتحلوا المعاذير (وما أولئك بالمؤمنين) فما يستقيم الايمان واباء حكم الله ورسوله . الا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحا كموا الى شريعة الله وقانونه . .

ان الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الايمان الحق . وهو المظهر الذي ينبأ عن استقرار حقيقة الايمان في القلب . وما يرفض حكم الله ورسوله الا سيء الادب ، معتم ، لم يتأدب بأدب الاسلام ولم يشرق قلبه بنور الايمان . وان حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، وكل خلقه أمامه سواء . .

ان الفرد حين يشرع ويحكم لا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة أو كتلة من الدول لكتلة . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . انما هي العدالة المطلقة التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله . ولا يحققها حكم غير حكمه . . والمؤمن يسمع ويطيع بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى ، النابعان من التسليم المطلق لله واهب الحياة المتصرف فيها كيف يشاء . ومن الاطمئنان الى ان ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاؤونه لأنفسهم ، فالله الذي خلق أعلم بمن خلق . .

والنفاق هو صورة للجبن والانزواء والفزع والهلع في ساعة الشدة . والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء ، والشح على الخير والضن ببذل أي جهد . والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد . . هؤلاء هم الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم الى القعود : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا . ولا يأتون البأس الا قليلاً . أشحة عليكم . فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت . فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . أشحة على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم) . .

هذه هي صورتهم الشاخصة دائما صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة

الجوارح ، وهي تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار .. (فاذا ذهب الخوف .. سلقوكم بألسنة حداد) فخرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة . وادعوا بغير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال ، والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال . وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل . فهو موجود دائماً . وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك امن ورخاء . وهو جبان صامت منزو ، حيثما كانت هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منهم الا سلاطة اللسان .

ان النفاق هو صورة تمثل التقلب بين اتجاهين . وان الانسان لا يملك أن يتجه الى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد . والا نافق واضطربت خطاه (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . وما دام لا يملك الا قلباً واحداً . فلا بد أن يتجه الى إله واحد ، وان يتبع منهجاً واحداً . وان يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات . قلب واحد . فلا بد له من منهج واحد يسير عليه . ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة والوجود يستمد منه. ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوم به الأحداث والأشياء . والا تمزق وتفرق، ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه . ولا يمكن للانسان ان يستمد أخلاقه وآدابه من معين ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر. ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث . ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع. فهذا الخليط لا يكون انساناً له قلب . انما يكون مزقاً واشلاء ليس لها قوام . وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيراً كان هذا أم كبيراً . لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرك حركة أو ينوي نية أو يتصور تصوراً، غير محكوم في هذا كله بعقيدته . ان كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه . لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد ، يخضع لناموس واحد ، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد . لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا

بصفتي الشخصية ، وفعلت كذا بصفتي الاسلامية . انه شخص واحد له قلب واحد ، تغمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة وميزان واحد للقيم. وتصورة المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه في كل حالة من حالاته على السواء . وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً،ويعيش في الأسرة ويعيش في الجماعة ويعيش في الدولة ويعيش في العالم . ويعيش سراً وعلانية ، ويعيش عاملا وصاحب عمل، ويعيش حاكما ومحكوماً . ويعيش في السراء والضراء . فلا تتبدل موازينه ولا تتبدل قيمه . وما تتبدل تصوراته (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ومن ثم فهو منهج واحد . وطريق واحد . ووحي واحد . واتجاه واحد . وهو استسلام لله وحده. فالقلب الواحد لا يعبد الهين ، ولا يخدم سيدين . ولا ينهج نهجين . ولا يتجه اتجاهين. وما يفعل شيئاً من هذا الا أن يتمزق ويتمزق ويتحول الى اشلاء وركام.

٥ — حقيقة القوى :

ان حقيقة القوى في هذا الوجود كثيراً ما يغفل الناس عنها أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون الى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون؟ وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض فيتوجهون اليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها وتخدعهم قوة المال ويحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس واقدار الحياة ، ويتقدمون اليها في رغب ورهب ، ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها . ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة واصل المال وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، ويتقدمون اليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب ، وتخدعهم هذه القوى الظاهرة تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات ، وفي أيدي الدول فيدورون حولها ويتهافتون عليها كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار . وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة وتملكها ، وتمنحها وتوجهها

وتسخرها كما تريد حيثما تريد ، وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول كالتجاء العنكبوت الى بيت العنكبوت . حشرة ضعيفة رخوة واهنة ، لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن . وليس هناك الا حماية الله والا حماه ، والا ركنه القوى الركين : (مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) . .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض. ودكت بها المعاقل والحصون . لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج الى جدل ، بل بديهية مستقرة في النفس لا يجول غيرها في حس ولا خيال . .

قوة الله وحدها هي القوة .. وولاية الله وحدها هي الولاية ، وما عداها فهو واه ضئيل هزيل مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل . انها العنكبوت .. وما تملك من قوى ، ليست سوى خيوط العنكبوت (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) . . وان أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى وللاغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا امام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة ، هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة وحين تعرف حقيقة القوى ، وتحس حقيقة القوى ، وتحسن التقويم والتقدير ..

فمن كان الله معه فلا شيء اذن ضده ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود في الحقيقة له ولا أثر (وقال الله إني معكم) ومن كان الله معه فلن يضل طريقه ، فان معية الله سبحانه تهديه كما أنها تكفيه ، ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى ، فان قربه من الله يطمئنه ويسعده. ولكن معية الله لم يجعلها

الله سبحانه جزافاً ولامحاباة ، ولا كرامة شخصية ، منقطعة عن أسبابها وشروطها .
ان معية الله لمن يعبدونه حق العبادة ويحملون منهجه ونظامه ويحملون دعوته . .

كذلك يجب على الدعاة أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الكبيرة ، تلك الحقيقة التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها. وهي حقيقة الصلة بين الله وبين المؤمنين. انها الصلة بين الانسان وبين القوة الكبرى . انه سبحانه يجعل صفه صفهم ، وأمرهم أمره . وشأنهم شأنه . يضمهم سبحانه اليه ويأخذهم في كنفه ويجعل عدوهم عدوه . وما يوجه اليهم من مكر موجهاً اليه سبحانه (يخادعون الله والذين آمنوا) وهذا هو التفضل العلوي الكبير ، التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم الى هذا المستوى السامق ، والذي يوحي بأن حقيقة الايمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق . والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها ، وهو يرى الله جل شأنه يجعل قضيتهم هي قضيته ، ومعركتهم هي معركته ، وعدوهم هو عدوه . ويأخذهم في صفه ويرفعهم الى جواره الكريم .

فماذا يكون العبيد ، وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير ، ولقد كانت العصبة المسلمة الأولى تجد الله ، فتجد القوة الكبرى ، كانوا يجدون صفاته في نفوسهم ، كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية ، كانوا يحسون ان الله يسمع لهم وهو قريب منهم ، وانه معني بأمرهم عناية مباشرة ، وأن شكواهم ونجواهم تصل اليه بلا وساطة ، ولا يهملها ولا يكلها الى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون في أنس بربهم ، في كنفه ، في جواره ، في عطفه ، في رعايته ، ويجدون هذا كله في نفوسهم حياً واقعاً ، وليس معنى ولا فكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب (انه سميع قريب) وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الايمان والكفر . وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة الى الله الواحد ، والطغاة الذين يستكبرون ، في الأرض بغير الحق .

فالمعركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية وميدانها أوسع من الأرض كلها ، أن الوجود كله يقف مؤمناً بربه مسلماً مستسلماً ، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون

في آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعلم كذلك نهاية المعركة غير المتكافئة بين صف الحق الطويل الضخم، وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة مهما يكن تقلبها في البلاد، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع . هذه الحقيقة يرسمها الله لتستقر في القلوب ، وليعرفها على وجه خاص أولئك الذين يحملون دعوة الحق والايمان في كل زمان ومكان . فلا تتعاظمهم قوى الباطل الظاهرة في فترة محدودة من الزمان، ورقعة محدودة من المكان . فهذه ليست الحقيقة . انما الحقيقة التي يصورها كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله وهو أصدق القائلين وهو العزيز العليم .

٦ ــ التوكل على الله :

ان التوكل على الله حقيقة دائمة يطلقها الرسل عليهم الصلاة والسلام (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يلتفت قلبه الى سواه ، ولا يرجو عوناً الا منه ، ولا يرتكن الا الى حماه . ويواجه المؤمنون الطغيان بالايمان، او يواجهون الأذى بالثبات (ومـــا لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سُبلنا) . انها كلمة المؤمن المطمئن الى موقفه وطريقه، المالىء يديه من وليه وناصره . المؤمن أن الله الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر ويعين .

والقلب الذي يحس أن يد الله سبحانه تقود خطاه وتهديه السبيل هو قلب موصول بالله ، لا يخطىء الشعور بوجوده سبحانه وألوهيته القاهرة المسيطرة . وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق ، أياً كانت العقبات في الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق . وهذه الحقيقة ــ حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه ــ لا تستشعرها الا القلوب التي تزاول الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية ، والتي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وهي تفتح لها كوى النور ، فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح انسام الايمان والمعرفة . وتحس الأنس والقربى .

وحينئذ لا تحفل بما يتوعدها به طواغيت الارض ، ولا تملك أن تستجيب

للاغراء ولا للتهديد . وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل . وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد . فلنصبر ولا نتزحزح ، ولا نضعف ولا نتراجع ، ولا نهن ولا نتزعزع ، ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد (ولنصبرن على ما آذيتمونا) .

وان منطق الايمان الصحيح في بساطته وقوته كما هو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن برسالة ؛ وكل قائم بدعوة . . هو هذا البيان (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) فهذا البيان هو الدستور الذي يغني ويكفي . ويكشف الطريق الواصل الثابت المستقيم . فمن ذا يخيف وماذا يخيف اذا كان الله معه . واذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية . وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا الذي يشك في كفاية الله لعبده وهو القوي القاهر فوق عباده . . انها قضية الخوف ؛ بسيطة واضحة لا تحتاج الى جدل ولا كد ذهن .. انه الله ومن هم دون الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه . فاذا تقرر هذا . فما الذي يخشاه داعية الى الله ؟ ما الذي يخشاه وما الذي يرجوه ؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه . انه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انتهى الامر بالنسبة اليه . وقد انقطع الجدل ، وانقطع الأمل . الا في جناب الله سبحانه فهو كاف عبده ، وعليه يتوكل وحده (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) ..

وان الذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد غير الله أو على سبب . يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الايمان بالله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت آياته زادتهم ايماناً **وعلى ربهم يتوكلون**) . عليه وحده كما يفيد بناء العبارة. لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير : (أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون الا اياه ، ولا يلوذون الا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج الا منه ، ولا يرغبون الا اليه . ويعلمون انه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . . وانه المتصرف في الملك . لا شريك له ، ولا

معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الايمان) .

وهذا هو اخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ، واخلاص العبادة له دون سواه ، فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد ، توحيد الله ، والتوكل على أحد معه سبحانه . وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الاسباب فالمؤمن يتخذ الاسباب من باب الايمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها . ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشيء النتائج فيتكل عليها . ان الذي ينشيء النتائج — كما ينشيء الأسباب — هو قدر الله ، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . . اتخاذ السبب عبادة بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه الا الله وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للاسباب والتعلق بها ، وفي الوقت ذاته يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها .

وعلى الداعية أن يعلن عقيدته الناصعة في تولي الله وحده (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا . وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . إنها كلمة صاحب الدعوة في وجه الجاهلية . ولقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه وتحدى بها المشركين في زمانه وآلهتهم المدعاة (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) .

لقد قذف في وجوههم ووجوه آلهتهم المدعاة بهذا التحدي وقال لهم الا يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهتهم بلا امهال ولا انظار . قالها في لهجة الواثق المطمئن الى السند الذي يرتكن اليه ويحتمي به من كيدهم جميعاً (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . . فاعلن بها عمن اليه يرتكن . انه يرتكن الى الله الذي نزل الكتاب . فدل بتنزيله على ارادته سبحانه في أن يواجه رسوله الناس بالحق الذي فيه . كما قدر أن يعلي هذا الحق على باطل المبطلين . وان يحمي عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويثقون فيه. وانها لكلمة صاحب الدعوة الى الله

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مكان وفي كل زمان (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) .

انه لا بد لصاحب الدعوة الى الله ان يتجرد من أسناد الأرض ، وان يستهين كذلك بأسناد الأرض . انها في ذاتها واهية ، واهنة ، مهما بدت قوية قادرة (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) . .

وصاحب الدعوة الى الله يرتكن الى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى اذن ؟ وما تساوي في حسه ؟ حتى لو قدرت على أذاه ؟ انما تقدر على أذاه بأذن ربه الذي يتولاه . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها — سبحانه وتعالى — ولا تخلياً منه سبحانه عن نصرة أوليائه . ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتحميص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للاعذار والامهال والكيد المتين . لقد كان ابو بكر رضي الله عنه يردد والمشركون يتناولونه بالأذى ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ، كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (رب ما أحلمك .. رب ما أحلمك .. رب ما أحلمك) كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه . لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على اعدائه ، كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه . .

لقد كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول وقد تناوله المشركون بالأذى لأنه أسمعهم القرآن في ناديهم الى جوار الكعبة حتى تركوه وهو يترنح لا يصلب قامته . كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذي ناله (والله ما كانوا أهون علي منهم حينذاك) . كان يعرف انهم يحادون الله سبحانه ، وكان يستيقن أن الذي يحاد الله مغلوب هين على الله . فينبغي أن يكون مهيناً عند أولياء الله . ولقد كان عبدالله

بن مظعون رضي الله عنه يقول وقد خرج من جوار عتبة بن ربيعة المشرك لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتمي بجوار مشرك فيكف عنه الأذى . واخوان له في الله يؤذون في سبيل الله — وقد تجمع عليه المشركون بعد خروجه من جوار عتبة — فآذوه حتى خسروا عينه . كان يقول لعتبة وهو يراه في هذه الحال ، فيدعوه أن يعود الى جواره لأنا في جوار من هو أعز منك) . وكان يرد على عتبة اذ قال له (يا ابن أخي لقد كانت عينك في غنى عما أصابها . . يقول (لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله) . . كان يعلم أن جوار ربه أعز من جوار العبيد ، وكان يستيقن أن ربه لا يتخلى عنه ، ولو تركه يؤذى في سبيله هذا الاذى لترتفع نفسه الى هذا الإفق العجيب (لا والله . وللأخرى احق لما يصلحها في سبيل الله) . .

هذه نماذج من ذلك الجيل السامق الذي تربى بالقرآن في حجر محمد صلى الله عليه وسلم ، في ظلال ذلك التوجيه الرباني الكريم (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين وهذا الاعتصام بالله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين؟ كان ما يعرفه التاريخ. كانت الغلبة والعزة والتمكين . لأولياء الله. وكانت الهزيمة والهوان والدثور للطواغيت الذين قتلهم الصالحون. وكانت التبعية ممن بقي منهم ممن شرح الله صدره للاسلام لهؤلاء السابقين . الذين احتملوا الأذى بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزيمة في الله لا تلين .

ان صاحب الدعوة الى الله في كل زمان وفي كل مكان لن يبلغ شيئاً الا بمثل هذه الثقة ، والا بمثل هذه العزيمة ، والا بمثل ذلك اليقين (انّ وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ومهما أسفر الباطل عن غشمه وأطلق على الدعاة تهديده وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبير والتفكير . . ينبغي على الدعاة أن يمضوا في الطريق وان يحملوا الواجب الملقى على عاتقهم .

٧ — الاستسلام لقدر الله —

ان حقيقة الموت لقاسية رهيبة ، فهي التي تواجه كل حي فلا يملك لها رداً ،

ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعاً.وهي تتكرر في كل لحظة ويواجهها الكبار والصغار والاغنياء والفقراء . والأقوياء والضعاف . ويقف الجميع منها موقفاً واحداً. لا حيلة ولا وسيلة . ولا قوة ولا شفاعة . ولا دفع ولا تأجيل (فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها. والاستسلام لارادة تلك الجهة العليا . انه مشهد الموت الذي ينتهي اليه كل حي . يمضي في طريقه لا يتوقف ولا يتلعث ولا يستجيب لصرخة ملهوف. ولا لرغبة راغب ، ولا لخوف خائف . الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام . ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء . . .

والمنهج الإلهي يريد أن يصحح التصور عن الموت والحياة واسبابهما الظاهرة وحقيقتهما المضمرة. ورد الأمر فيهما الى القدرة المدبرة . والاطمئنان الى قدرة الله فيهما والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع . فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف . ان الحذر من الموت لا يجدي (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) ان الحذر لا يجدي ، وان الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً ، ولا يردان قضاء . وان الله هو واهب الحياة وهو آخذ الحياة. والموت حتم لا مهرب منه : وهذه لفتة من اللفتات القرآنية تقر في الاخلاد حقيقة ينساها الناس وهي تلاحقهم أينما كانوا فهذه الحياة الى انتهاء (قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . .

انه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس : حقيقة أن الحياة في هذه الأرض محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون .

يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد، يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والاهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص .

الكل يموت (كل نفس ذائقة الموت) كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من الكأس الدائرة على الجميع . انما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى، الفارق في المصير الاخير (انما توفون أجوركم يوم القيامة) (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . والموت حتم في موعده المقرر . ولا علاقة له بالحرب والسلم . ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد ، أو قلة حصانته (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال في سبيل الله اذن . ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده .

فلا معنى اذن لخشية الناس في القتال أو غير القتال انه ليس معنى هذا ألا يأخذ الانسان حذره وحيطته وكل ما في طوقه من استعداد واهبة ووقاية والله يقول (خذوا حذركم) ولكن هذا كله وتعليق الموت والأجل به شيء آخر . ان أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله . .

وان التصور الصحيح للعلاقة بين الموت والأجل المضروب رغم كل استعداد واحتياط امر آخر يجب أن يطاع وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله، توازن واعتدال ، وتناسق بين جميع الأطراف . هذا هو الاسلام وهذا هو منهج التربية الاسلامي .. فقدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها الى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر (قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل) ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارّ . فان فروا فانهم ملاقوا حتفهم المكتوب في موعده القريب .وكل موعد في الدنيا قريب وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته ، سواء أراد بهم سوءاً أو اراد بهم رحمة . ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدر

الله . فالاستسلام الاستسلام والطاعة الطاعة والوفاء الوفاء بالعهد مع الله في السراء والضراء ويرجع الأمر اليه والتوكل الكامل عليه ثم يفعل الله ما يشاء ..

وان البشرية الى فناء والعقيدة الى بقاء .. والدعوة هي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية . فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على مر الأجيال والقرون. ويبقى أتباعها موصولون بمصدرها الأول. فيجب على كل الدعاة أن يستمروا في جهادهم حتى يلاقوا الله عز وجل في أجلهم الذي رسمه الله لهم (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتاباً مؤجلاً)

وان لكل نفس كتاباً مؤجلاً الى اجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل . . فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً ، والشجاعة والثبات والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً . . فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد . . هذا هو الطريق . . بهذا الوضوح .. لتستقر حقيقة الأمل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الاداء والوفاء . بالالتزامات والتكاليف الايمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع .وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده .(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) .

ان هناك اجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر وان هناك مضجعاً مقسوماً لا بد أن يجيء اليه صاحبه فيضطجع فيه . . والله عز وجل يريد أن يكشف الفارق الأساسي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها : سراؤها وضراؤها . ان صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف الى مشيئة الله مطمئن الى قدر الله . انه يعلم أنه لن يصيبه الا ما كتب الله له ، وان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع ولا يتلقى السراء بالزهو ولا تطير نفسه لهذه او تلك . ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا أو ليستجلب كذا بعد وقوع الأمر

وانتهائه . وانما صاحب العقيدة كل ما يقع له يتلقاه بالرضى والطمأنينة والتسليم موقناً أنه وقع وفقاً لقدر الله وتدبيره وحكمته . وانه لم يكن بد أن يقع كما وقع . ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله . توازن بين العمل والتسليم والايجابية والتوكل . يستقيم عليه الخطو ويستريح عليه الضمير فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه الصورة المستقيمة فهو أبداً مستطار، أبداً في قلق. في (لو) و(لولا) و(ياليت) و(أسفاه). والله يحذر المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان في تربية لهم أن لا يكونوا كالذين كفروا أولئك الذين تصيبهم الخسرات كلما مات لهم قريب في ثنايا المعركة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا). يقول الانسان لفساد تصوره لحقيقة ما يجري في الكون ولحقيقة القوة الفاعلة في كل مايجري . فهو لا يرى الا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية بسبب انقطاعه عن الله ، والله بيده اعطاء الحياة وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم أو في ميادين الكفاح التي تتطلبه العقيدة (والله يحيي ويميت) لذلك يجب أن تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة وحقيقة قدر الله، وبذلك تطمئن القلوب الى ما كان من ابتلاء جرى به القدر . والى ما وراء القدر من حكمة ، وما وراء الابتلاء من جزاء ..

ان الموت يصيب المجاهد والقاعد والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر ، ولا يؤجله جبن ولا قعود . والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء . وهذا الواقع هو الذي يبينه القرآن فيفضح النفوس المريضة بالنفاق حين يقول المنافقون للمؤمنين : (لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) وبذلك تستريح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة . فيجب أن نكون مستسلمين لله . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . الاستسلام الواعي المتعقل . القاصد المريد . العارف بما يفعل . المطمئن بما يكون . راضياً هادئاً مستبشراً . لا تتلجلج النفس في تحقيق ارادة الله عند أول اشارة واول توجيه . ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً . ثم لتعرف ان ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ،

ولا أن يؤذيها بالبلاء . انما يريد أن تأتيه طائعة ملبية. وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ولا تتألى عليه . .

* ويجب على المسلم أن يستسلم لله . . استسلاماً مطلقاً مع احسان العمل والسلوك. الاستسلام بكامل معناه . والطمأنينة لقدر الله ، والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة والاسترواح للرعاية والرضى الوجداني. رضى السكون والارتياح (ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) العروة التي لا تنقطع . ولا تهن ولا تخون ممسكاً بها في سراء أو ضراء . ولا يضل من يشد عليها في الطريق الوعر والليلة المظلمة بين العواصف والانواء . وهذه العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة في قلب المؤمن المستسلم لربه . هي الطمأنينة الى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول . طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها وربابطة جأشها في مواجهة الاحداث من هنا ومن هناك .

ان الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار . وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء . والعروة الوثقى هي عروة الاسلام لله ، والاستسلام والاحسان (والى الله عاقبة الأمور) واليه المرجع والمصير . فخير أن يستسلم الانسان اليه منذ البداية وأن يسلك الطريق على ثقة وهدى ونور .. وان القلوب الحائرة لتبث الضعف والخور في الصفوف. والنفوس الخائنة خطر ، ذلك بأنهم يأخذون بظواهر الأمور ويحسبون البلاء شراً في كل حال .

والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم ولا يخشى ، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بارادة الله ، وان الله ناصر له ومعين (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) .

٨ — توازن في الطريق :

هناك مقوم من مقومات العقيدة قد استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقراراً حقيقياً . واستيقنته انفسهم وتكيفت به مشاعرهم (وما كان

لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) . .

هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء. انما هم وما ملكت ايديهم لله. يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد .. وان هم الا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام . وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام، ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة. ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم. وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به . لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة، وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم. وهم ليسوا اصحاب الرواية ولا المسرح . وان هم الا اجراء ، لهم أجرهم على العمل ، وليس لهم ولا عليهم في النتيجة . عندئذ اسلموا انفسهم حقيقة لله . اسلموها بكل ما فيها، فلم يعد لهم منها شيء . وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله ، واستقامت حركاتهم مع دورته العامة ، وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها. لا تحاول أن تخرج عنها ، ولا أن تسرع أو تبطىء في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله . وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل حالة . واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة . . وشيئاً فشيئاً لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم ولا بالجزع الذي يعالج بالتجمل ، أو بالألم الذي يعالج بالصبر . انما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر ، المرتقب لأمر مألوف في حسه، معروف في ضميره: ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة. ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمراً هم يريدون قضائه. ولم يعودوا يستبطئون الاحداث لأن لهم أرباً يستعجلون تحقيقه، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها. انما ساروا في طريقهم مع قدر الله ينتهي بهم الى حيث ينتهي وهم راضون مستروحون ، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق ، وفي غير مَنّ ولا غرور ،وفي غير حسرة ولا أسف . انه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ،

وهم مطمئنون لليد التي تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين. سائرون معها في بساطة ويسر ولين. وهم مع هذا يحملون ما يقدرون عليه. ويبذلون ما يملكون كله ولا يضيعون وقتاً ولا جهداً، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة . ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة ، ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ولا أن يقولوا غير ما يفعلون .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة، والوقوف المطمئن عندما يستطيعون . هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها ، وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بالجبال . واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة وفي حياة المجتمع الانساني اذ ذاك . وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الافلاك وخطوات الزمان، ولا تحتك بها أو تصطدم، فتتعوق أو تبطىء نتيجة الاحتكاك والاصطدام. وهو الذي بارك تلك الجهود ، فاذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان . ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود .

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره الا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه ، وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود. ويطمئن الضمير الى قدر الله الشامل ، الذي لا يكون في الوجود أمر الا وفق مقتضاه وهكذا يقرر الله تبارك وتعالى في قوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الا اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) يقرر الكلية الاساسية في منهج الاسلام .

٩ ـ حقيقة الايمان :

للايمان حقيقة لا بد أن يجدها الانسان في نفسه ، وانه ليس الايمان دعوى ، ولا كلمات لسان وهو ليس بالتمني ، فلا بد للايمان من صورة عملية واقعية

يتجلى فيها ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل[1] .
ان حقيقة الايمان يجب أن ينظر اليها بالجد الواجب . فلا تتميع حتى تصبح كلمة بقولها اللسان ، ومن ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

ان المنهج الاسلامي منهج عقيدة ، وعمل يصدق العقيدة . فمحك الصدق هو العمل يراه الله ورسوله والمؤمنون . . ان الاسلام منهج حياة واقعية لا تكفي فيه المشاعر والنوايا ما لم تتحول الى حركة واقعية . وللنية الطيبة دلالتهـــا من الايمان فلها مكانها . ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء . انما النية تحسب مع العمل فتحدد قيمة العمل. وهذا معنى الحديث(انما الاعمال بالنيات). . الأعمال لا مجرد النيات . .

ان طبيعة هذه العقيدة تقتضي ألا يظل الايمان في القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ، انما هو حقيقة حية ، فاعلة متحركة ما تكاد تستقر في القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقق ذاتها في العمل والحركة والسلوك ولتترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة في عالم الواقع المنبثة عما هو كائن في عالم الضمير والايمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) . الايمان الذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الايمان واطمأن اليه وثبت عليه . لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . في واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الايمان وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس .

ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الايمانية في حسه ، والصورة الواقعية من حوله ، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق الى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الايماني ، وواقعه العملي ، وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الايماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله حتى تنثني هذه الجاهلية الى التصور الايماني والحياة الايمانية (أولئك هم الصادقون) .. الصادقون في عقيدتهم حين يقولون إنهم مؤمنون . فاذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالايمان لا يتحقق ، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون. إن طبيعة هذه العقيدة تقتضي ألا يظل الايمان في القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ..

وان النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . فهي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب وتظل مستقيمة موصولة . . لذلك كثيراً ما ينبه الله القلوب المؤمنة الى مزالق الطريق ، واخطار الرحلة لتعزم امرها وتحتسب وتستقيم ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ويظلم الجو وتناوحها العواصف والرياح . . فالايمان قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد تكون حقيقة تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها في الواقع ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة ، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها وتدفعها في الطريق . ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس في العقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض ، وما تزال كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم الى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة الى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى ، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان ، وقوى المال ، وقوى الحديد والنار . فاذا هي كلها تنهزم أمام

العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً . ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف .

١٠ – أعلام في طريق الايمان :

وحين يبلغ الايمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، يصدع بالحق في وجه الباطل بقوة وصرامة وفي استقامة لا عوج فيها ، ولا التواء ، ولا لبس فيها ولا غموض مهما كان الباطل منتفشا (إنا آمنا بربنا)..

وهنا يعلن الطاغوت ذلك التوعد الوحشي الفظيع (فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين).. إنه التعذيب والتشويه والتنكيل .. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق ، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان .. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح .. ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الايمان ، تستعلي على قوة الأرض ، وتستهين ببأس الطغاة وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل الى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل . ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ وماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقي في الطريق من صعاب بأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .. (قالوا إنّا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لـمّا جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين).. انه الايمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع أو يخنع . الايمان الذي يطمئن الى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة الى ربه فيطمئن الى جواره .. والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت .. وأنها معركة العقيدة في الصميم . لا يداهن ولا يناور .. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو ، لن يقبل منه الا ترك العقيدة . لأنه انما يحاربه ويطارده على العقيدة (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا)..

والذي يعرف أين يتجه في المعركة ، والى من يتجه ، لا يطلب من خصمه السلامة والعافية . انما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام .. ويقف الطغيان عاجزا أمام الايمان ، وأمام الوعي وأمام الاطمئنان .. يقف الطغيان عاجزا أمام القلوب التي خيل اليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب . ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام . فاذا هي مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله . وماذا يملك الطغيان اذا رغبت القلوب في جوار الله ؟ وماذا يملك الجبروت اذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان اذا رغبت القلوب عما يملك السلطان .. انه موقف حاسم في تاريخ البشرية بانتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار الانسان على الشيطان ،انه موقف حاسم في تاريخ البشرية ، باعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية الا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب .

وان الحق اذا مسّ القلوب يحولها تحويلا ، فاذا هزة عنيفة ترج رجا وتخض خضا حتى تصل الى أعماق النفوس وقرارة القلوب فتزيل عنها ركام الضلال وتجعلها صافية حية خاشعة للحق عامرة بالايمان في لحظات قصار . والحماقة التي يرتكبها كل طاغية حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة فلا تحرج من قلب أو ضمير . وانها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين)..

فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور ..

انها كلمة القلب الذي وجد الله . فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل بالطغيان . القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير .. (قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون) لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل ، لا ضير في التصلب والعذاب ، لا ضير في الموت والاستشهاد .. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ، وليكن في هذه الأرض

ما يكون .. يا لله .. يا لروعة الايمان إذ يشرق في الضمائر ، واذ يفيض على الارواح ، واذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، واذ يرتفع بسلالة الطين الى أعلى عليين . واذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر فاذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد .

وانه لموقف حاسم في تاريخ البشرية باعلان إفلاس المادية فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان .. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون .. وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصلب . وما تغير في حياتها شيء .. وما تغير من حولها شيء — في عالم المادة — انما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى . وتجمع الذرة التائهة الى المحور الثابت . وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد وقعت اللمسة التي تحول الابرة فيلتقط القلب ايقاعات القدرة ، ويتسمع الضمير أصداء الهداية وتتلقى البصيرة اشراقات النور .. وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغير في الواقع المادي ، ولكنها هي تُغير الواقع المادي ، وترفع الانسان في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح اليها الخيال .

ان لمسة الايمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعد القرب منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون . فاذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) فهي علينا أعز وهو جلّ شأنه أكبر وأعلى (فاقض ما أنت قاض) ودونك ما تملكه لنا في الأرض (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) فسلطانك مقيد بها ، وما لك من سلطان علينا في غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا ، وما تملكه لنا من عذاب أيسر أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل في الحياة الخالدة أبدا (إنا آمنا بربنا ..) وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الايمان القوية . وباستعلاء الايمان الواثق . وبتحذير الايمان الناصح ، وبرجاء الايمان العميق .. ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية اعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض ، وسلطان الأرض ، وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الاعلان الا في ظلال الايمان . انه مشهد انتصار الحق والايمان في واقع الحياة المشهود بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة .

الباب التاسع

الجهاد

١ — حرية الاعتقاد :

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الانسان التي يثبت له بها وصف انسان . فالذي يسلب انسانا حرية الاعتقاد ، انما يسلبه انسانيته ابتداء .. ومع حريـــة الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة . والا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة .. لذلك ان الله تبارك وتعالى يوضح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور . ويقومون بهذه الدعوة وينهضون بواجب القيادة للبشريـــة الضالة الضائعة : « لا اكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي ».

ان قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية اقتناع بعد البيان والادراك . وليست قضية إكراه وغضب وإجبار.. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته . يخاطب العقل المفكر والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة . يخاطب الكيان البشري كله والإدراك البشري بكل جوانبه ، وفي غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجىء مشاهدها إلجاء إلى الإذعان . ولكن وعيه لا يتدبرها ، وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك .. وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة ، فهو من باب أولى لا يواجه بالقوة والاكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير

التهديد أو مزاولة الضغط القاهر ، والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع .. وهكذا أعلن الاسلام هذا المبدأ العظيم الكبير ، وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للانسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره. وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه . وهذه هي أخصّ خصائص التحرر الإنساني . التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله باختياره لعقيدته — أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتّى أجهزتها التوجيهية ، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها . فاما أن يعتنق مذهب الدولة — وهو يحرمه من الايمان باله للكون يصرف هذا الكون — واما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب ... والإسلام هو أرقى تصور للوجود والحياة وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ، هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين ، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة .. ويجب أن نضع هذه القاعدة الكبرى التي يقررها الإسلام (لا إكراه في الدين) نضع هذه القاعدة إلى جوار فرضية الجهاد في الإسلام ، والمواقع التي خاضها الإسلام . وقوله تبارك وتعالى (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله)..

إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض فيزعمون أنه فرض بالسيف في الوقت الذي قرر فيه : أن لا إكراه في الدين .. أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة ، وهو يحاول في خبث أن يخمد في حسّ المسلم روح الجهاد ، ويهون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه وانتشاره . ويوحي إلى المسلمين بطريق ملتوية ناعمة ماكرة أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة .

وذلك كله في صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الاسلام . وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملون في حقل واحد في حرب الاسلام وتحريف منهجه ،

وقتل ايحاءاته الموحية في حس المسلمين ، كي يأمنوا انبعاث هذه الروح الذي لم يقفوا له مرة في ميدان . والذين أمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل ، وكالوا له الضربات الوحشية الساحقة في كل مكان . وألقوا في خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضي الجهاد . انما هي فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد . ومن ثم فلا داعي للجهاد .

لقد انتضى الاسلام السيف وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحدا على الإسلام ، ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد . جاهد الاسلام أولا : ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وقرر ذلك المبدأ العظيم (والفتنة أشد من القتل) فاعتبر الاعتداء على العقيدة والايذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم . واذا كان المؤمن مأذونا في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله ، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه .. وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون ، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون . يسامون الفتنة عن عقيدتهم. ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى .

وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم ما ترك اسبانيا اليوم ولاظل فيهاللإسلام. كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم .. وما يزال المسلمون اليوم يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية في أنحاء من الأرض شتى . وما يزال الجهاد مفروضا عليهم لرد الفتنة ان كانوا حقا مسلمين .

وجاهد الاسلام ثانيا : لتقرير حرية الدعوة — بعد تقرير حرية العقيدة — فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة ، وبأرقى نظام لتطوير الحياة . جاء

بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها . فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولا إكراه في الدين .

ولكن ينبغي قبل أن تزول العقبات من طريق ابلاغ هذا الخير للناس كافة ، كما جاء من عند الله للناس كافة.وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا ويقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا . ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا . فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة .. وما يزال هذ الهدف قائما وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليبلغوه ان كانوا مسلمين .

وجاهد الاسلام ثالثا: ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها . فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس ، وتستذلهم عن طريق التشريع . انما هناك ربّ واحد للناس جميعا هو الذي يشرع لهم على السواء. واليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون اليه وحده بالايمان والعبادة سواء . فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة الله، موكلا في حياة البشر. فلا يجوز أن يزاوله انسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد. وهذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام، على هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام ، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام . وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الاسلامي أيا كانت عقيدته . ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام ولا اكراه فيه على الدين انما هو البلاغ . جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه ، وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر ، والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق . ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه

العداء .. ولم يكن بُد أن يسحقها الإسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع في الأرض . ثم يدع الناس في ظله أحرارا في عقائدهم الخاصة . لا يلزمهم الا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية . أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار يزاولونها وفق عقائدهم ، والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم ويصون لهم حرماتهم في حدود ذلك النظام .

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضا على المسلمين (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) فلا تكون هناك ألوهية للعبيد في الأرض ولا دينونة لغير الله .. لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة . ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه . انما جاهد ليقيم نظاما آمنا يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعا في اطاره خاضعين له وان لم يعتنقوا عقيدته .. وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم ، واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم .. واقامة هذا النظام الصالح وحمايته .ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية ، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أخبث أعدائه أن يوحوا للمسلمين.

لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة ، ولا بد للإسلام من جهاد فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود (لا إكراه في الدين) نعم ولكن (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم).. وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام.

وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم وحقيقة تاريخهم ، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع إنما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً وعلى نظم الأرض جميعاً وعلى مذاهب الأرض جميعاً ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله ، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي ، والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به ، والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من

أيحرمها منه ؛ ويحول بينها وبينه . فهذا هو أعدى عـــداء البشرية الذي ينبغي للبشرية أن تطارده لو رشدت وعقلت . والى أن ترشد البشرية وتعقل يجب أن يطارده المؤمنون الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الايمان ، فذلك واجبهم لأنفسهم وللبشرية كلها وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله .

٢ ــ فريضة شاقة :

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة ولكنها فريضة واجبة الاداء .. واجبة الاداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم وللجماعة المسلمة وللبشرية كلها وللحق والخير والصلاح . والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ولا يهون أمرها ولا ينكر على النفس البشرية احساسها الفطري بكراهيتها وثقلها .

فالإسلام لا يماري الفطرة ولا يصادمها ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل .. ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ويسلط عليه نورا جديدا .. انه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته وتسيغ مرارته، وتحقق به خيرا مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير .. عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها . نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور .. انه من يدري فلعل وراء المكروه خيرا ووراء المحبوب شرا . ان العليم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة . وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة وتتفتح منافذ الرجاء ويستروح القلب في الهاجرة ويجنح إلى الطاعة في يقين وفي رضاء . هكذا يواجه الإسلام الفطرة ، لا منكراً عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية ، ولا مريدا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف . ولكن مربياً لها على الطاعة ومفسحا لها بالرجاء لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير ، ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة ، ولتحس بالعطف الالهي الذي يعرف مواضع ضعفها ، ويعرف بمشقة ما كتب عليها ، ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء ..

وهكذا يربي الإسلام الفطرة فلا تمل التكليف ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية ، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة ، ولكن تثبت وهي تعلم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها وتصمم على المضي في وجه المحنة . فقد يكمن فيها الخير بعد الضر واليسر بعد العسر ، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء . ولا تتهالك على ما تحب وتلتذ ، فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة ، وقد يكون المكروه مختبئا خلف المحبوب ، وقد يكون الهلاك متربصا وراء المطمع البراق .. هكذا وبهذا التوجيه التربوي العظيم فرض الله الجهاد (كُتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ..

انه منهج في التربية عجيب . منهج عميق بسيط . منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق والصدق لا بالايحاء الكاذب والتمويه الخادع .. فهو حق أن تكره النفس البشرية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير . وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرا وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر . وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون ..

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه . وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون وتقلب الأمور وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه .. وانها لتتركه حين يستجيب لها طيعا في يد القدر ويعمل ويطمع ويرجو ويخاف . ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل . وهو راض قرير .. انه الدخول في السلم من بابه الواسع ، فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وان تطلب منه البرهان .. ان الاذعان الواثق والرجاء الهادىء والسعي المطمئن .. هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة ، وهو يقودهم اليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط في يسر وفي هوادة وفي رضاء يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال . فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال ..

وهكذا نرى أن كل إنسان في تجاربه الخاصة يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم يتبين له بعد فترة أنه كان انقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الانسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترة ، فإذا هي تنشىء له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل . ان الانسان لا يعلم والله وحده يعلم ، فماذا على الإنسان لو يستسلم .. ان هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف .

والإسلام لا يشتهي القتال ، ولا يريده حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الالهي في صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة إلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه ، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات التي تستند إلى قيم باطلة زائفة يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر .

وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في هذا المستوى الايماني وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول وموروثات الأجيال لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عـــارم والباطل متبجح والشيطـــان لئيم . ومن ثم يتعين على حملة الايمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد وحرية العمل وفق نظامه المرسوم . وهم يقاتلون في سبيل الله .. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون .. في سبيل الله وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . ولم يكن بد أن يقاومه أفراد وأن تقاومه طبقات وأن تقاومه دول ولم يكن بد كذلك أن يمضي

الإسلام في وجه هذه المقاومة ؛ ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج وتحقيق كلمة الله في الأرض . لهذا أحب الله سبحانه الذين يقاتلون في سبيله صَفًا كأنهم بنيان مرصوص (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) .. انه القتال .. انه الجهاد للعقيدة لحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة واقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يَهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء . وبحيث يلجأ اليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تفتنه أو تمنعه (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم).. وغاية القتال في الإسلام هي ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عـــام وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ويهابه أعداؤه ؛ فلا يجرؤ على التعرض للناس بالأذى والفتنة .. والجماعة المسلمة مكلفة اذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة ، وحتى تصبح الغلبة والمنعة لدين الله .

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال . ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال ومركب القتال وزاد القتال ، لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند ، انما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم . انها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمي نفسها من أهلها أو من أعدائها ، انما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها . ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد والذود عن منهج الله وراية العقيدة لا يجدون ما يتجهزون به ، وهذا ما حدث لفقراء المسلمين الذين جاءوا للرسول يطلبون منه أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذي لا يبلغ عليه الاقدام فإذا لم يجد ما يحملهم عليه (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الانفاق في سبيل الله . وصاحبت الدعوة إلى الجهاد ، دعوة إلى الانفاق في معظم المواضع (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف .

٣ – في طريق الجهاد :

إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهوراً قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد وتقع الواقعة، بل ان هذه قد تكون القاعدة . ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال واصرار ، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا أول الصف جزعا ونكولا وانهيارا ، على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ويعدون للأمر عدته ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته . والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافا ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور . وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالا وأي الفريقين أبعد نظرا كذلك . وهذا ما يصوره لنا الله تبارك وتعالى : (فلما كُتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب)..

إن الايمان الذي لم ينضج بعد ، والتصور الذي لم تتضح معالمه ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض ، وأنها أكبر من حماية الأشخاص وحماية الأقوام وحماية الأوطان . إذ أنها في صميمها اقرار منهج الله في الأرض وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم ، وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض، ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه بأي لون من ألوان الفتنة..

الايمان الذي لم ينضج بعد لبيلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر ،والاستماع فقط إلى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول والسبب والمسبب والكلمة الأخيرة ،

والتصور الذي لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هـذا الدين في الأرض ومهمته هو -المؤمن- بوصفه قدرا من قدر الله ينفذ به الله ما يشاؤه في هذه الحياة، لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف فيلدغه الأذى فلا يطيقه ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة .. ووجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشأ فيه حالة من الخلخلة ، وينشأ فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع وبين الرجال المؤمنين ذوي القلوب الثابتة المطمئنة المستقبلة لتكاليف الجهاد على كل ما فيها من مشقة بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا ، ولكن في موضعها المناسب . فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية . أما الحماسة قبل الأمر فقد تكون مجرد اندفاع وتهور يتبخر عند مواجهة الخطر .

وهناك صورة تتشكل في الجماعة الإسلامية يحذر الله تعالى منها (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا).. انها صورة لم تألف نفوسهم النظام ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة الصفوف وفي النتائج التي تترتب عليها وقد تكون قاصمة ، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف ، وان كلمة عابرة وفلتة لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى الجماعة كلها ، ما لا يخطر له ببال وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال.

واذاعة الكلمة يتلقاها لسان عن لسان ، سواء كانت اشاعة أمن أو اشاعة خوف ، فكلتاهما قد يكون لإشاعتهما خطورة مدمرة . فان اشاعة أمر الأمن مثلا في جماعة متأهبة مستيقظة متوقعة الحركة من العدو .. اشاعة أمر الأمن في مثل هذا تحدث نوعا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة . لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية .. كذلك اشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة ، قد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكا وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف ، وقد تكون كذلك القاضية .. وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته أو هما معا. والقرآن

يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح (ولو ردّوه إلى الله والرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم).

إن مهمة الجندي المسلم في الجيش المسلم الذي يقوده أمير مؤمن حين يبلغ إلى أذنيه خبر أن يسرع فيخبر أميره ، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ، لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر حتى بعد ثبوته أو عدم إذاعته .. وهكذا كان القرآن يربي فيغرس الايمان والولاء للقيادة المؤمنة .

٤ – هذا هو الطريق :

(ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون . وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .. هذا هو الطريق .. يرسمه الله عز وجل .. انه نص رهيب ، انه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله ، وعن حقيقة البيعة التي أعطوها باسلامهم طوال الحياة . فمن بايع هذه البيعة ووفّى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف المؤمن وتتمثل فيه حقيقة الايمان ، والا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق . وحقيقة هذه البيعة أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم . فلم يعد لهم منها شيء . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله . لم يعد لهم الخيار في أن يبذلوا أو يمسكوا كلا .. انها صفقة مشتراة . لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم لا يتلفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول الا الطاعة والاستسلام .. والثمن هو الجنة .. والطريق هو الجهاد والقتل والقتال والنهاية هي النصر أو الاستشهاد (ان الله اشترى من المؤمنين) .. من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة .. من ارتضى الثمن ووفى .. فهو المؤمن .. هذا هو الطريق .. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً ،

والا فهو واهب الانفس والاموال وهو مالك الأنفس والأموال، ولكنه كرم هذا الانسان فجعله مريداً .وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها حتى مع الله، وكرمه فقيده بعقود وعهود ، وجعل وفاءه بها مقياس انسانيته الكريمة ، ونقضه لهامقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة،شر البهيمة (ان شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء . وانها لبيعة رهيبة بلا شك ، ولكنها في عنق كل مؤمن لا تسقط عنه الا بسقوط ايمانه . ومن هنا يجب أن نستشعر الرهبة بحقيقة الايمان

عونك اللهم فانالعقد رهيب . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم مسلمين في مشارق الارض ومغاربها قاعدون . لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الارض وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد . ولا يقتلون ولا يُقتلون . ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال .

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الاولين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ، ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم أو يحسونها مجردة في مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر لتحويلها إلى حركة منظورة لا إلى صورة متأملة . هكذا أدركها عبدالله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية . قال محمد بن كعب القرظي وغيره . قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يعني ليلة العقبة) اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأشترط لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا : فمالنا اذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال الجنة . قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل) ..

ان الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن .. كل مؤمن على الاطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله .. انها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه

الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها (ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض)..

ان الحق لا بد أن ينطلق في طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق . بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق . ان دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق .. بل لا بد له أن يقطع عليه الطريق ، ولا بد لدين الله أن ينطلق في الارض كلها لتحرير الانسان كله . ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ، ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقه . وما دام في الارض كفر . وما دام في الارض باطل . وما دامت في الارض عبودية لغير الله تذل كرامة الانسان . فالجهاد في سبيل الله ماض والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء والا فليس بالايمان .

وإن المجاهد في سبيل الله أقوى من قيود الارض لانه أرفع من ثقلة الارض ، والايمان ينتصر على الالم ،والعقيدة تنتصر على الحياة.. ان الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن .. ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة للقتال ، انما هو قمة تقوم على قاعدة من الايمان المتمثلة في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال .. (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله)..هذه هي قاعدة القمة السامقة، صفاتها ومميزاتها . توبة ترد العبد إلى الله وتكف عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح ، وعبادته تصله بالله ، وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته ، وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله ، والثقة المطلقة برحمته وعدله ، وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى اصلاح العباد والحياة ، وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين ويصونها من التهجم والانتهاك .. (وجاهدوا في الله حق جهاده) ..

انه تعبير شامل جامع دقيق يصور تكليفاً ضخماً يحتاج إلى تعبئة وذخيرة

واعداد . فالجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الاعداء وجهاد النفس وجهاد الشر والفساد كلها سواء .. هذا هو الطريق .. ليست الحياة لهواً ولعباً ، وليست الحياة أكلا كما تأكل الانعام ومتاعاً . وليست الحياة سلامة ذليلة وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيص .. انما الحياة هي هذه .. كفاح في سبيل الحق وجهاد في سبيل الخير وانتصار لاعلاء كلمة الله أو استشهاد في سبيل الله ثم الجنة والرضوان ..

هذه هي الحياة التي يدعونا اليها الله(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) والحياة التي يدعونا اليها الله هي الجهاد في سبيله وعدم التثاقل عن النفرة في سبيل الله (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الارض) .. انها ثقلة الارض ومطامع الارض وتصورات الارض ، ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . ثقلة الذات الفانية والاجل المحدود والهدف القريب . ثقلة اللحم والدم والتراب . ان هذا التعبير القرآني (اثاقلتم) تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقـــل .

ان النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الارض وارتفاع على ثقلة اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الانسان ، وتطلع إلى الخلود الممتد وخلاص من الفناء المحدود (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل) . وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله الا وفي هذه العقيدة دخل ، وفي ايمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يغز ، ولم يُحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق) . فالنفاق وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال — هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة ، عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر . والآجال بيد الله والرزق من عند الله وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل .

ويتوجه الله عز وجل بالتهديد (الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً

غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) .. انه خطاب عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الاخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للاعداء ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والاموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف منها ما تتطلب منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد الا ضرب الله عليها الــذل ..

وان الاستعلاء على ثقلة الارض وعلى ضعف النفس اثبات للوجود الانساني الكريم ، فهي حياة بالمعنى العلوي للحياة . وان التثاقل إلى الارض والاستسلام للخوف اعدام للوجود الانساني الكريم فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للانسان ..

لذلك يحث الله عز وجل المؤمنين على هذه الحياة الكريمة المتمثلة في الجهاد في سبيله والاستشهاد في سبيله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) ..

لقد أدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير فنفروا والعوائق في طريقهم والاعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالاعذار ففتح الله عليهم القلوب والارضين ، وأعز بهم كلمة الله وأعزهم بكلمة الله وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح . قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يا بني . فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى، فركب البحر فمات . فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها الا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير فدفنوه بها .)

وروى ابن جرير باسناده عن أبي راشد الجراني قال : وافيت المقداد بن الاسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة ،

وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو . فقلت له قد أعذر الله اليك . فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالا) . وروى كذلك باسناده عن حيان بن زيد الشرعبي : قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الافسوس إلى الجراجمة ، فرأيت شيخاً كبيراً هما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت اليه فقلت يا عم لقد أعذر الله اليك . قال فرفع حاجبيه . فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده فيبقيه ، وانما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد الا الله عز وجل) .. وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الاسلام في الأرض يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبمثل هذا الجد يجب أن يأخذ الدعاة هذه الكلمات بجد وصرامة فيفتح عليهم القرآن بما فتح على أهل القرآن .

هذا هو الطريق .. الجهاد في سبيل الله .. والقتال في سبيل الله (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) ..

ان الاسلام لا يعرف قتالاً الا في هذا السبيل ، لا يعرف القتال للغنيمة ، ولا يعرف القتال للسيطرة ، ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي انه لا يقاتل للاستيلاء على الارض ولا للاستيلاء على السكان . لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات والاسواق للمنتجات أو لرؤوس الاموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات..انه لا يقاتل لمجد شخص . ولا لمجد بيت. ولا لمجد طبقة. ولا لمجد دولة . ولا لمجد أمة . ولا لمجد جنس.. انه يقاتل في سبيل الله لاعلاء كلمة الله في الارض. ولتمكين منهجه في تصريف الحياة، ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج وعدله المطلق بين الناس .

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد اعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة ثم يقتل يكون شهيداً . وينال مقام الشهداء عند الله . وحين يخرج لاي هدف غير هذا الهدف لا يسمى شهيداً ولا ينتظر أجره عند الله بل عند صاحب

الهدف الآخر الذي خرج له . والذين يصفونه حينئذ بأنه شهيد يفترون على الله الكذب ، ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس افتراء على الله . فليقاتل في سبيل الله .. بهذا التحديد .. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الاخرة . لذلك ان الله سبحانه يقف الناس على مفرق الطريق . وفي لحظة ترتسم الاهداف وتتضح الخطوط (الذين آمنوا يقاتلون في سبيـــل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) ..

ان الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله لتحقيق منهجه واقرار شريعته أما الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله ، واقرار شرائع شتى غير شريعة الله واقامة قيم شتى غير التي أذن بها الله .. ويقف الذين آمنوا مستشفعين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .. ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم وشتى مناهجهم وشتى شرائعهم وشتى قيمهم وموازينهم .. فكلهم أولياء الشيطان (ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) . وان المسلمين يقفون على أرض صلبة مسندين ظهورهم إلى ركن شديد ، يخوضون المعركة ويواجهون قوماً أهل باطل . ومن هذا التصور الحقيقي انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة .

ان الجهاد في سبيل الله هو طريق الدعوة إلى الله ، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الاولى انما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة ، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الامة المسلمة ما استغرق كل الفصول الواسعة من صلب كتاب الله ، ولما استغرق فصولاً طويلة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ان الله تعالى يعلم أن هذا المنهج الالهي تكرهه الطواغيت ، ويعلم أنه لا بد لاصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم ومنهج غير منهجهم . ليس بالامس فقط ولكن اليوم وغدا ، وفي كل أرض وفي كل جيل . وان الله

سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفاً ، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سليمة موادعة . فان مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة .. هذه فطرة وليست حالة طارئة .. ومن ثم لا بد من الجهاد .. لا بد منه في كل صورة ، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والمشهود ، ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة . والا كان الامر هزلا لا يليق بالمؤمنين .. ولا بد من بذل الاموال والانفس كما طلب الله من المؤمنين .. هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة وفي منهجها الواقعي وفي خط سيرها المرسوم . وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية التي لا علاقة لها بتغير الظروف .. وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المسلم تحت أي ظرف من الظروف .. ومن هذه النقط .. الجهاد .. الجهاد في سبيل الله وحده وتحت رايته وحدها . وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه شهداء ويتلقاهم الملأ الاعلى بالتكريم ..

٥ — طبيعة الجهاد في الاسلام :

لقد لخص الامام ابن القيم سياق الجهاد في الاسلام في (زاد المعاد) في الفصل الذي عقده باسم (فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل : أول ما أوحى اليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره اذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : (يا أيها المدثر قم فأنذر) فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر). ثم أمره أن ينذر عشيرته الاقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حوله من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة ، واذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم

أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الامر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة. وأهل حرب. وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لاهل العهد والصلح عهدهم،وان يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده.. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الاسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فاذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال آل العهد والصلح إلى الاسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب .. وأما سيرته في المنافقين فانه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه ان استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين) .. ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الاسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً :

السمة الاولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين .. فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي .. أنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ؛ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ؛ تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الاسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لازالة الانظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل .. انها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الافراد .. وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لاخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجيء...

والسمة الثانية في منهج هـــذا الدين : هي الواقعيـــة الحركية فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة بمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مرّ بها هذا المنهج وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللا ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادىء والقواعد النهائية ، ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين ، ويقولون وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الاسلام الا العنوان — : ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع . ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو ازالة الطواغيت كلها من الارض جميعاً وتعبيد الناس لله وحده واخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد . لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن

استسلامها ، والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها ..

والسمة الثالثة : هي أن هذه الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الاول سواء وهو يخاطب العشيرة الاقربين أو يخاطب قريشاً أو يخاطب العرب أجمعين أو يخاطب العالمين ، انما يخاطبهم بقاعدة واحدة ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد ، هو اخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد ، لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين. ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ذات مراحل محددة ، لكل مرحلة وسائلها المتجددة على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الاخرى على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن زاد المعاد ، وقيام ذلك الضبط على أساس أن الاسلام لله هو الاصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء اليه أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية وأن تخلي بينه وبين كل فرد . يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادته ، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه . فان فعل ذلك أحد ، كان على الاسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه ..

اعلان عام لتحرير الانسان : والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن الجهاد في الاسلام ليدفعوا عن الاسلام هذا الاتهام .. يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس ، وتمنعهم من العبودية لله ، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . ومن أجل هذا التخليط وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة يحاولون أن يحصروا الجهاد في الاسلام فيما يسمونه اليوم : (الحرب الدفاعية) .. والجهاد في الاسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم . ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك . ان

بواعث الجهاد في الاسلام ينبغي تلمسهـا في طبيعة الاسلام ذاته ودوره في هذه الارض وأهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات :

ان هذا الدين اعلان عام لتحرير الانسان في الارض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد — وذلك باعلان ألوهية الله وحده — سبحانه — وربوبيته للعالمين .. ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الارض الحكم فيه للبشر في صورة من الصور . أو بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر في صورة من الصور ذلك أن الحكم الذي مرد الامر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله . ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد . ان معناه تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض .. أو بالتعبير القرآني الكريم .

(وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله) ..

(ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه .. ذلكَ الدين القيم)

(قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) ..

ومملكة الله في الارض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الارض رجال بأعيانهم — هم رجال الدين كما كان الامر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الالهة . كما كان الحال في ما يعرف باسم (الثيوقراطية) أو الحكم الالهي المقدس — ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مردّ الامر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة ..

وقيام مملكة الله في الارض ، وازالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبية من العباد ورده إلى الله وحده، وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لان المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله في الارض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض . وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — وتاريخ هذا الدين على مر الاجيال .

ان هذا الاعلان العام لتحرير الانسان في الارض من كل سلطان غير سلطان الله ، باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن اعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً .. انما كان اعلاناً حركياً واقعياً ايجابياً .. اعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل (الحركة) إلى جانب شكل (البيان) .. ذلك ليواجه (الواقع) البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه ..

والواقع الانساني ، أمس واليوم وغداً ، يواجه هذا الدين — بوصفه اعلاناً عاماً لتحرير الانسان في الارض من كل سلطان غير سلطان الله — بعقبات اعتقادية تصورية . وعقبات مادية واقعية .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

واذا كان (البيان) يواجه العقائد والتصورات ، فان (الحركة) تواجه العقبات المادية الاخرى — وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة .. وهما معاً — البيان والحركة — يواجهان (الواقع البشري) بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للانسان في الارض ..

(الانسان) كله في (الارض) كلها .. وهذه نقطة هامة لا بُد من تقريرها مرة أخرى .

ان هذا الدين ليس اعلاناً لتحرير الانسان العربي . وليس رسالة خاصة بالعرب .. ان موضوعه هو (الانسان) .. نوع (الانسان) .. ومجاله هو (الارض) .. كل الارض . ان الله سبحانه ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الاسلامية وحدهم .. ان الله هو (رب العالمين) وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم ، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى — في نظر الاسلام — هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر . وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون الا لله . وان من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله صلى عليه وسلم على أن (الاتباع) في الشريعة والحكم هو (العبادة) التي صار بها اليهود والنصارى (مشركين) مخالفين لما أمروا به من (عبادة) الله وحده .

أخرج الترمذي باسناده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرَّ إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم مَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها فرغبته بالاسلام ، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحدث الناس بقدومه ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقه (أي عدي) صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .. قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : (بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم اياهم) ..

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله سبحانه ، نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض .. الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ؛ ويعلن تحرير

الانسان في الارض من العبودية لغير الله . ومن ثم لم يكن بُد للاسلام أن ينطلق في الارض لازالة الواقع المخالف لذلك الاعلان العام .. بالبيان والحركة مجتمعين .. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه — والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى (البيان) واعتناق (العقيدة) بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي — بعد ازالة القوة المسيطرة — سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد .

انه لم يكن من قصد الاسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . ولكن الاسلام ليس مجرد (عقيدة) .. ان الاسلام كما قلنا اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء إلى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان.. ثم يطلق الافراد بعد ذلك أحراراً — بالفعل — في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم — بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم — ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلهم هواهم ، أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ان النظام الذي يحكم البشر في الارض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد — في ظل هذا النظام العام — ما يعتنقه من عقيدة . وبهذا يكون (الدين) كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . ان مدلول (الدين) أشمل من مدلول العقيدة .. ان الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة .. وفي الاسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام .

والذي يدرك طبيعة هذا الدين — على النحو المتقدم — يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للاسلام في صورة الجهاد بالسيف — إلى جانب الجهاد بالبيان — ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية — بالمعنى الضيق الذي يفهم

اليوم من اصطلاح الحرب الدفاعية — كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الاسلام — انما كان حركة دفاع وانطلاق لتحرير الانسان في الارض .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ؛ وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة . واذا لم يكن بُد من أن نُسمي حركة الاسلام الجهادية حركة دفاعية فلا بُد أن نغير مفهوم كلمة دفاع . ونعتبره (دفاعاً عن الانسان ذاته) ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره .. هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ؛ كما تتمثل في الانظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام ، والتي ما تزال أشكالها منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان .

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة (الدفاع) نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامي في (الارض) بالجهاد، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها، وهي أنه اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الارض واقامة مملكة الشريعة الالهية في عالم الانسان ..

أما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لاثبات أن وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على (الوطن الاسلامي) وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب . فهي محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الارض . كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي . ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان — رضي الله عنهم — قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟

انها سذاجة أن يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير (الانسان) .. نوع الانسان .. في الارض .. كل الارض .. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان . انها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلي بينها وبين الافراد تخاطبهم بحرية وهم مطلقوا السراح من جميع تلك المؤثرات .. فهنا (لا اكراه في الدين) .. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من ازالتها أولا بالقوة للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله وهو طليق من هذه الاغلال .

ان الجهاد ضرورة للدعوة . اذا كانت أهدافها اعلان تحرير الانسان اعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي . سواء كان الوطن الاسلامي وبالتعبير الاسلامي الصحيح : دار الاسلام آمناً أم مهدداً من جيرانه . فالاسلام حين يسعى إلى السلم لا يقصد تلك السلم الرخيصة ، وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الاسلامية ؛ انما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله . والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أربابا من دون الله ؛ والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الاسلام بأمر من الله — لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها .. ولقــد انتهت هذه المراحل كما يقول الامام ابن القيم: (فاستقر أمر الكفار معه — بعد نزول براءة — على ثلاثة أقسام محاربين له ، وأهل عهد وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الاسلام .. فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربين له خائفون منه . فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب) .. وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر .

ولقد كفّ الله المسلمين عن القتال في مكة وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة . وقيل للمسلمين : (كفوا أيدكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .. ثم أذن لهم فيه وقيل لهم :(أُذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وان الله على نصرهم

لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكرفيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) . .
ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) .. وقيل لهم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .. فكان القتال — كما يقول الامام ابن القيم — (محرماً ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين) . .

ان جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد وجدية الاحاديث النبوية التي تحض عليه وجدية الوقائع الجهادية في صدر الاسلام وعلى مدى طويل من تاريخه .. ان هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي .

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملابسات تذهب وتجيء ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟ .

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الاصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض لدفع الفساد عن الارض : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله. **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد** يذكر فيها اسم الله

كثيراً) . واذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الارض وأنه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعالمين وتحرير الانسان من العبودية للعباد ، رماهم مغتصبون لسلطان الله في الارض ولم يسالموهم قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن (الانسان) في (الارض) ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

ان الكف عن القتال في مكة لم يكن الا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الامر أول العهد بالهجرة والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين للمدينة .. هذا هدف أولي لا بد منه . ولكنه ليس الهدف الاخير .. انه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ويؤمن قاعدة الانطلاق. الانطلاق لتحرير (الانسان) ولازالة العقبات التي تمنع (الانسان) ذاته من الانطلاق .

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم لانه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ . كان صاحبها صلى الله عليه وسلم يملك بحماية سيوف بني هاشم أن يصدع بالدعوةويخاطب بها الاذان والعقول والقلوب ويواجه بها الأفراد . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من ابلاغ الدعوة أو تمنع الافراد من سماعها فلا ضرورة في هذه المرحلة لاستخدام القوة وذلك الى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة .

ربما كان ذلك لان الفترة المكية كانت فترة تربية واعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والاعداد في مثل هذه البيئات : تربية نفس الفرد العربي على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه، فلا يندفع لأول مؤثر — كما هي طبيعته — ولا يهتاج لأول مهيج .

ليم الاعتدال في طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظماً له قيادة يرجع اليها في كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف الا وفق ما تأمره به — مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته — وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لانشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي أو القبلي .

وربما كان ذلك أيضاً ، لان الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ ، في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعها القتال معها — في مثل هذه المرحلة — إلى زيادة العناد والى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالاسلام. فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الاسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها وجهته الاساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً .

وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لانشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . انما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه ويفتنونه (ويؤدبونه) ومعنى الاذن بالقتال — في مثل هذه البيئة — أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت .. ثم يقال — هذا هو الاسلام . ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال . فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : ان محمداً يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته . فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي .. في كل بيت وفي كل محلة ؟

وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الاسلام المخلص بل من قادته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور

للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع وبخاصة اذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة — في هذه البيئة — فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر — وهو رجل كريم — يهاجر ويخرج من مكة، ورأى ذلك عاراً على العرب . وعرض عليه جواره وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من بيئات الحضارة القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى .

وربما كان ذلك لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة ، أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة الى قتل المجموعة المسلمة القليلة — حتى ولو هم أضعاف من سيقتل منهم — ويبقى الشرك، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولم يقم في الأرض للاسلام نظام ولا وجد له كيان واقعي . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة . .

فأما في المدينة في أول العهد بالهجرة — فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ... أولاً : لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً ، ولا ينشيء علاقة خارجية الا باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال امام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانياً : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفرغ — في هذه المرحلة —

لقريش ، التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي اليه الامر بين قريش وبعض بنيها. لذلك بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم بارسال السرايا . وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة. ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر ، ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً ثم على رأس ستة عشر شهراً . ثم كانت سرية عبدالله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات البقرة : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل: قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) . .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة. . ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ،لا تدع مجالاً للقول بأن(الدفاع) بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الاسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وامـــام الهجوم الاستشراقي الماكر.

ان الذين يلجأون الى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الاسلامي انما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية في وقت لم تعد للمسلمين شوكة ، بل لم يعد للمسلمين اسلام الا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق اعلان الاسلام العام بتحرير (الانسان) في (الأرض) من كل سلطان الاسلطان الله ، ليكون الدين كله لله ــ فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الاسلام .

والمد الاسلامي ليس في حاجة الى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية :

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة.ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً.ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها

واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفاً . . (النساء ٧٤ — ٧٦)

(قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) (الأنفال ٣٨—٤٠) ،(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله : ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله انىّ يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون(التوبة ٢٩—٣٢)

* انها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس .ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس ، والناس عبيد الله وحده ، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه . وهذا يكفي .. مع تقرير مبدأ (لا اكراه في الدين) . . أي لا اكراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والاقرار بمبدأ أن السلطان كله لله أو ان الدين كله لله بهذا الاعتبار .

انها مبررات التحرير العام للانسان في الأرض . باخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك . . وهذه وحدها تكفي . . ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول خرجنا : ندافع عن وطننا المهدد . أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين . أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة .

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر . وحذيفة بن محصن ، والمغيرة ابن شعبة جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة : ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا الى سعتها . ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .. فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وارضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة أو الظفر) . .

* ان هنالك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته، وفي اعلانه العام وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل متجددة . . وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء — ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الاسلامية وعلى المسلمين فيها — انه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية ... لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة وموقوتة .

وانه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهداً بنفسه وماله .. (في سبيل الله) . . في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ، ولا يخرجه لها مغنم ذاتي ..

* ان المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه مع الشيطان. . مع هواه وشهواته. . مع مطامعه ورغباته.. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الاسلام ومع كل دافع الا العبودية لله ، وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . .

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الاسلامي في حماية (الوطن الاسلامي) يغضون من شأن (المنهج) ويعتبرونه أقل من (الموطن) . وهذه ليست نظرة الاسلام الى هذه الاعتبارات . انها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الاسلامي فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه ، والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات

الوحيدة في الحس الاسلامي . أما (الأرض) بذاتها فلا اعتبار لها ولا وزن . وكل قيمة للارض في التصور الاسلامي انما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و (دار الاسلام) ونقطة الانطلاق لتحرير (الانسان). وحقيقة أن حماية (دار الاسلام) حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي. وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الاسلامي . انما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها ، وإلى النوع الانساني بجملته . فالنوع الانساني هو موضوع هذا الدين ، والأرض هي مجاله الكبير .

وكما أسلفنا فان الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع واوضاع البيئة . . وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة . كي يخلو له وجه الأفراد من الناس، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم، بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ (الجهاد) وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحث للجهاد الاسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين . في ملابسات دفاعية وقتية . كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد .

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين واعلانه العام ومنهجه الواقعي . والا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية . .

حقاً انه لم يكن بد أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية الله رب العالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لأن الحاكمية فيه لله وحده . . ان مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من

حوله القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملابسة لا بد منها . تولدمع ميلاد الاسلام ذاته. وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضاً ، ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرية يكون لا بد للاسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته أن يتحرك الى الامام ابتداء لانقاذ (الانسان) في (الأرض) من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية، ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية تاركاً(الانسان)نوع الانسان في (الأرض) كل الأرض للشر والفساد والعبودية لغير الله . .

ان المعسكرات المعادية للاسلام قد يجيء عليها زمن تؤثر فيه ألا تهاجم الاسلام اذا تركها الاسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته واعلانه التحريري العام . ولكن الاسلام لا يهادنها الا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة اداء الجزية ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين وهذه وظيفته بحكم أنه اعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين .

وفرق بين تصور الاسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعاً داخل حدود اقليمية أو عنصرية لا يحركه الا خوف الاعتداء . انه في هذه الصورة الاخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق .

ان مبررات الانطلاق الاسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين

هو منهج الله للحياة البشرية وليس منهج الانسان ولا مذهب شيعة من الناس . ولا نظام جنس من الأجناس ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية الا حين تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد . انه لا يمكن أن يستحضر انسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الاسلامي .

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق بين تصور ان الاسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه وتصور انه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء فيدخل في هذه المعركة .

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة تغير المشاعر والمفهومات الاسلامية تغييراً كبيراً خطيراً . .

ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام منهجاً إلهياً جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض وعبودية البشر جميعاً لإله واحد ويصب هذا التقرير في قالب واقعي هو المجتمع الانساني الذي يتحرر فيه الانسان من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد . فلا تحكمهم الا شريعة الله التي يتمثل فيها سلطان الله او بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته . فمن حقه اذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي أو أوضاع الناس الاجتماعية إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام على هذا النحو واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية .

هذا تصور وذاك تصور . ولو أن الاسلام في كلتا الحالتين سيجاهد ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد واهدافه ونتائجه يختلف اختلافاً بعيداً يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه .

ان من حق الاسلام ان يتحرك ابتداء . فالاسلام ليس نحلة قوم ولا نظام وطن ، ولكنه منهج اله ونظام عالم . ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز والانظمة والأوضاع التي تغل من حرية (الانسان) في الاختيار . وحسبه أن لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته . انما يهاجم الانظمة والاوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الاسلام ان يخرج (الناس) من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين وتحرير الناس أجمعين وعبادة الله وحده لا تتحقق في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي الا في ظل النظام الاسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم حاكمهم ومحكومهم أسودهم وابيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم . تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء .. أما في سائر الأنظمة فيعبد الناس العباد لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الالوهية . فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد أدعى الألوهية اختصاصاً وعملاً سواء أدعاها قولاً ام لم يعلن هذا الادعاء . وايما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية . سواء سمّاها باسمها أم لم يسمها .

والاسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بابلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . انما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الاسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا — كما قلنا من قبل — معنى أن يكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد .

ان الباحثين الاسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر ، وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر يتحرجون من تقدير تلك الحقيقة . لأن المستشرقين صوروا الاسلام حركة قهر بالسيف للاكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء

يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الاسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون — المهزومون — عن سمعة الاسلام بنفي هذا الاتهام . فيلجأون الى تلمس المبررات الدفاعية . ويغفلون عن طبيعة الاسلام ووظيفته ، وحقه في (تحرير الانسان) ابتداء .

وقد غشى على افكار الباحثين العصريين — المهزومين — ذلك التصور الغربي لطبيعة (الدين) .. وأنه مجرد (عقيدة) في الضمير ، لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة . . ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهاداً لفرض العقيدة على الضمير .

ولكن الأمر ليس كذلك في الاسلام . فالاسلام منهج الله للحياة البشرية . وهو منهج يقوم على افراد الله وحده بالألوهية — متمثلة في الحاكمية — وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية . فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج واقامة النظام. أما العقيدة فأمرها موكول الى حرية الاقتناع ، في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات . . ومن ثم يختلف الأمر من أساسه ، وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الاسلامي ، الذي يتمثل فيه المنهج الالهي ، فان الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام . مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان .. فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ . مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، في المراحل التاريخية المتجددة. ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية والدلالة العامة لخط الحركة الاسلامية الثابت الطويل .

* * *

وبعد فان هناك بقية في بيان طبيعة(الجهاد في الاسلام)و(طبيعة هذا الدين) يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية في باكستان ، بعنوان (الجهاد في سبيل الله). وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة ، لا غنى عنها لقارىء يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الاسلامية :

(لقد جرت عادة الافرنج أن يعبروا عن كلمة(الجهاد) (بالحرب المقدسة) (Holy War) اذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً ، وتفننوا فيها ، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة الملفقة . وقد بلغ الأمر في ذلك أن اصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . . وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم ، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة ، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة . . الجهاد . . تمثلت أمام أعينهم صورة من المواكب الهمج المحتشدة ، مصلتة سيوفها ، متقدة صدرها بنار التعصب والغضب ، متطايراً من عيونها شرار الفتك والنهب ، عالية هتافها بأصوات (الله أكبر) ، زاحفة الى الامام ، ما ان رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه ، وجعلته بين أمرين : اما أن يقول كلمة : (لا اله الا الله) فينجو بنفسه ، واما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماً .

ولقد رسم الدهاة هذه الصورة بلباقة فائقة ، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ، وكان من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر ، وكتبوا تحتها : (هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره الى سفك الدماء ، وجشع الى الفتك بالأبرياء) . .

والعجب كل العجب أن الذين عملوا على هذه الصورة وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في ابرازها وعرضها على الأنظار ،هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم ارضاء لشهواتهم الدنيئة واطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية ، وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة (Unholy War) التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها ،وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها ، ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ، ويفتشون عن المناجم والمعادن ، وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره الى المال والجاه . وبين أيديهم الدبابات المدججة ، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء ، ووراء

ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم الى الحياة الكريمة. ويريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التي لا تزيدها الايام الا التهاباً واضطراماً . فلم تكن حروبهم في (سبيل الله)، وانما كانت في سبل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم الذميمة .

هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال ، الذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب وقد مضت عليه أحقاب طويلة أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم (المتحضر المتمدن) . وأي بلاد الله يا ترى قد سلمت من عدوانهم وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسية وافريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟.. لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة ، وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع ، وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر اسلافنا . فما أعظم دهاءهم . وما أبرعهم في التزوير والتمويه ..

أما سذاجتنا وبله رجالنا ، فحدث عن البحر ولا حرج. وأي بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ؟ وما دار بخلدنا أن ننظر الى الأيدي الاثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة ، وأن نبحث عن الاقلام الخفية التي تفننت في تمويهها وزخرفتها. وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم ، وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة ، وعدنا نعتذر الى القوم ، نبدل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ، ونقول لهم : « ما لنا وللقتال ، أيها السادة . انما نحن دعاة مبشرون ، ندعو الى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة والموعظة الحسنة ، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن ، بالخطب والوسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة . هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص . أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت اليه بصلة . اللهم الا أن يقال : اننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد . ذلك أيضاً

قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً . ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد رسمياً ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف عمله . حتى لا يقلق بالكم ولا يقض عليكم المضجع . فما الجهاد اليوم الا مواصلة الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا الا أن نلعب بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها ، فأنتم أحق بها وأهلها » .

هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكنا اذا امعنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لاجلها استجلاء حقيقة (الجهاد في سبيل الله) ، واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم فضلاً عن غير المسلمين ، لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ الى امرين مهمين لم يسبروا غورهما ، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة .

(فالأول : انهم ظنوا الاسلام نِحلة (Religion) بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة النِحلة (Religion) عامة . .

والثاني أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين ، وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن ، وعاقهم عن ادراك مغزى الجهاد الاسلامي . بل الحق — والحق أحق أن يتبع — أن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الاسلامي بأسره ، وقلب الأمر ظهراً لبطن ، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً ، لا يرضاه الاسلام وتعاليمه الخالدة :

فالنِحلة (Religion) على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لا يراد بها الا مجموعة من العقائد والعبارات والشعائر . ولا جرم ان (النِحلة) بهذا المعنى لا تعدو

أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة، ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك . وان أبت نفسك الا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض ، وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً الى عقيدتها ، مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين ، مجادلاً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة واسنة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال ، فما لك ومالها في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وان كان الاسلام نحلة (Religion) كنحل العالم، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب ، كما قالوا . ولو كان موقف الاسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد، ولم يكن من الاسلام في ورد ولا صدر ، لكن الأمر على خلاف ذلك كما تعرفه فيما يأتي من البيان ، وكذلك كلمة الأمة (Nation) فما هي الا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها (Homogeneous Group of Men) اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية. فالطائفة التي تكون (أمة) بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام السيف الا أمران : أما أن يعتدى عليها أحد، ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة واما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة. ففي الصورة الأولى منهما لها سعة في الامر وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها الى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها . وان كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً . — أما الصورة الثانية — أي الاعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب — فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين — (Dictators) حتى إن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأميركا أيضاً لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها .

فان كان الاسلام (نحلة) كالنحل الأخرى ، والمسلمون (أمة) كغيرهم من أمم العالم ، فلا جرم ان (الجهاد) الاسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرة تاجها .. لكن الحقيقة ان الاسلام ليس بنحلة

كالنحل الرائجة وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم .. بل الأمر أن الاسلام فكرة انقلابية (Revolutionary) ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي..ومن هنالك تعرف أن لفظ (المسلم) وصف للحزب الانقلابي العالمي (International Revolutionary Party) الذي يكونه الاسلام ، وينظم صفوفه ليكون اداة في احداث ذلك البرنامج الانقلابي الذي يرمي اليه الاسلام، ويطمح اليه ببصره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي (Revolutionary Struggle) عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول الى هذه الغاية، وادراك هذا المبتغى.

والاسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهاجه العلمي — شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية — بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات (Terminology) خاصة ، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما اليها من الافكار والتصورات ، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة ..

(فالجهاد) ايضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الاسلام لاداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فأنت ترى ان الاسلام قد تجنب لفظة (الحرب) وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال (War) في اللغة العربية ، واستبدل بها كلمة (Struggle) في اللغة الانكليزية . غير أن لفظة(الجهاد)أبلغ منها تأثيراً وأكثر منها احاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالاسلام الى أن يختار هذه الكلمة الجديدة صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ الذي أراه واجزم به أنه ليس لذلك الا سبب واحد : وهو أن لفظة الحرب (War) كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي ينشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية . والغايات التي ترمي اليها امثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد اغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ. وبما أن القتال المشروع في الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . فان الاسلام لا ينظر الى مصلحة أمة دون أمة ، ولا يقصد الى النهوض بشعب دون شعب وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير

أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك ، وانما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به الى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ، ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الاسلام ، و يريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً ، ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الأمة التي ينتمي اليها القائمون بأمرها . فان غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه ، واقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفساده . والاسلام يتطلب (الأرض) ولا يقنع بقطعة أو جزء منها وانما يتطلب و يستدعي المعمورة كلها . ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها ، بعدما تنتزع من أمة أو من أمم شتى ، بل يتطلبها الاسلام و يستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما ، وفضله بهما على سائر الاديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه الغاية السامية يريد الاسلام ان يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاحداث انقلاب عالمي شامل ، و يبذل الجهد المستطاع للوصول الى هذه الغاية العظمى ، ويسمى هذا الكفاح المستمر ، واستنفاذ القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة (بالجهاد). فالجهاد كلمة جامعة شاملة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد . واذا عرفت هذا فلا تعجب اذا قلت : ان تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم واحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الاقلام نوع من أنواع الجهاد ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف ، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الاموال ، وتحمل المشاق ، ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب (الجهاد العظيم . .

ولكن الجهاد الاسلامي ليس بجهاد لا غاية له ، وانما هو الجهاد في سبيل الله ، وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح

عليها الاسلام لتبين فكرته وايضاح تعاليمه كما أشرت اليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر ، وحسبوا ان اخضاع الناس لعقيدة الاسلام واكراههم على قبولها هو (الجهاد في سبيل الله) . وذلك أن ضيق صدرهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا في سماء أوسع من سمائهم . لكن الحق أن (سبيل الله) في المصطلح الاسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون و يزعمون ..

فالذي يتطلبه الاسلام انه اذا قام رجل ، أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودها ، وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الاسلامية ، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لا تقصد من ورائها جهودها ، وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس الا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تبتغي بها بدلاً في هذه الحياة الفانية ، ولا يكون من هم الانسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لاعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة. ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ، و يستبد بزمام الأمر ، ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة. بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هوذا القرآن الكريم ينادي بملء صوته :

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ..) (النساء : ٧٦) . .

وقد تضمنت الآية الكريمة (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)(البقرة : ٢١) ...

لباب هذه الدعوة ، دعوة الاسلام الانقلابية وجوهرها . فانه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال . أو الفلاحين ، أو الملاكين، أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ، ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم . وانما يخاطب الاسلام

بني آدم كافة . ولا يناديهم كذلك الا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق، فان الحكم والامر لله وحده ، وبيده مقاليد السماوات والأرض ، فلا يجوز لأحد من خلقه، كائناً من كان ، أن يعلو في الارض ويتكبر ، ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته. ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء في هذه العبودية الشاملة ، كما ورد في التنزيل :

(تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران : ٦٤) .

فهذه دعوة الى انقلاب عالمي شامل ، لا غموض فيها ولا ابهام . فانه قد نادى بملء صوته :

(ان الحكم الا لله، أمر ألا تعبدوا الا اياه . ذلك الدين القيم)..(يوسف : ٤٠)

فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطراً عليهم ، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم ان استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى ، هو تكبر في الأرض على الله بغير الحق ، وعتو عن أمره وطموح الى مقام الالوهية [1] . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وامراء انما يشركون بالله ، وذلك مبعث الفساد في الأرض ، ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان .

انقلاب اجتماعي :

ان دعوة الاسلام الى التوحيد وعبادة الله الواحد ، لم تكن قضية كلامية .

(١) ولا يختلف الحال لو كانت هيئة ، أو كان (الشعب) هو الذي ينشيء شرائعه من غير سلطان من الملك الاعلى .. فالعبرة هي بهذا القيد .. سواء كان المشرع فرداً أم جماعة أم شعباً .

أو عقيدة لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ، بل الأمر أنها كانت دعوة الى انقلاب اجتماعي(Social Revolution) أرادت في أول الأمر ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الالوهية ، واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ، ومنهم من استأثر بالملك والإمرة ، وتحكم في رقاب الناس ، ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض، وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به . . فأرادت دعوة الاسلام ان تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً . . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية ، وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم، وينقادوا لجبروتهم ، مستندين الى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم ، أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون اليها ، فقالوا : (ما علمت لكم من إله غيري) . . (وأنا ربكم الأعلى) . . (وانا أحيي واميت) . . (ومن أشد منا قوة ؟) . . الى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الالوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً. وطوراً استغلوا جهل الدهماء وسفههم ،فاتخذوا من الاصنام والتماثيل والهياكل آلهة ، يدعون الناس ويريدونهم على اداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين بأنفسهم من ورائها ،يلعبون بعقول الناس ، ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا يشعرون . فيتبين من ذلك أن دعوة الاسلام الى التوحيد، واخلاص العبادة لله الواحد الأحد، وتنديده بالكفر والشرك بالله واجتناب الأوثان والطواغيت. كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها . والذين يجدون فيها سنداً لهم ، وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الانبياء يجاهر الناس بالدعوة ، وخاطبهم قائلاً (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره ، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . خرجت تقاومه وتضع في سبيل الدعوة العقبات. وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية. أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات(Metaphysical Proposition) وانما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين

بمناصب العز والجاه ، المستبدين بمنابع الثراء ، ممن يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام .

نظام شامل :

ان الاسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية ، وجملة من المناسك والشعائر ، كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها ، ويستبدل بها نظاماً صالحاً ، ومنهاجاً معتدلاً يرى انه خير للانسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان ، وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً . .

ودعوته في هذه السبيل ، سبيل الاصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشري كافة ، لا تختص بأمة دون امة ، أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بني آدم جميعاً الى كلمته ، حتى أنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه ، واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً : لا تطغوا في الأرض وادخلوا في كنف حدود الله التي حدها لكم ، وكفوا ايديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم اياه . فان اسلمتم لأمر الله ، ودنتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيراً وبركة فلكم الأمن والدعة والسلامة فان الحق لا يعادي أحداً وانما يعادي الحق الجور ، والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية ، ويبتغي ما وراء ذلك ، مما لاحظ له فيه حسب سنن الكون ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها .

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضواً في (الجماعة الاسلامية) أو (الحزب الاسلامي) لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود ، أو بين الغني منهم والفقير . كلهم سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون الحزب العالمي أو الأممي ، الذي سمي (حزب الله) بلسان الوحي .

وما ان يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أنشيء لأجلها فمن طبيعته ، وما يستدعيه وجوده ، أن لا يألو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الاسلام ، واستئصال شأفتها ، وان يستنفد مجهوده في أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً ، مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم : (كلمة الله) . فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ، ولم يسع سعيه . ازاء تغيير نظم الحكم واقامة نظام الحق . . نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل ، فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التي أنشيء لأجلها فانه ما أنشيء الا لادراك هذه الغاية ، وتحقيق هذه البغية . . بغية اقامة نظام الحق والعدل . . ولا غاية له ولا عمل الا الجهاد في هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التي يبينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . . (آل عمران : ١١٠) .

ولا يظن أحد أن هذا الحزب . . (حزب الله) . . بلسان الوحي . . مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين ، يعظون الناس في المساجد ، ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ليس الا . . ليس الأمر كذلك . وانما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ، ويكون شهيداً على الناس ، ومن مهمته التي ألقيت على كاهله من أول يوم أن يقضي على منابع الشر والعدوان ، ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت ، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة ، الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق ، وجعلوا انفسهم أرباباً من دون الله ، ويستأصل شأفة ألوهيتهم ، ويقيم نظاماً للحكم والعمران صالحاً يتفيأ ظلاله القاصي والداني والغني والفقير . . والى هذا المعنى اشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . . (الانفال : ٣٨)

(إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير).. (الانفال: ٧٣) . .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . . (التوبة : ٣٣) . .

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ، ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم ، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم الاّ على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض ، وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ، ويؤتي أكله ، الا بعدما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين . ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وأضف الى ذلك أن هذا الحزب ، بصرف النظر عما يرمي اليه من اصلاح العالم ، وبث الخير والفضيلة في انحاء الأرض كافة ، لا يقدر ان يبقى ثابتاً على خطته ، متمسكاً بمنهاجه ، عاملاً وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر ، سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادىء وغايات غير المبادىء والغايات التي يؤمن بها ، ويريد السير على منهاجها . فان رجلاً يؤمن بمبادىء الشيوعية ، ان أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا ، متمسكاً بمبدئه ، سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية فلن يتمكن من ذلك أبداً ، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه ، قاهرة بما أوتيت من سلطان فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلاً . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادىء الاسلام الخالده وبوده أن يبقى مستمسكاً بمبادىء الاسلام ، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ، ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً . لأن القوانين التي يراها باطلة ، والضرائب التي يعتقدها غرماً ونهباً لأموال الناس ، والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق وافتئاتاً على العدل ،

والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ، و يرى فيها هلاكاً للأمة . . يجد كل هذه مهيمنة عليه ، ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه واهله من أثرها ونفوذها . فالذي يؤمن بعقيدة ونظام — فرداً كان أو جماعة . مضطر بطبيعة عقيدته وايمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته . ويبذل الجهد المستطاع في اقامة نظام للحكم مستند الى الفكرة التي يؤمن بها و يعتقد أن فيها سعادة للبشر . لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه الا بهذه الطريق. واذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته، أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم انه كاذب في دعواه . ولما يدخل الإيمان في قلبه و بهذا المعنى ورد في التنزيل :

(عفا الله عنك لمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم . والله عليم بالمتقين . . انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) . . (التوبة : ٤٣—٤٥) . .

واي شهادة أصدق ، وأي حجة أنصح من شهادة القرآن وحجته ؟ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلبي نداء الجهاد ، ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل اعلاء كلمة الله ، واقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ، فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . .

انقلاب عالمي :

لعلك تبينت فيما أسلفنا آنفاً أن غاية (Objective) الجهاد في الاسلام ، هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه، واقامة حكومة مؤسسة على قواعد الاسلام في مكانها واستبدالها بها. وهذه المهمة..مهمة احداث انقلاب اسلامي عام. غير منحصرة في قطر دون قطر . بل مما يريده الاسلام، ويضعه نصب عينيه أن يحدث

هذا الانقلاب الشامل في جميع انحاء المعمورة .. هذه هي غايته العليا ، ومقصده الأسمى الذي يطمح اليه ببصره . الا أنه لا مندوحة للمسلمين ، أو أعضاء (الحزب الاسلامي) عن الشروع في مهمتهم باحداث الانقلاب المنشود ، والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم، التي يسكنونها. أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل (World Revolution) المحيط بجميع انحاء الأرض ، وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً الى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر. بل الحق أنها مضطرة بسجينها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينيها ، ولا تغفل عنها طرفة عين . فان الحق يأبى الحدود الجغرافية ، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها. فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة، ويقول لها مطالباً بحقه : ما بالكم تقولون: ان القضية الفلانية (حق) في هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلاً ، ثم تعود القضية نفسها (باطلاً) — بزعمكم — اذا جاوزنا ذلك الجبل أو النهر بأذرع ؟ الحق حق في كل حال وفي كل مكان . وأي تأثير للجبال والانهار في تغيير حقيقته المعنوية ؟ الحق ظله وارف ، وخيره عام شامل ، لا يختص ببيئة دون بيئة ، ولا قطر دون قطر فأينما وجد (الانسان) مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت (الانسانية) في ابنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبوا نداءها ، ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً. وبهذا المعنى نطق لسان الوحي حيث ورد في التنزيل :

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) . (النساء : ٧٥) .

وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الانسانية — على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية ، وأحدثت فيها من نزعات الشتات والاختلاف — قد تشتمل على تلاؤم شامل، وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة ، ما دامت الاقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ، ولا ترضى بالسير وفق منهاجها

وبرنامجها [1] . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه ، وابتغاء للاصلاح المنشود ، ألا يقنع باقامة نظام الحكم الاسلامي في قطر واحد بعينه بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال ، الا يدخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الاسلامي ، في جانب ، وراء نشر الفكرة الاسلامية ، وتعميم نظرياتها الكاملة ، ونشرها في اقصى الأرض وأدناها ويدعو سكان المعمورة — على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهج الذي يضمن لهم السعادتين ، سعادتي الدنيا والآخرة . . وبجانب آخر ، يشمر عن ساق الجد ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ، اذا استطاع ذلك وأعد له عدته ، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة المؤسس على قواعد الاسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى ، ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي .

هذه هي الخطة التي سلكها . وهذا هو المنهج الذي انتهجه النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده ، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين ، فانهم بدأوا ببلاد العرب . ثم أشرقت شمس الاسلام من آفاقها . واخضعوها أولاً لحكم الاسلام ، وأدخلوها في كنف المملكة الاسلامية الجديدة . ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم الملوك والامراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض الى دين الحق والاذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا الى هذه المملكة الاسلامية وأصبحوا من أهلها ، والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع في قتالهم وجهادهم . . ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه ، بعد وفاته صلى الله عليه وسلم والتحاقه بالرفيق الأعلى ، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الاسلامية . مملكتي الروم والفرس . اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الارض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق — رضي الله عنه — غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع اليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الاسلامية الأولى ، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً) . .

---

(١) وبخاصة اذا كانت هذه المبادىء والخطط هي مبادىء الاسلام وخططه التي تنتزع السلطان من كل متسلط وترده الى الله وحده . ومن ثم تتجمع في وجهها جميع الانظمة ، وجميع الحكومات ، وجميع المعسكرات التي تقوم على أساس عبودية البشر للبشر .. القاعدة التي تشترك فيها جميع أنظمة البشر .

الباب العاشر

الشهداء

١ — معنى الشهادة :

ان هذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . وكثيرا من الغبش يغطي على الشهادة في سبيل الله عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال ، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص وتنحرف عن معناها الوحيد القويم. انه لا جهاد ، ولا شهادة ولا جنة الا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده والنصرة له وحده في ذات النفس في منهج الحياة . لا جهاد ولا شهادة ولا جنة الا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء . عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء . أي ذلك في سبيل الله . قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (رواة الشيخان وأبو داود والترمذي) وليس هناك من راية أخرى أو هدف آخر يجاهد في سبيله من يجاهد ويستشهد دونه من يستشهد فيحق له وعد الله بالجنة . الا تلك الراية والا هذا الهدف من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة من غير هذا التصور ومن

رايات وأسماء وغايات . ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية وان يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة . لا جهاد الا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم ، والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة .. وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هناك جنّة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وانما هو الغبش وسوء التصرف والانحراف . فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله .

والشهداء مختارون يختارهم الله من بين المجاهدين ويتخذهم لنفسه سبحانه (ويتخذ منكم شهداء).. فما هي اذن خسارة أن يستشهد في سبيل الله مـــن يستشهد . انما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص . ان هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه . ثم هم شهداء يتخذهم الله ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس . يستشهدهم فيؤدون الشهادة ، يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه ولا جدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل احقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس يطلب الله سبحانه منهم أداء هذه الشهادة على أن ما جاءهم من عنده الحق ، وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه ، وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم الا بهذا الحق ، وعلى أنهم هم استيقنوا هذا فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس واقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا فيشهدون . وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت . وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال . وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله لا يقال له أنه شهد ، الا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهاً . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله .

فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد ، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله الا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي الا هذا المصدر ، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد اذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم . فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج السائد والغالب والمطاع . وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء .. فاذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله هو اذن شهيد أي شاهد .. طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها واتخذه الله شهيدا .. ورزقه هذا المقام (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) .

٢ — حياة الشهداء :

ليس هناك شهداء الا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى مجردة من كل ملابسة أخرى . وهؤلاء الشهداء أحياء .. لهم كل خصائص الأحياء فهم يرزقون عند الله وهم يفرحون بما آتاهم الله من فضله. وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين . فهذه خصائص الأحياء : من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير . فما الحسرة على فراقهم وهم أحياء فوق ما نالهم من فضل الله وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة ..

وان جلاء هذه الحقيقة الكبيرة أمام دعاة هذا الدين وأمام المؤمنين ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور . انها تُعدل بل تنشئ إنشاء تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها وهي موصولة لا تنقطع. فليس الموت خاتمة المطاف . انها نظرة جديدة ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين واستقبالهم للحياة والموت وتصورهم لما هنا وما هناك (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) والآية القرآنية نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله وفارقوا هذه الحياة وبعدوا عن أعين الناس.. أموات.. ونص كذلك في إثبات أنهم أحياء عند ربهم. ومع أننا نحن في هذه الفانية لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء الا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح.. الا ان النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة وما بينهما من انفصال

والتئام. وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها . فهؤلاء ناس منا يقتلون وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها ولكن لأنهم (قتلوا في سبيل الله) وتجردوا له من كل الأعراض والأغراض الجزئية الصغيرة واتصلت أرواحهم بالله فجادوا بأرواحهم في سبيله .. لأنهم قتلوا كذلك فإن الله سبحانه يخبرنا في الخبر الصادق أنهم ليسوا أمواتا وينهانا أن نحسبهم كذلك ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده وأنهم يرزقون فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى (فرحين بما آتاهم الله من فضله)..

انهم أحياء .. فما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة . وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس عن هذه الرحلة إلى جوار الله .. هذا هو الطريق .. تعديل كامل لمفهوم الموت متى كان في سبيل الله وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم . وافساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة وحيث تستقر في مجال فسيح عريض لا تعترضه الحواجز التي تقيمه هذه الآية الكريمة ونظائرها من القرآن في قلوب المسلمين سارت خطى المجاهدين في سبيل الله . وستسير خطى المجاهدين في سبيل الله في كل زمان وفي كل مكان .

فهناك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق .. شهداء في سبيل الله . قتلى أعزاء وأحباء . قتلى كراما أزكياء . فالذين يخرجون في سبيل الله والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس .. هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا.. انهم أحياء فلا يجوز أن يقال عنهم أموات .. لا يجوز أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور . ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان . انهم أحياء بشهادة الله سبحانه . فهم لا بد أحياء .. انهم قتلوا في ظاهر الأمر وحسبما ترى العين . ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة .. ان سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد . وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع .. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة . والفكرة التي من أجلها

قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد . وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها . وهذه هي صفة الحياة الأولى فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس ثم هم أحياء عند ربهم باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه ، وحسبنا اخبار الله تعالى به (أحياء ولكن لا تشعرون).. لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود .. ولكنهم أحياء .. أحياء .. ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها . فالغسل تطهير للجسد الميت. وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم في الارض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء .. أحياء فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء . أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء .. أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ولا يتعاظمها الأمر ولا يهولنها عظم الفداء .. ثم هم من بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله ... مأجورون أكرم الأجر وأوفاه ..

في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش . فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد اليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا : قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الشهادة — فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم اليها لا يرجعون) ..

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة (أخرجه مالك والشيخان). ويقول الله تبارك وتعالى (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الامام أحمد في مسنده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلى حلة الايمان)..

الباب الحادي عشر

النصر

١ — حقيقة كبيرة

ان الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة ويعدهم على هذا النصر والتثبيت (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)..وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ ان لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقي فيها معه أحد ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب اليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرها وعلانيتها ونشاطها كله وخلجاتها .فهذا نصر الله في ذوات النفوس . وان لله شريعة ومنهاجا للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة ..

وانه متى استقرت حقيقة الايمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة ونظاما للحكم وتجردا لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .. وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الاسلامي كله واقعة واحدة تخالفها .. ونحن نقرر في ثقة بوعد الله لا

يخالجها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، الا وهناك ثغرة في حقيقة الايمان — اما في الشعور وإما في العمل — ومن الايمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل اضافة ومن كل شائبة — وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين — حين يوجدون ..

ففي أحد مثلا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الطمع في الغنيمة . وفي حنين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والاعجاب بها ونسيان السند الأصيل .. ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا .. نعرفه أو لا نعرفه .. أما وعد الله فهو حق في كل حين .. نعم أن المحنة قد تكون للابتلاء .. ولكن الابتلاء انما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الايمان ومقتضياته من الأعمال . فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين .. ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة .. فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودا وكلالا وقنوطا ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق.. فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله الذي يقول : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وانما يشير سبحانه الى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وانما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة الى استكمال حقيقة الايمان في قلوبها تصورا وشعورا ، وفي حياتها واقعا وعملا .. وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وانما هو للحقيقة التي وراءها .. وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان الا أن نستكمل حقيقة الايمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك.. ومن حقيقة الايمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الايمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله.. ووعد الله هذا الأكيد يتفق تماما مع حقيقة الايمان وحقيقة الكفر .. في هذا الكون ان الايمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى ..وان الكفر انقطاع عن تلك

القوة ويعزل عنها .. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون . غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الايمان ومظهر الايمان ..

ان حقيقة الايمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الايمان الى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها .. لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء .. ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الايمان .. ان قاعدة المعركة لقهر الباطل هي انشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق).

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع الا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر الا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. ان للحق والايمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فاذا ظل الايمان مظهرا لم يتجسم في القلب ، والحق شعارا لا ينبع من الضمير . فان الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والايمان .. يجب أن تتحقق حقيقة الايمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان .

٢ ــ إعداد العدة :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).

ان الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التي تدخل في طوق العصبة المسلمة فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).. انه لا بد للاسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الانسان ، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة : أن تؤمن الذين يختارون العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها . والأمر الثاني أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الاسلام التي تحميها تلك القوة . والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الانسان كله في الأرض كلها . والأمر الرابع أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ، ومن ثم فالحاكمية لله وحده سبحانه .

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب وتنظيما للشعائر ثم تنتهي مهمته. ان الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية ، فلا مفر للإسلام لإقرار منهجه الرباني من تحطيم تلك القوى المادية وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى وتقاوم المنهج الرباني . وينبغي للداعية ألا يتمتم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة ، ينبغي أن يستشعر بالعزة . ينبغي أن يذكر الدعاة دوما أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد . انه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا تقرير سلطان زعيم أو دولة أو طبقة أو جنس . انه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ، ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما اليها من المذاهب البشرية ، انما ينطلق الدعاة بمنهج من صنع الله العليم الخبير الحكيم البصير . ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير الانسان في الأرض من العبودية للعبيد . هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم

يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي والجهاد الإسلامي .. إذن يجب إعداد العدة .. وهي في حدود الطاقة إلى أقصاها . بحيث لا تقعد العصبة المسلمةعن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين ولتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله .. انه لا بد من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما في الطوق ليستحق المسلم المدد من ربه . فالمدد لا يأتي للقاعدين المسترخين المسترخين الذين ينتظرون . ولا يزيدون شيئا عن الانتظار .

والانفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة المسلمة وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة اليه وحماية المؤمنين به . ودفع الشر والفساد والطغيان وتجريده من القوة التي يسطو بها على المؤمنين ويفسد بها في الأرض ، ويصد بها عن سبيل الله ، ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذي يحمله اليها نظام الإسلام ؛ والذي يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة . واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال . ولقد تكررت الدعوة إلى الانفاق في سبيل الله في القرآن كثيرا (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم). فلا بد للدعوة من انفاق ، لا بد منه تطهيرا للقلب من الشح واستعلاء على حب الملك وثقة بما عند الله، وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الايمان.ثم انهاضرورية كذلك لحياة الجماعة. فالدعوة كفاح ، ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره ، وأحيانا يكون هذا التكافل كاملا بحيث لا يبقى لأحد مال متميز ، كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ونزولهم على اخوانهم في المدينة .

والمنهج الاسلامي يأخذ النفس من أقطارها وينظم حياة الجماعة المسلمة جملة لا تفاريق . وأعظم المعارك التي يخوضها الإسلام في ميدان النفس فتغلب أول ما تغلب على الشح ، فهي تبذل وتنفق في سبيل الله وهي صفة من صفات القوة في المعركة (الذين ينفقون في السراء والضراء) هؤلاء ثابتون على البذل ، ماضون على النهج لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء ، السراء لا تبطرهم فتلهيهم ، والضراء لا

تضجرهم فتنسيهم . انما هو الشعور بالواجب في كل حال ، والتحرر من الشح والحرص ومراقبة الله وتقواه . وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها المحبة للمال بفطرتها .. ما يدفع النفس إلى الانفاق في كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال وربقة الحرص وثقلة الشح .. دافع التقوى ، ذلك الشعور اللطيف العميق الذي تشف به الروح وتخلص وتنطلق من القيود والأغلال .. لتنفق في سبيل الله (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) إن هذا هو شأن المؤمن لا سواه ، انه لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله ، لا ينفق عن هوى ولا عن غرض . لا ينفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون . لا ينفق ليركب الناس بإنفاقه ويتعالى عليهم ويشمخ. لا ينفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيشان .. لا ينفق الا ابتغاء وجه الله. خالصا متجردا لله ومن ثم يطمئن لقبول الله ، ولبركة الله على ماله ، ويطمئن لثواب الله وعطائه . ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد في هذه الأرض وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل.

٣ ــ عوامل النصر :

انها سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين واعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلا : أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة والضر ، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة . ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة . استحقوا نصر الله لأنهم يومئذ أمناء على دين الله . مأمونون على ما ائتمنوا عليه ، صالحون لصيانته والذود عنه ، واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف وتحررت من الذل وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة وأرفع ما تكون عن عالم الطين : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب).. هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها وإلى سنته سبحانه في تربية عباده المختارين الذين يكل اليهم رايته وينوط بهم أمانته

ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم .. وانهـــا لتجربة عميقة جليلة مرهوبة .. ان هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه .. من الرسول الموصول بالله والمؤمنون الذين آمنوا بالله . ان سؤالهم (متى نصر الله ؟) ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب فتبعث منها ذلك السؤال المكروب (متى نصر الله). وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة .. عندئذ تتم كلمة الله ويجيء النصر من الله (ألا ان نصر الله قريب)..

ان نصر الله مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه الا الذين يثبتون حتى النهاية : الذين يثبتون على البأساء والضراء . الذين يصمدون للزلزلة . الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله .. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أي حل آخر ، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله . ولا نصر إلا من عند الله . بهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وحده والشعور به وحده واغفال كل ما سواه . وكل ما سواه .. ان الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ويرفعها على ذواتها ويصهرها في بوتقة الألم فيصفو عنصرها ويضيء . ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية . فتتلألأ حتى في أعين أعدائهـــا وخصومها وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق . يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق حتى اذا ثبتوا للمحنة انحاز اليهم من كان يحاربهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين .. على أنه حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته – يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من أسار الحرص على الدعة والراحة والحرص على الحياة نفسها في النهاية ..

وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل اليه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته.. وهذا الانطلاق هو المؤهل

لحياة الجنة في نهاية المطاف .. وهذا هو الطريق .. هذا هو الطريق كما بينه الله سبحانه لكل جماعة مسلمة في كل جيل .. هذا هو الطريق .. ايمان وجهاد .. ومحنة وابتلاء .. وصبر وثبات ، وتوجه الى الله وحده ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم .. ان التدبير تدبير الله والنصر من عند الله . والكثرة العددية ليست هي التي تكفل النصر . والعدة المادية ليست هي التي تقرر مصير المعركة فليثبت الذين آمنوا حين يلقون الذين كفروا . وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التقدير والتدبير وصاحب العون والمدد ، وليحترزوا من خداع الشيطان (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين).. هذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو ، والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله والرسول وتجنب النزاع والشقاق والصبر على تكاليف المعركة ..

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما ، وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ، كما أنه التعليم المطرد الذي يستقر في قلوب العصبة المؤمنة (وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).. ان ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي بوظائف شتى : انه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه . وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها . فهي معركة لله لتقرير ألوهيته في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية واذن هي معركة لتكون كلمة الله هي العليا . لا للسيطرة ولا للمغنم ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي كما أنه توكيد لهذا الواجب — واجب ذكر الله — في أحرج الساعات وأشد المواقف . وكلها ايحاءات ذات قيمة قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني ..

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب

ربحكم). فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ، والا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فاذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، انما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها وانما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة.. انه من عمليات الضبط التي لا بد منها في المعركة .. انها طاعة القيادة العليا فيها التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله ولا يقوم ولاءها للقيادة على ولاءها لله أصلا والمسافة كبيرة كبيرة .

وأما الصبر فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة .. أية معركة ، في ميدان النفس أم في ميدان القتال (واصبروا ان الله مع الصابرين) وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والنجاح .. ان العصبة المؤمنة انما تخرج للقتال في سبيل الله . تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر . وتقرير عبودية العباد لله وحده. وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده ، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية وتخرج لتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله ، تستذل انسانية الانسان وكرامته .. وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم . لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة .. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب الا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد وفي اقامة منهجه في الحياة وفي اعلاء كلمته في الأرض ، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه .

٤ — سنة ثابتة ووعد قاطع :

ان وعد الله واقع وكلمة الله قائمة (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم هم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون).. هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله ،

يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة . أنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل ، مهما رصد لها الباطل من قوى الحديدوالنار ، وقوى الدعاية والافتراء وقوى الحرب والمقاومة . وان هي الا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف ، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين . هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء .. ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء .

ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف ، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة الا بعد حين . ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون .. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة . وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام .

وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام . ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة ويقسو عليهم الابتلاء ؛ لأن الله يُعدُّهم للنصر في معركة أكبر . ولأن الله يهيىء الظروف من حولهم ليؤتي النصر ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول وفي أثر أدْوَم . هذه كلمة الله سابقة فقد مضت إرادته بوعده وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد (انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) ..

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فاذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة . فهذا الواقع هو الباطل الزائل

الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الايمان واهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم . وحين ينظر الانسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الايمان على أهل الايمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية. ثم بقي الايمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ، ومن خضوعها للطغيان الغاشم الا ريثما تنقض عليه وتحطمه .. حين ينظر الانسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع بدون حاجة الى الانتظار الطويل (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لاغلبن أنا ورسلي انالله قوي عزيز). وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقةالكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود .

ان وعد الله قاطع جازم (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبــا مطرودا . وان المؤمنين فيهم من يسام العذاب . وفيهم من يلقى في الأخدود وفيهم من يستشهد ، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيــــل .. ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير ..

ان الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والايمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الايمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها ..

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صرر معينة معهودة لهم . قريبة الرؤية لأعينهم .. ولكن صور النصر شتى .. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . ابراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار ، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ، وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف الى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال .. ما النصر؟ وما الهزيمة ؟ اننا في حاجة أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا . على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصور الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد صلى الله عليه وسلم في حياته لأن هـذا النصر مرتبط بمعنى اقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها الا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً من القلب المفرد الى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه .

وهناك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . ان وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولا بد أن توجد حقيقة الايمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها وحقيقة الايمان كثيراً ما يتجوز الناس فيها . وهي لا توجد الا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره واشكاله . وان هنالك لاشكالاً من الشرك خفية لا يخلص منها القلب الا

حين يتجه لله وحده و يتوكل عليه وحده، و يطمئن الى قضاء الله فيه. وقدره عليه. و يحس أن الله وحده هو الذي يصرفه ، فلا خيرة له ، الا ما اختار الله . و يتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول وحين يصل الى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير. فسيكل هذا كله لله . و يلتزم . و يتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير . . وذلك معنى من معاني النصر . . النصر على الذات والشهوات . . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال .

٥ ــ تأخير النصر :

ان الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (التنابلة) الكسالى ؛ الذين يجلسون في استرخاء . ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ؛ لمجرد أنهم يقيمون الصلاة و يرتلون القرآن ،و يتوجهون الى الله بالدعاءكلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء . .

نعم انه يجب أن يقيموا الصلاة وان يرتلوا القرآن . وان يتوجهوا الىالله بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ، انما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون اليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه. و يزيدون عنه سلاح التقوى والايمان والاتصال بالله . ولقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا عن طريقهم هم أنفسهم ، كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الانسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ، وهي تدفع وتدافع ؛ وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ، ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ، ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ؛ وتصل الى ما هو مقدورها ، وما هي مهيأة له من الكمال . والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة الى استيقاظ كل خلاياها ؛ واحتشاد كل قواها ،

وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كي يتم نموها ويكمل نضجها وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء . والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور لانه لا يحفزها ولا يدعوها. وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً : لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه . وهنالك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكرّ والفرّ ، والقوة والضعف ، والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . من الأمل والألم ، ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق ، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها ، وكشف نقط الضعف ونقط القوة . وتدبير الأمور في جميع الحالات وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس . من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطيء لأن بنية الامة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها . ولم يتم بعد تمامها . ولم تحشد بعد طاقاتها . ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . .

وقد يبطيء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، ولا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله ..

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها . فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . انما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الامر بعدها الى الله . .

وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ، ولا تجد لها سنداً الا الله ولا متوجهاً الا اليه وحده في الضراء .. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله .. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به ..

وقد يبطىء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الاخرى التي تلابسه . وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة . والرجل يقاتل ليرى . فأيها في سبيل الله ؟ فقال (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (رواه الشيخان) ..

كما قد يبطىء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار ..وقد يبطىء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم تنكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له انصار من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الابرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية .

وقد يبطىء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه . من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطىء النصر ، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية . وللنصر تكاليفه واعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفائه أسبابه ، واداء ثمنه ، وتهيوء الجو حوله لاستقباله واستبقائه .

(ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز. الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) . . انه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه واعبائه. والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء فيبدل الهزيمة نصراً ،والنصر هزيمة عندما تختل القوائم . أو تهمل التكاليف (ولله عاقبة الأمور) . انه النصر الذي يؤدى الى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهةالى الخير والصلاح . المنظور فيه الى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الاشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . . وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة . ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . . ولقد كان القرآن ينشيء قلوباً يعدها لحمل الأمانة . وهذة القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع — وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء — إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة ، ولا ترجو الا رضوان الله . قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الاسلام وظهور المسلمين . . حتى اذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء الا أن تعطي بلا مقابل . وان تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء . . وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل . وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، أتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع الى شيء من المغنم في الأرض تعطاه ، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء الا رضاه (فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة . وليس بالمال والزاد . انما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد)

الباب الثاني عشر

الحياة في التصور الإسلامي

١ — الدار الآخرة :

ان قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الاسلام ، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتي لا يقوم هذا الدين — عقيدة وتصوراً وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً — الا عليها . . وبها . . .

ان هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم به نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً — كما قال لهم في كتابه الكريم — هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه ..(يتكامل) ويتناسق في تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية مع شرائعه التنظيمية . . وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة في التصور الاسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا . ان الحياة في التصور الاسلامي تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد

عمقاً في العوالم، وتمتد تنوعاً في الحقيقة. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها. ان الحياة في التصور الاسلامي تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا — وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها الا الله، والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس اليها ساعة من نهار.

وتمتد في المكان، فتضيف الى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، دار أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وناراً تسع الكثرة من جميع الاجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين.

وتمتد في العوالم، فتشمل هذا الوجود المشهود الى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها الا الله، ولا نعلم نحن عنه الا ما أخبرنا به الله. وجود يبدأ من لحظة الموت. وينتهي في الدار الآخرة. وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله. وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها الا الله.. وتمتد الحياة في حقيقتها. فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، الى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى.. في الجنة وفي النار سواء. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا.. ولا تساوي الدنيا — بالقياس اليها — جناح بعوضة.

والشخصية الانسانية في التصور الاسلامي يمتد وجودها في هذه الابعاد من الزمان، وفي هذه الآفاق من المكان، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات.. ويتسع تصورها للوجود كله، وتصورها للوجود الانساني، ويتعمق تذوقها للحياة، وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والاعماق والمستويات.. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني، وتصورهم للوجود الانساني، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا.. ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم، ويبدأ

الاختلاف في النظم.. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق، وتتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصورا واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً وشريعة ونظاماً . . إن انساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات ، غير انسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ، ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض عما يفوته ، ولا جزاء عما يفعله وما يفعل به . . الا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس .

ان اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشىء سعة في النفس وكبرا في الاهتمامات ورفعة في المشاعر . ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم . فاذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ، استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه — متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي — وصلحت الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ، ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة . فيخسرون الدنيا والآخرة .

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون : انها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، والى إهمال هذه الحياة ، وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ، وتركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هـذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون الى الافتراء الجهالة . فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة — كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم .. فالدنيا في التصور الاسلامي هي مزرعة الآخرة . والجهاد في الحياة الدنيا لاصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا .. كل أولئك هو

زاد الآخرة ، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى ..

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران.. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟ ان الناس اذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الاسلام — فانما هم يصنعون ذلك لأن تصورهم للاسلام قد فسد وانحرف ، ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف . لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون بلقاء الله في الآخرة فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا ، أو متخلفا أو راضيا بالشر والفساد والطغيان .

انما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى. ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو انما يقدم نفسه في الآخرة .. انه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن ليس هناك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ، وأن الدنيا صغيرة زهيدة ، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى ..

وان قيمة الدنيا بالنسبة لقيمة الآخرة في ميزان الله الصحيح : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟) .. هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار على هذا الكوكب الصغير ، الا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة الا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم .. هذا تقييم مطلق .. ولكنه في التصور الإسلامي — كما قلنا — لا ينشيء

اهمالا للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالا عنها وليس ما وقع من هذا الاهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات (التصوف) (والزهد) بنابع من التصور الإسلامي أصلا . انما هو عدوى من التصورات الكنسية والرهبانية ، ومن التصورات الفارسية ، ومن بعض التصورات الاشراقية الاغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الاسلامي .

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة . لم تكن سلبية ولا انعزالية .. فهذا جيل الصحابة كله الذين قهروا الشيطان في نفوسهم ، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض ، حيث كانت الحاكمية للعباد في الامبراطوريات .. هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الايجابية الضخمة في واقع الحياة ، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة ، وطاقة فائضة ، في كل جانب من جوانبها الحيّة الكثيرة .. انما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة . أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا . لقد ركبوها ولم تركبهم . وعبّدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم . ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة من تعمير وإصلاح ، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله ويرجون الدار الآخرة . فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا . ثم سبقوهم كذلك في الآخرة .

وان كل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها الى حقيقة الحياة الآخرة . وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى . وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم . من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة ..

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا . ولا

عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة .. مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته .. شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة .. (العلمية) كما يصر أهلها على تسميتها . (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين).. وكان الله سبحانه يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة انسانية رفيعة كريمة .. هذه الافاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلصق الانسان بالأرض، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة.. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان، التي تطلق السعار في النفس، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ولا أمل في عوض ، ان لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ..

وهذه الأنظمة والأوضاع ، التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان .. الا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضا ، وتصارع الطبقات بعضها بعضا ، وتصارع الأجناس بعضها بعضا .. وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان . كما نشهد اليوم في عالم الحضارة .. في كل مكان .. كان الله سبحانه يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة الاشراف على الحياة البشرية وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة..من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً أن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان : تصورا واعتقادا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما ، نعم . انها الدار الآخرة . إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا ..

نعم انها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها . ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها .. والا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل . وبين الخير والشر . وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم المائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ويمضون في الطريق لا يتلفتون .. مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين .. وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة (الاشتراكية العلمية) أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا . ويحلوا محله تصورا كافرا جاهلا مطموسا يسمونه (العلمية).. ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد المحاولة،وتفسد النفوس، وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين . ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان . وينتشر داء الاهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال ..

ان العلمية التي تناقض الغيبية جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . جهالة يرجع عنها (العلم البشري) ذاته ، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين الا الجهال . جهالة تناقض فطرة الانسان ومن ثم تفسد الحياة ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار . ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها . ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية المطاف . والذي تردده الببغاوات هنا وهناك ، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك ..

ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها — كما

هي وظيفة الأمة المسلمة — إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها .. فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا ، وحدود هذه الأرض الصغيرة ، لا يمكن أن ينشأ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها !

ان العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة .. كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة .. والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس (الإنسان) وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في ادراك (الحيوان)! وما يصلح ادراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة .

لذلك كله كان التوكيد شديدا على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلا وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني .

٢ — القاعدة الايمانية الكبيرة :

ويجب على الدعاة أن يقفوا أمام القاعدة الايمانية الكبيرة ويدعو الناس اليها — قاعدة ان اقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء . لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة . فهو منهج واحد للدنيا والآخرة للدنيا وللدين .. تجيء هذه القاعدة الايمانية الكبيرة من هذا القرآن الكريم الذي يقررها ربنا عز وجل :

(ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون).

ان هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي ، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل ، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ، والعقل البشري والموازين البشرية ، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج ، بازاء هذا الأمر الخطير .. ان الله سبحانه يقول لأهل الكتاب — ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب — إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم — وهذا جزاء الآخرة . وانهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والانجيل وما أنزله الله اليهم من التعاليم — كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل — لصلحت حياتهم الدنيا ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة .. ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله — الا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها (وكثير منهم ساء ما يعملون).

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الايمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفل لأصحابه جزاء الاخرة وحده — وان كان هو المقدم وهو الأدوم — ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة .. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية .. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم).. وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ، وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا . انما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا والآخرة . فاذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الاخرة .. هذا الطريق الواحد هو الايمان والتقوى وتحقيق المنهج الالهي في الحياة الدنيا .. وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ، ولكنه كذلك — وتبعا لذلك — منهج حياة إنسانية واقعية ، يقام ، وتقام عليه الحياة .. واقامته مع الايمان والتقوى —

هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية ، وفيض الرزق ، ووفرة النتاج ، وحسن التوزيع ، حتى يأكل الناس جميعا — في ظل هذا المنهج — من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ان المنهج الايماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ، ولا يجعل سعادة الاخرة بديلا من سعادة الدنيا ، ولا يجعل طريق الاخرة غير طريق الدنيا .. وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية . لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم ، بحيث أصبح الفرد العادي — وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة — لا يرى أن هنالك سبيلاً للالتقاء بين الطريقين . ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ، واما أن يختار طريق الاخرة فيهمل الدنيا من حسابه ، ولا سبيل الى الجمع بينهما في تصور ولا واقع .. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا ..

حقيقة : ان أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله ، وعن منهجه للحياة ، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الاخرة ، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع الدنيوية ، أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ، والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف ، الذي يحض عليه الدين . كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة ، والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع ، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ، ولا مرضية لله سبحانه .. ولكن .. تراها ضربة لازب . ترى أنه لا مفرّ من هذا الحال التعيس ، ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؟

كلا .. انها ليست ضربة لازب . فالعداء بين الدنيا والاخرة ، والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل .. بل

أنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا . انما هي عارض ناشيء من انحراف طارىء . ان الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ، وأن يكون الطريق الى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا . وأن يكون الانتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا ، وأن يكون الايمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الآخروي .. هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية .. ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس .. فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة ، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة .. والخلافة عمل وانتاج ، ووفرة ونماء، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما يقول الله في كتابه الكريم .

ان التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله ، باذن الله ، وفق شرط الله .. ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر ، وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الارض وخاماتها ومواردها — بل الخامات والموارد الكونية كذلك — هو الوفاء بوظيفة الخلافة. ويعتبر قيام الانسان بهذه الوظيفة — وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف — طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة، بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ، ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه ، كما يصور التعبير القرآني الجميل .

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الانسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له ، عاصيا لله ، ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها ؛ وهو يقول للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة). وهو يقول كذلك للناس : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه)، ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد .. وهكذا يخسر الاخرة لأنه خسر الدنيا . والمنهج الاسلامي بهذا — يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق . فلا يفوت على

الإنسان دنياه لينال آخرته، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه . فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي . هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة . وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله .. فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف .. اذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة — في المنهج الإسلامي — لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان .. فالمنهج يحتّم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والانتاج ، وان يبتغي في العمل والانتاج وجه الله، فلايظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون، ولا يأكل من سحت، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئاً يملكه — مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع — والمنهج يسجل للفرد عمله — في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات — عبادة لله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة .. ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ، ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة، وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان ، وفي العمر كله بحجّ بيت الله . وفي كل موسم أو في كل عام باخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة الفرائض التعبدية في المنهج الاسلامي . انها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج ، الذي ينظم أمر الحياة كلها ، ويتولى شؤون العمل والانتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم . ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل ، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق .. وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شؤون العمل والانتاج والتوزيع والحكم والقضاء، والجهاد لاقرار منهج الله في الأرض، وتقرير سلطانه في حياة الناس .. انما الايمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج ، المعين على أداء شطره الآخر .. وهكذا يكون الايمان والتقوى واقامة منهج الله في

الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض . كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين..

ان التصور الإسلامي . وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه ، لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا — ولا العكس — انما يقدمهما معا في طريق واحد ، وبجهد واحد . ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة — دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله ، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج — ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل ، والتصور الإسلامي — وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه — لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى ، بديلاً من العمل والانتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية .'. وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ، بينما يدع الناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا — كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان — فالعمل والانتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي — والمنهج الإسلامي — فريضة الخلافة في الأرض . والايمان والعبادة والصلاح والتقوى ، تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس .. وهذه وتلك معاً هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا ، والطريق هو الطريق ، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم .. والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفرّ من أنّ يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ، ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع .. لأنهما لا تجتمعان ..

ان هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس ، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي وبين النجاح في الحياة الدنيا ، والنجاح في الحياة الأخرى .. إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية . انما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله ، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها ، معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه . وهي ضريبة يؤديها

الناس من دمائهم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشدّ وأنكى. إنهم يؤدونها قلقاً وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر، من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الايمان وبشاشته وزاده وريه، إذا هم آثروا اطراح الدين كله، على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والانتاج والعلم والتجربة، والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم، يصارعون، الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب، ولا تطيق الفراغ والخواء. وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية .. على الاطلاق .. لأنها جوعة النزعة إلى إله.

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر، اذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله، وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني، والسلوك الديني، مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود. وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية، أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية .. وتتصور — أو يصوّر لها أعداء البشرية — أن الدين لله، وأن الحياة للناس، وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق، والحياة نظام وقانون وانتاج وعمل. وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة .. ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء .. لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة، بل ينسق .. ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة، في فترة موقوتة، اذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها، وهي موفورة الخيرات، كثيرة الانتاج عظيمة الرخاء .. انه رخاء موقوت، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت. وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الابداع المادي والمنهج الرباني .. والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى: تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلاً بالشقاء، وحافلاً بالأحقاد، وحافلاً بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه

الأحقاد الكظيمة . وهو بلاء على الرغم من الرخاء .. وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع ، واتخذت طريق التحطيم والقمع والارهاب ونشر الخوف والذعر ، لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع .. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام . وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره — ان عاجلا أو آجلا — إلى تدمير الحياة المادية ذاتها . فالعمل والانتاج والتوزيع كلها في حاجة الى ضمانة الأخلاق . والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان ..

وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم — بخاصة أشدها رخاء ماديا — مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال. ويهبط بعدذلك بمستوى العمل والانتاج . وينتهي الى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء . وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار .. وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب ، الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة .. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية .. ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء . وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب الى الاندثار والدمار — وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي — وليس هذا إلا مثلاً للآخرين ، في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني ، وافتراق الدنيا والآخرة ، وافتراق الدين والحياة ، أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله ، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ، وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس .

وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة ، نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الايمان والتقوى واقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس ، وبين العمل والانتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب — ولكل جماعة من الناس — أن يأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ، وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي — بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة — وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان . ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الايمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية .. فهذا يتضمن في ثناياه العمل والانتاج والترقية والتطوير للحياة .. فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ، ويرفع كل قيم الحياة ، ويقوّم كل موازين الحياة . فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي ، وكل شيء يجيء تبعا له ، ومنبثقاً منه ومعتمداً عليه .. ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق . وينبغي أن نذكر أن الايمان والتقوى والعبادة والصلة بالله واقامة شريعة الله في الحياة .. كل أولئك ثمرته للانسان ، وللحياة الإنسانية . فالله سبحانه غني عن العالمين .. وإذا شدّد المنهج الالهي في هذه الأسس وجعلها مناط العمل والنشاط ، وردّ كلّ عمل وكل نشاط لا يقوم عليها ، وعده باطلا لا يقبل وحابطاً لا يعيش ، وذاهبا مع الريح . فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من ايمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة .. ولكن لأنه — سبحانه — يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج.. وفي الحديث القدسي : عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : (يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادي كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدوني أهدكم .. يا عبادي كلكم جائع الا من أطعمته ،فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادي كلكم عار الا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .. يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم .. ياعبادي انكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.. يا عبادي لو أن

أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كمـــا ينقص المخيط إذا أدخل البحر .. يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم اياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1] . وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الايمان والتقوى والعبادة واقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله .. فهي كلها لحسابنا نحن .. لحساب هذه البشرية .. في الدنيا والآخرة جميعا .. وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول : ان هذا الشرط الالهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب . فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الايمان والتقوى واقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل اليهم في التوراة والانجيل .. وما أنزل اليهم من ربهم — وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة — فأولى بالشرط الذين أنزل اليهم القرآن .. وأولى بالشرط الذين يقولون : انهم مسلمون . فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الايمان بما أنزل اليهم وما أنزل من قبل ، والعمل بكل ما أنزل اليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم .. وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد .. وقد انتهى اليه كل دين قبله ، ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره .. أو يقبل من أحد غيره . فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم ، وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الاخرة ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا .. انهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي — أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح — وشرط الله قائم والطريق اليه معروف .. لو كانوا يعقلون ..

ان الذين يوجهون قلوبهم للآخرة لا يخسرون متاع الحياة الدنيا كما يقوم في

(١) (رواه مسلم) .

الأخيلة المنحرفة . فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا . والايمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض . وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . انه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظارا للآخرة . ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله . وتمهيدا للآخرة .. هذا هو الإسلام ..

لذلك يجب أن نقف أمام حقيقة من حقائق هذه العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان ..

إن العقيدة الإيمانية في الله وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة وعن خط تاريخ الانسان .. ان الايمان بالله وتقواه ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض وعدا من الله ومن أوفى بعهده من الله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)..

ونحن المؤمنين بالله نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدقه ابتداء ، لا نسأل عن علله وأسبابه ، ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله . نحن نؤمن بالله بالغيب ونصدق بوعده بمقتضى هذا الايمان . وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح عاملة في الأرض ، متطلعة إلى السماء متحررة من الهوى والطغيان البشري ، عابدة خاشعة لله.. تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه. فلا جرم تحفها البركة ويعمها الخير ويظلها الفلاح .. والمسألة من هذا الجانب مسألة واقع منظور إلى جانب لطف الله المستور ، واقع له علله وأسبابه الظاهرة إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود . . والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين ألوان شتى . والذين يتصورون الايمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لا يعرفون الايمان ولا يعرفون الحياة. وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله سبحانه وكفى بالله شهيدا ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون). ولقد ينظر بعض

الناس فيرى أنها يقولون : أنهم مسلمون مضيقا عليهم في الرزق لا يجدون الا الجدب والمحق .. ويرى أنها لا يؤمنون ولا يتقون مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . فيتساءل : وأين اذن هي السنة التي لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذاك وهم تخيله ظواهر الأحوال . ان أولئك الذين يقولون أنهم مسلمون .. لا مؤمنون ولا متقون ، انهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة بأن لا اله الا الله ، انهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم يتألهون عليهم ويشرعون لهم سواء القوانين أو القيم والتقاليد ، وما أولئك بالمؤمنين . فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ..

ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الايمان مسلمين حقا دانت لهم الدنيا وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض وتحقق لهم وعد الله..فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق.. فهذه هي السنة (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء). فهو الابتلاء بالنعمة وهو أخطر من الابتلاء بالشدة . وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن وهو متاع بلا رضى وهي وفرة بلا صلاح ، وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال .. ان البركات الحاصلة مع الايمان والتقوى بركات في الأشياء وبركات في النفوس وبركات في المشاعر ، وبركات في طيبات الحياة ، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .

٣ ــ غاية الحياة :

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلــة ، من أضخم

الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارهـــا وأعصارهـــا .

وانه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس التي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والأنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ، وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والأنس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي العبودية لله : أن يكون هناك عبد ورب . عبد يعبد ، ورَبٌّ يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والانس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الانسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : (واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليقة).. فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني. وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الالهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً . وأن حقيقة العبادة تتمثل اذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً وربا . عبداً يعبد ، وربا يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود الا عابد ومعبود؛ وإلا ربٌ واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها الى الله خالصة ، التجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ، ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله .. كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والأنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الانسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة الله وعبادة له لا إرب له فيها ، ولا غاية له من ورائها ، الا الطاعة ، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضا عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضا الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً .

وعندئذ يكون قـــد فرَّ الى الله حقاً . يكون قد فرَّ من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفته . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال وخلص لله ، واستقر في الوضع الكوني الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خُلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار

معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ما تكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ، ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها ..

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامل فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيئته . وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته. ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض . وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه ، باطلاق مشاعر الانسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه — سبحانه — أو يرزقوه حين يكلفهم انفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه :

(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين)

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الانسان معلقاً بتحقيق معنى العبادة في الجهد ، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد .. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعش — كما عاش جيل المسلمين الأول — في ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق أفق العبادة ، أو أفق العبودية . ويستقر عليه ، فان نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا . فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات ، انما يعني نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقاً لمعنى العبادة في الاداء . أما الغايات فموكولة لله يأتي بها وفق قدره الذي يريده . ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول الى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله .

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، في جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه ، عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته ..

وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ورضي الله عنه ورضي هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب تلك الحقيقة الضخمة الهائلة التي تقررها آية واحدة قصيرة :

(وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون). (وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقاً في الضمير ...)